توم سوير

تأليف

مارك توين

ترجمة

ماهر نسيم

راجعه

فريد عبد الرحمن

الألف كتاب (٤٦)

توم سوير
قصة حياة طفل !

تأليف

مارك توين

تعريب

ماهر نسيم

مراجعة

فريد عبد الرحمن

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

هذه ترجمة كتاب

TOM SAWYER

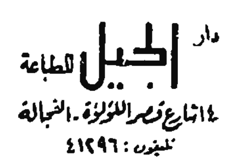
By
Mark Twain

Published by (Public Domain)

الألف كتاب

توم سوير
قصة حياة طفل !
(٤٦)

بإشراف
إدارة الثقافة العامة
وزارة التعليم العالى


دار الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون : ٤١٢٩٦

مارك توين

- ولد عام ١٨٣٥ ووافته منيته عام ١٩١٠ بعد أن عاش خمسة وسبعين عاماً .
- وضع عدة كتب أشهرها « توم سوير » ، و « هاكلبرى فين » ، و « أخذ الأمور كما هى » . . . ، و « الحياة على نهر المسيسبي » .
- كاتب عصامى ، أحرز ما أحرزه من نجاح بفضل ما بذله من جهد مرير ، فقد اشتغل عاملا فى المناجم ومراسلا صحفيا ومحاضرا .
- تغلب على كتاباته الدعابة الحلوة والفكاهة المرحة . بيد أن هذه الفكاهة وتلك الدعابة لم تكونا مجرد وسيلة من وسائل الترفيه عن القراء أو التسرية عن المحزونين ، بقدر ما كانت طريقة من طرائق معالجة أكثر مشاكل الحياة جدية .
- ترجمت قصصه إلى معظم اللغات الأجنبية ، ونالت تقدير النقاد فى كل مكان .

تقديم

تعالج هذه القصة « توم سوير » حياة غلام تهفو نفسه إلى المغامرة والمخاطرة ، وينبض قلبه بما تنبض به قلوب البشر عادة من حب و بغض ، وقلق وارتياح ، وألم ومرح ، وخذلان وانتصار ، وثورة على النفس ورضاء بالواقع ... وهي قصة كل صبي تتجاذبه عوامل المراهقة بكل ما تحمله معها من شعور بالتطلع إلى الأمام والرجولة المبكرة وحب الارتقاء بالذات . ولعل كل واحد منا قد مرت به مرحلة شبيهة بتلك التي اجتازها « توم سوير » . بل لعلنا جميعاً قد لعبت بنفوسنا نفس الخيالات والرؤى والأوهام التي لعبت برأس ذلك الصبي .

وعلى الرغم من أن قصة « توم سوير » هي قصة صبي لم يكتمل نضجه العقلي والنفسي ، إلا أن « مارك توين » قد أودع القصة تجارب ومفهومات ينبغي أن نقف عندها متأملين دارسين . فالصراع الذي صوّره لنا المؤلف في هذه القصة بيّن انطلاقات الطفولة ممثلة في « توم سوير » ، و « هاكلبري فين » ، و « ماري » ، و « إيمي » من جانب ، وبين الواقع المرير الذي يطحن الكبار ممثلين في « العمة بولي » وأسرة « ماري » وشتى رجال القرية اليافعين ونسائها الساذجات الطيبات من جانب آخر ، صراع دقيق يستأهل التحليل والدراسة .

ولو أننا ألقينا نظرة أعمق وأشمل على تلك القصة ، لوجدناها أشبه بمسرح كبير تتعاقب عليه شخصيات عدة يحفل بها كل مجتمع في العالم سواء أكان هذا المجتمع غربياً أم شرقياً ... فالعمة « بولي » قد تكون أشبه بأية أم في مصر أو غير مصر ، « وتوم سوير » قد يكون أي صبي في الشرق أو الغرب ، و « هاكلبري فن » الفتى الضائع الذي ذهب ضحية المجتمع يشبه فتية كثيرين نراهم في كل مكان ... كما أن مشاعر الحب والبغض ، والسعادة

والتعاسة ، والانتصار والخذلان ، التى تحفل بها هذه القصة هى نفس المشاعر التى تصطبغ بها الحياة فى كل مكان وفى كل زمان .

ولقد وقع اختيار إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم على هذه القصة بالذات ، لأنها تصوّر شتى ضروب الحياة الإنسانية تصويراً رائعاً لا يخلو من دعابة حلوة وتوجيه مفيد للشباب ، ولما تتضمنه القصة من مبادىء ومثل تستهدف الارتقاء بالذات ، والتطلع إلى الأمام ، وتغليب الخير على الشر مهما اشتدت قوة المؤثرات والمغريات .

ولا شك أن القارىء الكريم سوف يلاحظ أن « هاكلبرى فن » الفتى الشريد الضائع قد اقتسم بطولة القصـــة مع « توم سوير » . ولقد أراد « مارك توين » ذلك ، لأنه أحب أن يجعل من شخصيتى « توم سوير » و « هاكلبرى فن » وحدة متماسكة تؤدى غرضاً واحداً ؛ هو معالجة مشاكل المجتمع معالجة صادقة ، ونقدها نقداً صارماً فى وقت واحد .

وفى الختام ، هذه لمحة خاطفة عن « مارك توين » مؤلف القصة ، وإلمامة عابرة بالقصة ذاتها التى نضعها بين أيدى القراء الكرام ، سائلين الله تعالى أن يلهمنا جميعاً ما فيه الخير والتوفيق ، والسلام ؟

فريد عبد الرحمن
عميد معهد المعلمين بالزيتون
(مراجع الكتاب)

ماهر نسيم
(مترجم القصة)

(الطبعة الثانية فى مايو ١٩٦٣)

الفصل الأول

« توم » يلعب ويقاتل ويختفي

— « توم » !

— « توم » !

ولم يجب « توم » .

— لشد ما أعجب ماذا أصاب هذا الغلام ! يا ولد يا « توم » !

ولم يجب « توم » للمرة الثالثة .

وجذبت السيدة العجوز عويناتها إلى أسفل ، ثم تطلعت من فوق حافتها في أنحاء الغرفة ، وعادت فرفعت عويناتها مرة أخرى ونظرت من تحتها ، لأنها قلما كانت تتطلع من خلالها لترمق بنظراتها شيئاً تافهاً مثل الصبي توم — وبدت الحيرة على وجهها لحظة ، ثم ما لبثت أن قالت بصوت لا أثر للشراسة فيه وإن كان مرتفعاً إلى الدرجة التي تكفل لأثاث الغرفة أن يسمعه :

— حسناً .. لكم أود أن أظفر بك .. فعندئذ . . .

ولم تكمل عبارتها ، إذ سرعان ما انحنت إلى الأمام وراحت تدفع مكنستها هنا وهناك تحت الفراش ، وقد احتفظت بأنفاسها حتى تستطيع أن تنظم ضرباتها التي كان يخيل إليها أنها سوف تصيب « توم » ولكنها لم تصب إلا الهرة .

— إنني لم أستطع أن أعرف حتى الآن أين يختفي هذا الغلام !

وتقدمت من الباب المفتوح ، ووقفت عند مدخله ، وتطلعت إلى الخارج عبر مزرعة الطماطم وأعشاب الداتورة التي كانت تملأ الحديقة . ولكنها

لم تر أثرا لتوم ، ومن ثم فقد رفعت صوتها إلى الدرجة التى تجعله مسموعا من بعد ، وصاحت :

— أين أنت يا ولد يا « توم » !

وارتفعت من خلفها ضوضاء خفيفة ، فاستدارت فى الوقت الملائم لتمسك بغلام صغير من ياقته فتمنعه من الفرار . .

وهتفت : هناك ! كان ينبغى أن أفكر فى هذا (المطبخ) . . انظر إلى فمك .. ما هذه الآثار ؟

— لست أدرى يا عمتى !

— حسناً . . أما أنا فأدرى . إنها مربى — نعم ، مربى . . لقد قلت لك أربعين مرة أنك إذا لم تدع هذه المربى وشأنها فسأسلخ جلدك . . . هات هذه العصا .

ورفرفت العصا فى الهواء — كان الخطر داهما . .

وصاح الفتى : يا إلهى ! انظرى خلفك يا عمتى !

واستدارت السيدة العجوز على عقبيها ، وجذبت ثوبها بعيداً عن الخطر . وفى التو لاذ الغلام بالفرار ، وتسلق السياج المرتفع العريض ، ثم اختفى خلفه .

وجمدت عمته « بولى » فى مكانها لحظة وقد استبدت بها الدهشة ، ولكنها لم تلبث أن انفجرت ضاحكة بلطف . ثم قالت :

— يا للغلام اللعين . ! ألا أستطيع أن أتعلم شيئا ؟ ألم يخدعنى كثيرا على هذا المنوال بحيث كان يجدر بى أن أكون منه على حذر الآن ؟ ولكن قدامى الحمق هم أكبر الحمق . . فأنت لا تستطيع أن تعلم الكلب العجوز الحيل الجديدة كما يقول المثل . لكن يا إلهى ، أن هذا الغلام لا يكرر الحيلة مرتين ، فكيف يستطيع الإنسان أن يعرف ما يخبئه له ؟ يبدو أنه يعرف

إلى أى مدى يستطيع أن يعذبنى قبـــل أن يثور غضبى ، ويعرف أنه إذا استطاع أن يأخذنى على غرة أو يثير ضحكى ، انتهى كل شيء وانحسرت عنى الرغبة فى ضربه . . إننى لا أؤدى واجبى حيال هـذا الغلام ، تلك حقيقة يعلمها الله . . إننى أرتـكب إثما وأزرع العذاب لـكلينا . . إن هـذا الغلام شقى ، ولـكنه ابن أختى الميتة . . ولهذا فإننى لا أجد من نفسى الشجاعة الـكافية لـكى أضربه .. حسناً ، يقول الـكتاب المقدس أن « أيام ابن حواء قليلة كلها متاعب » ، وفى كبر ظنى أن هذا صحيح . . إنه سيلعب الهوكى بعد ظهر اليوم ، ولـكننى مضطرة إلى إرغامه على العمل غداً عقابا له . . من المؤلم حـقاً أن أجعله يعمل فى أيام الآحاد والأطفال جميعا يستمتعون بالعطلة ، ولـكنه يكره العمل أكثر مما يكره أى شيء آخر ، ولا بد لى من أن أؤدى بعض الواجب علىّ نحوه ، وإلا فسأكون السبب فى ضيـاع مستقبل هذا الغلام .

ولم يلعب « توم » الهوكى فى يومه هـذا ، ولـكنه قضى وقتاً طيباً فى اللهو ، ولم يعد إلى المنزل إلا فى الوقت الذى كان يجب عليه أن يعود فيه لمعاونة « جيم » — وهو غلام زنجى صغير — فى « نشر » الخشب اللازم للغد وإشعال النار فى الموقد قبل موعد العشـاء — ولقد وجد « جيم » من وقته متسعاً ليحدث « توم » عن مغامراته فى هـــذا اليوم ، بينما انصرف « توم » إلى العمل حتى أتم ثلاثة أرباعه . أما « سيدنى » أخ « توم » (أو بالأحرى أخيه لأبيه) ، فـكان قد فرغ من أداء نصيبه من العمـل (جمع قطع الخشب) إذ كان غلاما هادئا لا يعرف معنى المغـامرات ولا يسلك سبلا ملتوية .

وبينما كان « توم » يتناول عشاءه ، ويسرق قطع السكر كلمـا واتته الفرصة ، راحت عمته « بولى » تلقى عليه أسئلة ، مفعمة بالدهاء إذ كانت تسعى إلى استدراجه ليفضى إليها بما يصلح ذريعة لعقابه ، فقد كانت كأترابها من النساء الساذجات طيبات القلب تعتقد أنها تتمتع بموهبة تمـكنها من

إجادة سياسة الاستدراج والإيقاع ، وكانت تحب أن تعتبر وسائلها الواضحة أكثر الوسائل إعجازاً ودهاء .

قالت : لقد كان الجو دافئا فى المدرسة يا « توم » .. أليس كذلك ؟

— نعم يا عمتى .

— أكان شديد الدفء ؟ .

— نعم يا عمتى .

— ألم تفكر فى الذهاب للسباحة يا « توم » ؟

وبهت « توم » ، وتولاه شعور من الشك غير المريح . فراح يتأمل وجه العمة « بولى » ، ولكنه لم يستطع أن يستشف منه ما يدور بخلدها . ومن ثم قال :

— كلا ياعمتى . . . لم أفكر كثيراً فى ذلك .

ومدت السيدة العجوز ذراعها وتحسست قميص « توم » ثم قالت :

— ولكنك لست شديد الدفء الآن رغم ذلك .

وسرها أن اكتشفت أن القميص كان جافاً بغير أن يعرف أحد أن ذلك هو ما كان يدور بخلدها ؛ إلا أن « توم » استطاع ، رغم ذلك أن يفطن إلى مهب الريح فى تلك اللحظة ، ومن ثم فقد تكهن بما ستكون عليه الخطوة التالية .

قال : لقد غسل بعضنا رأسه بالماء ، ومازال رأسى مبتلا حتى الآن . . . أنظرى !

واغتاظت العمة « بولى » حين أدركت أنها غفلت عن مثل هذه الأدلة الظاهرة ، وبذلك ذهبت خدعتها أدراج الرياح ، بيد أنه لم يلبث أن هبط عليها وحى جديد .

قالت: لم يكن هناك ما يدعوك وأنت تغسل رأسك أن تمزق ياقة القميص التى حكتها لك من قبل ؟ كان يكفى أن « تفك » أزرار سترتك !

وانحسرت علامات القلق عن وجه « توم » ، وفتح سترته ، فإذا بحياكة قميصه متماسكة تماماً .

هتفت : ياللعنة ! حسناً ، لقد نجوت هذه المرة . . كان يجب أن أستوثق من أنك لعبت الهوكى وسبحت . . . ولكنى سأصفح عنك يا « توم » ، فأكبر ظنى أنك كقط مست النار ذيله كما يقول المثل .

كانت تتنازعها عوامل الأسف لأن فطنتها خابت ، وعوامل الرضاء لأن « توم » تعثر لأول مرة وسلك سلوك الولد المطيع .

ولكن « سيدنى » ، قال : حسناً . كنت أظن ياعمتى أنك حكت ياقته بخيط أبيض لا أسود !

— نعم . . لقد حكته فعلا بالخيط الأبيض يا « سيدنى »

ولم يتريث « توم » حتى يبلغ الموقف ذروته ، فانطلق خارجا من الباب وهو يقول :

— سوف أنتقم منك « يا سيدنى »

وإذ أصبح « توم » فى مكان أمين ، راح يفحص الإبرتين الكبيرتين المثبتتين فى طرف ياقته ، وقد لف الخيط حولها — كانت إحداهما تحمل خيطاً أبيض ، والأخرى تحمل خيطاً أسود . قال :

إنها ما كانت لتفطن إلى الحقيقة لولا « سيدنى » . . لعنة الله عليه ! إنها تحيك قميصى أحياناً بالخيط الأبيض ، وأحياناً أخرى بالخيط الأسود ولكم أود لو أنها داومت على استعمال أحد الخيطين — إننى لا أستطيع أن أتتبعهما بدقة . . ولكنى أراهن على أننى سوف ألقن « سيدنى » درساً لا ينساه على ما فعل .

وما أن مضت دقيقتان ، وربما أقل ، حتى كان « توم » قد نسى كل متاعبه ، ولم يكن ذلك لأن متاعبه كانت أقل عبئاً ومرارة عليه من تلك التي يعانيها الرجال ، ولكن لأن شيئاً جديداً أقوى وأدعى للاهتمام استطاع أن يبدد هذه المتاعب ويجعلها تتلاشى من عقله فى هذه اللحظة — مثلما ينسى الرجل نكباته حينما يستبد به الانفعال فى غمرة تطلعه إلى شيء جديد . أما هذا الشيء الذى استأثر باهتمامه ، فكان لحناً جديداً من الصفير تعلمه حديثاً من غلام زنجى صغير . وكان « توم » يبذل قصارى جهده ليتدرب عليه بغير أن يزعجه أحد . وكانت فى هذا اللحن نغمة أشبه بتغريد الطير ، تستلزم ممن يريد إحداثها أن يجعل لسانه يلمس سقف حلقه فى فترات قصيرة أثناء الصفير — ولعل القارىء يتذكر كيف يمكنه إحداثها إذا كان قد مر بمرحلة كتلك التى كان « توم » يجتازها — وسرعان ما استطاع بالمثابرة و الاهتمام أن يسيطر على اللحن ويجيد النغمة ، ومن ثم فقد انطلق فى طريقه وفمه منتفخ باللحن المنسجم وروحه مفعمة بالشكر وعرفان الجميل . . لقد كان يستشعر تلك النشوة التى يحس بها فلكى اكتشف كوكباً جديداً — كان شعوراً قوياً عميقاً ، صافياً من السرور والبهجة . ولكن لا شك فى أن الغلام ، لا الفلكى ، هو الذى كان يستمتع بهذا الشعور فى تلك اللحظة !

كانت ليالى الصيف الطويلة . ولم يكن الظلام قد أسدل ستاره بعد ؛ ومن ثم فسرعان ما كف « توم » عن صفيره . وحينئذ رأى أمامه غلاماً غريباً يفوقه ضخامة فى البنية فاستبدت به الدهشة ، إذ كان أى وافد جديد فى أى سن ومن أى من الجنسين يعتبر حدثاً عجيباً فى قرية «سانت بترسبرج» الصغيرة القذرة . . وكان هذا الغلام حسن الهندام — نعم ، كان حسن الهندام فى يوم من أيام الأسبوع العادية ، الأمر الذى أذهل « توم » الغلام القروى الصغير . فقد كانت قبعة الوافد الجديد شيئاً أنيقاً ، أما سترته الزرقاء متقاربة الأزرار فكانت جديدة ، وكذلك كان سرواله (بنطلونه) .

وكان هذا الغلام يلبس حذاء — رغم أنه وفد يوم الجمعة وهو يوم من

أيام الأسبوع العادية . بل لقد كان يرتدى ربطة عنق أشبه ما تكون بشريط براق . وكانت سيماء المدنية بادية عليه ، مما جعل الغيرة تنهش قلب « توم » . وكلما أطال توم النظر إلى هذه الأعجوبة الفاخرة ، ازداد شعوراً بالازدراء للأسمال التى كان يرتديها . . ولم يتكلم أى من الغلامين ، ولكن كان كل منهما يتحرك كلما تحرك الآخر ، ولكن فى اتجاه جانبى . وظلا يواجهان أحدهما الآخر ، وقد تلاقت عيونهما طوال الوقت :

وأخيراً قال « توم » فى استطاعتى أن (أمسح بك الأرض) !

— لكم أود لو تحاول ذلك .

— حسناً . . فى استطاعتى أن أفعل ذلك

— كلا . . إنك لن تستطيعه

— نعم . . أستطيع

— لا تستطيع !

— أستطيع !

— لا تستطيع !

وتلت ذلك فترة صمت حرجة . ثم قال « توم » :

— ما اسمك ؟

— لعل ذلك ليس من شئونك .

— ولكننى سأجعله من شئونى

— حسناً . . لماذا لا تفعل ؟

— إذا أكثرت من الكلام فسأفعل

— ها أنذا أكثر من الكلام يا هذا . .

— أوه — إنك تظن أنك شديد الحــــذق . . أليس كذلك ؟ فى

استطاعتي أن أصرعك وإحدى يدى مربوطة خلف ظهرى إن شئت ذلك...

— حسناً . لماذا لا تفعل ذلك ؟ إنك تقول أنك تستطيع أن تفعله

— حسناً . . سأفعله إذا أثرت ثائرتى

— أوه نعم . . لقد رأيت أسرات برمتها فى مثل هذا المأزق الذى أنت واقع فيه !

— أتظن نفسك حاذقاً ماكرا . ؟ أوه . . يا لها من قبعة !

— تستطيع أن تهشم هذه القبعة إذا لم تعجبك . . إننى أتحداك أن تسقطها من فوق رأسى — بل إن أى شخص يجرؤ على ذلك سوف أجعله يلعق التراب .

— أنت كاذب !

— وأنت كاذب أيضاً

— أنت مقاتل دعى لا تجرؤ على المبادأة بالقتال

— آه انصرف !

— اصغ إلىّ . . إذا تماديت فى سخافاتك ، فسأنقض عليك وأحطم رأسك .

— أوه . . بالطبع ستفعل ذلك . !!

— حسناً . . نعم ، سأفعل .

— حسناً . . إذن لماذا لا تفعل ذلك ؟ ما الذى يدعوك إلى تكرار كلمة « سأفعل » ؟ لماذا لا تفعل ؟

— أليس ذلك دليلا على أنك خائف ؟

— لست خائفا

— بل إنك خائف

— كلا . . لست خائفا

— **لا شك أنك خائف**

وساد الصمت بين الغلامين ، واستمرا يتراشقان بالنظرات ويدوران أحدهما حول الآخر ، وسرعان ما وقفا كتفا إلى كتف

وقال « توم » : امض من هنا !

— بل امض أنت

— لن أغادر هـــذا المكان

— وأنا أيضاً انصرف

وهكذا وقفا وقـــد جعل كل منهما ساقيه على شكل زاوية فى وضع تحفزى . ثم راح كلاهما يدفع الآخر بكتفه فى عنف وعزم ، وهما يتبادلان نظرات الحقد والكراهية . ولكن أحداً منهما لم يستطع أن يزحزح صاحبه قيـــد أنملة من مكانه . واستمرا يناضلان حتى احتقن وجهاهما ولهثت أنفاسهما ، وأخيراً بدأ كل منهما يتراخى فى حذر . ثم قال « توم » :

— إنك نذل وكلب . سأحدث أخى الأكبر عنك ، فإن فى استطاعته أن يضربك بإصبعه ، وسأجعله يفعل ذلك .

— ماذا يخيفنى من أخيك الأكبر ؟ إن لى أخاً أكبر من أخيك — وما هو أكثر من ذلك ، إن فى استطاعته أن يقذف بأخيـــك من فوق السياج (قالا ذلك وهما يعلمان أن ما قالاه كذب فى كذب !) .

— هذا كذب .

— إن قولك هذا لن يجعل من الحقيقة كذبا .

ورسم « توم » خطاً على الأرض بأصبع قدمه ، وقال :

— إننى أتحداك أن تتجاوز هذا الخط ، فإن فعلت فسأضربك حتى لا تقوى على الوقوف .

وتخطى الوافد الجديد الخط فجأة وقال :

— سمعتك تقول إنك ستضربنى ، فلماذا لا تفعل !

— لا تستفزنى أكثر من ذلك . . فمن الخير لك أن تحذر غضبى .

— حسناً لقد قلت إنك ستضربنى — فلماذا لا تفعل ذلك ؟

يا للعنة ! سأفعل ذلك مقابل سنتين .

واخرج الوافد الجديد قطعتين من ذات السنت من جيبه ، وقدمهما لتوم بعزم ، فأطارهما هذا من يد الغلام بضربة سريعة ، وفى اللحظة التالية كان الغلامان يتدحرجان على الأرض فوق القاذورات وقد أنشب كل منهما أظفاره فى الآخر كالقط ، وراح كل منهما يمزق شعر الآخر وثيابه ويلطمه وبركله ، ويشد أنفه بعنف حتى لطخا نفسيهما بالتراب ومجد المعركة ! وسرعان ما ساد عراكهما الاضطراب ، وعندما انحسر ضباب المعركة : كان « توم » يجلس فوق الغلام الغريب كما يمتطى المرء الجواد ، وهو يلكمه بقبضتى يديه !

ثم هتف : أظن أن فى ذلك الكفاية !

وجاهد الغلام الغريب ليخلّص نفسه . . كان يبكى — ولكن بكاء الغاضب المحنق !

وأخيرا قال الغريب بلهجة مختنقة : كفى !

وتركه « توم » لينهض وقال .

— أظن أن فى هذا الدرس الكفاية . فيحسن بك أن تكون على حذر عندما تحاول أن تسخر منى مرة أخرى .

ومضى الغلام الغريب لشأنه وهو يزيل التراب من فوق ثيابه ، وكان لا يفتأ يتطلع خلفه بين الحين والحين ، ويهز رأسه ويتوعد « توم » بما سيكيله له من لكمات عندما « يلتقى به مرة أخرى » ، ولكن « توم » قابل تهديداته بالسخرية ، ثم لم يلبث أن استدار على عقبيه ومضى فى طريقه وهو يشعر بنشوة الانتصار . ولكنه ما كاد يدير ظهره إلى الغلام الغريب ،

حتى التقط هذا حجرا من على الأرض , قذف به « توم » فأصاب ما بين كتفيه ، ثم أطلق لساقيه الريح ، وراح يركض كالغزال . وطارد « توم » الغلام الهارب إلى أن بلغ منزله ، فعرف أين يقيم . ووقف عند الباب وأخذ يتحدى عدوه أن يخرج من مكمنه ، ولكن العدو اكتفى بالتطلع إليه من خلف زجاج النافذة ، ورفض أن يقبل التحدى . وأخيرا ظهرت أم الغلام وراحت تصف « توم » بأنه طفل شرير آثم سافل ، و أمرته بالانصراف . فاضطر إلى الإذعان وهو يتوعد عدوه بالقصاص .

وعاد « توم » إلى المنزل متأخرا فى تلك الليلة ، ولكنه ما كاد يتسلق النافذة بحذر حتى ألفى عمته « بول » قد أعدت له كمينا ، وما كادت ترى حالة ثيابه السيئة حتى ازدادت إصراراً على حرمانه من عطلته فى يوم السبت وتأديبه بإرغامه على أداء عمل شاق !

الباب الثانى

الطلاء البارع

أقبل صباح يوم السبت ، وكانت دنيا الصيف كلها متألقة نضرة ؛ تنبض بالحياة ... كانت فى كل قلب أغنية ، فإذا كان القلب صغيراً ، انسابت الموسيقى من خلال الشفتين . . وكان البشر بادياً على كل وجه ، والنشاط ممثلا فى كل خطوة . وكانت أشجار الخرنوب زاهية المنظر ، يعطر أريج زهورها المتفتحة الهواء . وفيما وراء القرية ، كان ينهض مرتفع « كارديف هيل » ، وقد غطته طبقة من السندس الأخضر الجميل الذى يسر مرآه الناظرين ويذكرهم بالراحة البدنية والهدوء النفسى .

وظهر « توم » فى ممر جانبى وهو يحمل دلواً مملوءاً بالطلاء الأبيض وفرشاة ذات يد طويـــلة . وراح يتأمل السياج ، ولم يلبث أن فارقه مرحـــه ، وارتسمت على وجهه علامات العبوس وطغت على روحه موجة من الحزن . فقد كان طول السياج ثلاثين ياردة وارتفاعه تسعاً . . وفى تلك اللحظة خيل إليه أن الحياة جوفاء ، وأن الاستمساك بها عبء ثقيل . .

وتنهد الغلام ، وغمس الفرشاة فى الطلاء ثم جرى بها فوق اللوح العلوى ، وأعاد العملية مثنى وثلاثاً ، وراح يقارن بين اللوح الذى طلاه وبين طلاء سياج آخر قريب . ولم يلبث أن جلس فوق جذع شجرة وقد غمره اليأس . .

وفى تلك اللحظة أقبل « جيم » خارجاً من باب الحديقة وهو يحمل دلواً من الصفيح ويردد أغنية كانت ذائعة وقتذاك . ومـــع أن « توم » كان يعتبر حمل الماء من مضخة المدينة عملا ممقوتاً ، إلا أنه لم يشعر بأنه كذلك فى تلك اللحظة . وتذكر أن منطقة المضخة ملتقى جمع من البيض والزنوج والملونين .

بنين و بنات ، كل منهم ينتظر دوره ليملأ وعاءه . وهم عادة ينتهزون هذه الفرصة ليستريحوا أو يتاجروا فى اللعب أو يتشاجروا أو يتعاركوا ، أو ليسبحوا فى الخيال . وتذكر أنه رغم أن المضخة لا تبعد عن المنزل بأكثر من مائة وخمسين ياردة فان « جيم » قلما عاد بدلو من الماء قبل انقضاء ساعة — وحتى فى هذه الأحوال كان لابد من أن يذهب أحد للبحث عنه وإحضاره .

قال « توم » : اصغ إلىّ يا « جيم » . . سأذهب لإحضار الماء إذا قمت أنت ببعض الطلاء .

وهز « جيم » رأسه سلباً وقال : لاأستطيع أيها السيد « توم » ، فقد عهدت إلىّ سيدتى العجوز أن أذهب وأحضر الماء وحذرتنى من التسكع أو التحدث مع أحد ، كما قالت لى أنها تتوقع أن يحاول السيد « توم » استدراجى للاشتراك معه فى الطلاء ، وأن علىّ أن أؤدى عملى فقط ، وأردفت قائلة انها ستأتى لتراقب عملية الطلاء بنفسها !

— أوه . . دعنا مما قالته يا « جيم » ، فتلك طريقتها فى الكلام . . أعطنى الدلو — فلن أغيب عنك أكثر من دقيقة . . وهى لن تعرف شيئا عما حدث .

— كلا . . لا أستطيع أيها السيد « توم » فقد هددتنى سيدتى بالعذاب إن عصيت أمرها ، ولاشك فى أنها منفذة وعيدها إن خالفت هذا الأمر .

لاتخف يا « جيم » فإنها لم تعذب أحدا من قبل . إنها لا تفعل أكثر من أن تنقر على الرأس عدة مرات بقمع الخياطة ! وأظن أن ذلك لايؤذى أحداً . . صحيح إنها تكثر من التهديد والوعيد ولكن الكلام لايؤذى . . هيا يا «جيم» . سأعطيك شيئا مدهشاً . . سأعطيك هذه الكرة الجميلة من الرخام الأبيض :

وبدت علامات التردد على وجه « جيم » . فأسرع « توم » يقول :

— رخام أبيض يا « جيم » ! يا لها من كرة جميلة !

— إنها بلا شك كرة مدهشة ! ولكنني خائف أشد الخوف من سيدتي أيها السيد « توم » . . .

— وإذا قبلت فسأريك أصبع قدمي المتقرح

كان « جيم » زنجياً طيب القلب — وكان هذا القول أكثر مما يحتمله . ومن ثم فقد وضع دلوه على الأرض واقترب من « توم » . وراح يتأمله وهو يفك الرباط من حول أصبعه المتقرح . وفي اللحظة التالية كان الغلام الأسود يركض بأسرع ما يستطيع والدلو يتأرجح في يده ، بينما راح « توم » يطلي السياج بقوة ونشاط ، فقد كانت العمة « بولي » مقبلة من الحقل وهي تحمل خفاً في يدها بينما لمعت عيناها ببريق النصر . .

ولكن نشاط « توم » لم يستمر طويلا .. لقد بدأ يفكر في اللهو الذي أعده لهذا اليوم فتضاعف حزنه .. إذ عما قريب ، سوف يأتي الصبية السعداء في طريقهم إلى مختلف أنواع المغامرات اللذيذة ، ولسوف يسخرون منه لأنه مضطر إلى العمل — وأحس بقسوة هذه الفكرة وكأنها النار الحامية . وأخرج من جيبه كل ما يملك من ثروة وراح يتأملها — قطع من اللعب ، وكرات صغيرة من الرخام ... وأدرك أنها قد تكفي ليدفعها ثمناً لتبادل العمل مع أي صبي آخر ، ولكنها لا تكفي لشراء نصف ساعة من الحرية الخالصة . ومن ثم أعاد ثروته إلى جيبه ، وتخلى عن فكرة محاولة استئجار الغلمان . وفي تلك اللحظة القاتمة هبط عليه الوحي ! وحي عظيم رائع ...

التقط فرشاته ، وانصرف إلى العمل بهدوء . . . إذ سرعان ما أقبل « بن رودجرز » — وكان هو الغلام المنشود من بين جميع الغلمان رغم أن « توم » كان يضيق أشد الضيق بأسلوبه الساخر . . وكانت مشيته

« بن روجرز » الشبيهة بالوثب أكبر دليل على ما كان يشعر به من سعادة..

وكان « بن » يقضم تفاحة ، وهو لا يفتأ يشهق شهقة عميقة طويلة بين الحين والحين ، ثم لا يلبث أن يتبع الشهقة بصوت متلاحق متناسق على النحو التالى « دنج — دونج — دونج ، دنج — دونج — دونج » ذلك أنه كان يقلد القارب البخارى . وعندما اقترب من « توم » ، أبطأ من سيره ، ووقف فى منتصف الطريق ، ثم مال فوق حافة الجانب الأيمن من القارب الوهمى واستدار ببطء وصعوبة ، ولا عجب فقد كان يقلد القارب « ميسورى الكبير » . وكان يعتبر القارب يقترب فى تلك اللحظة من منطقة عمق مائها تسعة أقدام . وكان الغلام يلعب دور الربان، وأجراس القارب معاً ، ومن ثم كان عليه أن يتخيل نفسه واقفاً فوق سطح القارب يصدر الأوامر وينفذها فى وقت واحد .

— أوقف المحرك يا سيدى ! تنج — لنج — لنج !

وأوشك القارب أن ينتهى من سيره . وأخذ الغلام يقترب ببطء من الممر الجانبى المحاذى للسياج ، ثم مضى بعد ذلك يصدر التعليمات اللازمة للإرساء النهائى ، وهو لا يفتأ بين الحين والحين يردد أصواتاً يظنها تشبه الأصوات التى تنبعث من محرك القارب ، إلى أن ثبت القارب فى مرساه .

واستمر « توم » فى الطلاء غير عابىء بالقارب البخارى . . . فحدق « بن » فيه لحظة . ثم قال :

— أوه ! إنك غارق فى العمل المضنى . . أليس كذلك ؟

ولم يجب « توم » . وإنما راح يتأمل لمسة الفرشاة الأخيرة بعين الفنان . ثم جرى بفرشاته مرة أخرى على اللوح . وتأمل النتيجة كما فعل من قبل.. فتقدم « بن » حتى وقف بجواره . . وسال لعاب « توم » حينما رأى التفاحة فى يد « بن » ، ولكنه استمر فى عمله . فقال « بن » :

— هل أنت مرغم على العمل يا صديقى ؟

وانثنى « توم » إليه فجأة . . وقال :

— أهذا أنت يا « بن » ! إننى لم أرك !

أصغ إلىّ . . إننى ذاهب للسباحة . . أفلا تود لو أنك استطعت أن تسبح ؟ ولكن لا ! يخيل إلىّ أنك تفضل العمل . . أليس كذلك ؟ بالطبع أنت تفضله !

وتأمل « توم » الغلام قليلا . ثم قال :

— ما الذى تقصده بكلمة « العمل » ؟

— أليس هذا الذى تفعله عملا ؟

واستأنف « توم » الطلاء . ثم أجاب بغير مبالاة .

— حسنا . . ربما كان كذلك ، وربما لم يكنه . . كل ما أعلمه أنه يلائم « توم سوير » !

— أوه . . . لا أحسبك تريد أن تدخل فى روعى أنك تحب هذا العمل !

واستمرت الفرشاة فى الحركة . .

— أحبه ؟ حسناً . . لست أدرى لماذا يجب ألا أحبه . . هل تتاح لغلام مثلى فرصة طلاء سياج كل يوم ؟

ولقد خلعت هذه العبارة على الموقف طابعاً جديداً . . فكف « بن » عن قضم تفاحته ، بينما راح « توم » يحرك فرشاته جيئة وذهابا فى حركات أنيقة . . ثم تراجع إلى الوراء ليتأمل التأثير — وأضاف لمسة هنا وأخرى هناك — وعاد فتأمل النتيجة . . وكان « بن » يراقب كل حركة من حركات « توم » فيزداد اهتماما ، ثم لم يلبث أن قال :

— اصغ إلىّ يا « توم » . . . دعنى أشترك معك فى الطلاء .

وفكر « توم » . وكان على وشك الموافقة ولكنه عدل عن رأيه فجأة .

وقال : كلا . . كلا . . لا أظن أن ذلك ممكن يا « بن » . . . إن عمتى « بولى » مهتمة أشد الاهتمام بهـذا السياج — لأنه يشرف على الطريق الرئيسى كما ترى — ولو كان هذا هو السياج الخلفى لما رفضت طلبك ولما اهتمت هى بمن يطليه . . نعم ، إنها شديدة الاهتمام بهـذا السياج . . . ولهذا يجب أن يطلى بمنتهى العناية . وأكبر ظنى أنه لا يوجد غلام من بين كل ألف غلام ، وربما من بين كل ألفين يستطيع أن يطليه بالطريقة التى ينبغى أن يطلى بها .

— أحقا ؟ أوه . . إصغ إلىّ . . دعنى أحاول . . دعنى أحاول قليلا . . لو كنت مكانك لجعلتك تحاول يا « توم » !

— لكم أود لو استطعت يا « بن » . . ولكنها العمة « بولى » — لقد أراد « جيم » أن يطلى السياج ، فرفضت أن تسمح له بذلك . كذلك أراد « سيدنى » ، ولكنها رفضت أيضاً . . أفلا ترى حرج مركزى لو أنك طليت هذا السياج وحدث له شىء . . .

— أوه . . كلا . . لن يحدث شىء ، فسألزم جانب الحذر الشديد . . دعنى أحاول ، وإنى مستعد لاعطائك قلب تفاحتى مقابل ذلك !

— كلا يا « بن » إننى خائف . . .

— إذن فسأعطيك التفاحة كلها !

وترك « توم » الفرشاة للغلام وهو يتظاهر بالإحجام ، وإن كان قلبه قد أفعم بالسرور . . وبينما كان الغلام الذى فرغ من تمثيل دور « القارب ميسورى » يعمل تحت أشعة الشمس المحرقة وقد انسال العرق فوق جبهته ، جلس الفنان المعتزل فوق برميل فى ظل قريب وراح يؤرجح ساقيه ويقضم التفاحة ، وهو يرسم الخطط التى تمكنه من اصطياد أبرياء آخرين . ولم تكن هناك حاجة لاستعمال المغريات ، إذ سرعان ما بدأ الغلمان يقبلون ، وكانوا يسخرون أول الأمر ، فلا تمضى لحظات إلا وينهمكون فى الطلاء .

وعندما تعب « بن » كان « توم » قد انتهى من مساومة « بيلى فيشر » فأخذ منه طائرة من الورق فى حالة جيدة مقابل السماح له بالطلاء . وعندما فرغ « بيلى » من الطلاء قدم « جونى ميلر » فأرا ميتاً برجله خيط رفيع للعب به ثمناً للسماح له بالاشتراك فى عملية الطلاء . . وهلم جرا ، ساعة بعد أخرى. وعندما انتصف العصر ، انقلب « توم » من غلام فقير لا يملك شيئاً فى الصباح إلى غلام ينعم بالثراء . . فقد حصل علاوة على ما سبق ذكره ، على اثنتى عشرة كرة صغيرة من الرخام وآلة تحدث صوتاً موسيقياً ، وقطعة من زجاجة زرقاء للتطلع من خلالها ، ومفتاح غير صالح للاستعمال وقطعة من الطباشير ، وسدادة زجاجة ، وجندى من القصدير ، وضفدعتين وست كبسولات ، وقطة صغيرة بعين واحدة فقط ، ومقبض باب من النحاس ، وطوق كلب — رغم أنه لم يكن يملك كلباً — ويد سكين ، وأربع قطع من قشر البرتقال ، ومزلاج نافذة محطم !

قضى « توم » يومه هذا فى الراحة والمتعة والكسل ، فضلا عن زمالة الكثيرين — وعلاوة على ذلك فقد طلى السياج ثلاث مرات ! ولولا نفاد الطلاء لأشهر إفلاس كل غلام فى القرية .

وقال « توم » لنفسه أن الدنيا ليست جوفاء كما تصور فى أول النهار . . لقد اكتشف قانوناً عظيما من قوانين النشاط الإنسانى بغير أن يدرك ذلك — وهذا القانون هو أنك إذا أردت أن تجعل رجلا أو غلاماً يشتهى شيئاً فيكفى أن تجعل هذا الشىء صعب المنال . ولو كان « توم » فيلسوفاً عظيما حكيما ، كمؤلف هذا الكتاب ، لأدرك أن العمل يتكون من أى شىء يضطر الجسم إلى أدائه ، وأن اللعب يتكون من أى شىء لا يريد الجسم أن يعمله ، وإذن لساعدته على هذه المعرفة على أن يفهم لماذا كانت صناعة الزهور الصناعية أو إدارة الطاحون عملا ، على حين أن تسلق جبل « مونت بلان » تسلية فقط . . ففى انجلترا أثرياء يروق لهم قيادة المركبات التى تجرها

الجياد لمسافة عشرين أو ثلاثين ميلا كل يوم من أيام الصيف معتبرين ذلك امتيازاً وإن كلفهم مالا كثيراً .

ولكنهم إذا عرض عليهم أجر فى مقابل ذلك ، اعتبروا هذه التسلية عملا واستقالوا من هذا العمل !

وفكر الغلام قليلا فى التغير الهام الذى طرأ على ظروفه الدنيوية . ثم مضى إلى « القيادة العامة » ليقدم تقريره إلى العمة بولى !

الباب الثالث

مشغول بالحب والحرب !

قدم « توم » نفسه للعمة « بولى » التى كانت تجلس بجوار نافذة مفتوحة بغرفة لطيفة فى مؤخرة المنزل ، وكانت هذه الغرفة بمثابة غرفة النوم ، وغرفة الانتظار ، وغرفة المائدة ، وغرفة المكتبة ، جميعاً . ولقد أحدث هواء الصيف العليل ، والهدوء المريح ، وأريج الزهور ، وطنين النحل الذى يجلب النعاس . . أحدث كل هذا أثره فى العمة « بولى » إذ راحت تنكس رأسها وهى تتظاهر بالحياكة . . فلم يكن معها أحد غير الهرة التى كانت مستسلمة للنعاس فى حجرها . أما عويناتها فكانت مرفوعة فوق رأسها الأشيب بطريقة توحى بالاطمئنان . كان قد دار بخلدها أن « توم » لا بد قد هجر العمل منذ أمد طويل ، فما كادت تراه حتى أخذت تعجب لماذا وضع نفسه تحت رحمتها مرة أخرى بهذه الطريقة التى تنطوى على بسالة .

قال : هل أستطيع أن أذهب لألعب الآن يا عمتى ؟

— ماذا تقول ؟ أهكذا سريعاً . . ؟ ما مدى العمل الذى أتممته ؟

— لقد فرغت من طلاء السياج كله يا عمتى

— « توم » . . لا تكذب علىّ . . إننى لا أستطيع احتمال الكذب .

— ولكنى لا أكذب ياعمتى . . لقد فرغت من طلاء السياج .

ولم تصدق العمة « بولى » ذلك . ونهضت لتستوثق من الأمر بنفسها . . ولقد كانت على استعداد لأن تشعر بالارتياح والرضا لو أن عشرين فى المائة فقط من كلام توم كان صحيحا . ولكنها وجدت السياج كله مطلياً ، ولم يكن

قد طلى مرة واحدة ، وإنما طلى مرات ومرات من أعلاه حتى ملتقاه بالأرض . فتملكتها دهشة شديدة كادت تعقد لسانها .

قالت : أكاد لا أصدق عيني . . . ! مهما يكن من أمر ، فلابد من التسليم بالواقع .. إنك تستطيع أن تعمل حينما تحزم أمرك على العمل يا « توم » .

وبادرت تخفف أطراءها ، فأردفت : ولكنك قلما تحزم أمرك . . حسناً ، يمكنك أن تذهب لتلعب ، ولكن حذار من التأخير ، وإلا سلخت جلدك !

كان اتقان طلاء السور قد أفعم قلبها بالسرور ، فلم تتمالك أن قادت الغلام إلى (المطبخ) وانتقت له تفاحة ممتازة ، وبينما كانت تقدمها له راحت تلقى عليه محاضرة تستهدف إصلاح أخلاقه ، عن مدى ما يشعر به الإنسان من متعة ولذة وهو يأكل مثل هذه التفاحة بعد أن يحصل عليها بغير خطيئة ، وعن طريق العمل الشريف . وبينما كانت العمة « بولى » تنهى محاضرتها انتهز « توم » الفرصة و « سرق » إحدى الفطائر اللذيذة !!

وعندما كان « توم » يهم بمغادرة المنزل ، رأى « سيدنى » يشرع فى ارتقاء الدرج الخارجى المؤدى إلى الغرفة الخلفية بالطابق الثانى .. فالتقط بعض قطع الوحل الجاف القريبة منه وقذف بها « سيدنى » . وقبل أن تتمكن العمة « بولى » من التغلب على دهشتها والمبادرة إلى إنقاذ « سيدنى » كانت ست أو سبع قطع من الوحل قد أصابته . وفى اللحظة التالية تسلق « توم » السياج وغاب عن الأنظار . لقد كانت هناك « بوابة » ولكن القاعدة العامة عند « توم » كانت تقتضى ألا يستعملها عندما يضيق الوقت عن استعمالها . وأحس « توم » بالراحة والطمأنينة بعد أن فرغ من تصفية حسابه مع « سيدنى » الذى وجه نظر العمة « بولى » إلى الخيط الأسود الذى حاك به القميص المقطوع ، فأثار له بذلك المتاعب !

اكتشفت أمره ، فتظاهر بأنه لم يكن يفطن إلى وجودها . وأخذ يأتى بحركات مسرحية بشكل صبيانى يثير الضحك لعله يفوز بإعجابها . ومضى فى حماقته هذه فترة من الوقت ، وبينما كان يقوم بإحدى حركاته الرياضية الخطرة ، تطلع من ركن عينه إلى الفتاة ، فرآها وقد استدارت على عقبيها ومضت إلى المنزل . . فتقدم « توم » من السياج . واستند إليه ، وقد استبد به الحزن ، وهو يأمل أن تتلكأ الفتاة لحظة . أما هى فتوقفت قليلا عند الدرج ، ولكنها لم تلبث أن سارت نحو الباب . . وتنهد « توم » تنهدة عميقة عند ما رآها تطأ مدخل الباب بقدمها ، ولكن وجهه لم يلبث أن تهلل حينما رآها تلقى إليه بزهرة من فوق السياج قبل أن تختفى داخل المنزل .

وركض الغلام ولكنه لم يلبث أن توقف على مسيرة قدم أو اثنين من مكان الزهرة ، ثم ظلل عينيه بيده ، وراح يتطلع على طول الطريق كأنما اكتشف شيئاً هاما يحدث فى هذا الاتجاه . وسرعان ما التقط عوداً من القش وبدأ يحاول أن يوازنه فوق أنفه ، ورأسه مائل إلى الخلف . وبينما كان يتحرك فى هذا الجانب وذاك لحفظ توازن عود القش ، أخذ يقترب من الزهرة إلى أن استقر قدمه العارى فوقها ، أصابعه حولها ثم تهادى فى مشيته مبتعداً ، ولم يلبث أن اختفى بهذا الكنز خلف المنزل . . ولكن هذا الاختفاء كان موقوتاً — فقد بادر إلى وضع الزهرة بداخل سترته لصق قلبه — وربما كا الأصح لصق معدته لأنه لم يكن ملماً بعلم وظائف الأعضاء إلماماً كافياً .

وعاد إلى مكانه السابق بالقرب من السياج ، وظل واقفا هناك حتى أقبل الليل وهو يؤدى حركاته البهلوانية ، ولكن الفتاة لم تظهر ثانية رغم أن « توم » كان يمنى النفس بأن تكون قريبة من إحدى النوافذ حتى ترى مدى اهتمامه بها .. وأخيرا اضطر إلى العودة للمنزل ورأسه مشحونة بالأطياف .

كانت روحه المعنوية عالية أثناء تناول طعام العشاء ، حتى لقد تساءلت عمته « ماذا دهاه » . ومع أنها وبخته أشد التوبيخ لما فرط منه فى حق « سيدنى » الا أنه لم يحفل بذلك على الإطلاق ، وحاول أن يسرق قطعة من السكر تحت بصر عمته وسمعها . مما اضطرها إلى أن تضربه فوق ركبتيه .

قال : إنك لا تضربين « سيدنى حينما يأخذ سكراً ياعمتى .

— حسناً ، إن « سيدنى » لا يضايق أحداً مثلك . ثم أنك لا يمكن أن تكف عن سرقة السكر لولا يقظتى وشدة مراقبتى لك .

وبعد قليل ذهبت العمة « بولى » إلى المطبخ لشأن من الشئون ، فانتهز « سيدنى » فرصة الحصانة التى يتمتع بها ، ومد يده فالتقط وعاء السكر ... ولكن الوعاء انزلق من بين أصابعه وسقط . فطفح قلب « توم » بالسرور بل لقد غلبه السرور على أمره ولكنه استطاع أن يسيطر على لسانه ويلزم الصمت ... قال لنفسه أنه لن ينطق بكلمة واحدة حتى عندما تعود عمته وإنما سيجلس صامتاً إلى أن تسأل عمن أتى هذا الإثم وعندئذ يفضى إليها بالحقيقة ليرى كيف ستصب جام غضبها على هذا الجرو المدلل . . وعادت العمة « بولى » أخيراً وما كادت تكتشف الكارثة ، حتى جمدت فى مكانها وراحت تتأمل حطام وعاء السكر ، وقد تطاير فى عينها شرر الغضب . . فقال « توم » لنفسه (إن العاصفة على وشك الهبوب) وفى اللحظة التالية كان منبطحاً على وجهه فوق الأرض . . ورفعت العمة بولى يدها لتهوى بها فوق رأسه مرة أخرى ولكنه صاح قائلا :

وجمدت يد العمة « بولى » فى الهواء ، وقد تملكتها الحيرة وعقدت الدهشة لسانها .

وأخيراً قالت بصوت خافت : أوه ! حسناً ... أظن أنك تستحق اللطمة التى أصابتك ، إذ لا ريب فى أنك ارتكبت وزراً آخر إبان غيابى .

وبدأ ضميرها يؤنبها، واكتسحتها رغبة طاغية فى أن تقول له شيئاً لطيفاً، ولكنها مالبثت أن أحجمت خشية أن يؤدى ذلك إلى الاعتقاد بأنها اعترفت بوقوعها فى الخطأ، وهو أمر لا يتفق والنظام!. ومن ثم فقد لاذت بالصمت، وانصرفت إلى شئونها بقلب مثقل. أما «توم»، فقد قبع فى ركن الغرفة وقد استخفه الطرب رغم ضيقه.. كان يعلم أن عمته تتألم أشد الألم من أجله، ولقد جعله ذلك يشعر بفيض من السعادة، فهو لم يكن يأبه بكلماتها الخشنة ولا بإشاراتها التى تدل على الغضب المفتعل كلما تطلع إلى عينيها ورأى فيها تلك النظرة الضارعة التى تدل على تأنيب الضمير، وتلك الغشاوة الخفيفة من الدموع التى كانت تظهر بين الحين والحين فتبادر العمة «بولى» إلى تجفيفها.

وراح يتخيل نفسه راقداً فى الفراش وقد صرعه المرض حتى كاد يرديه، وعمته «بولى» منحنية فوقه وهى تتضرع إليه أن ينطق بكلمة صفح واحدة، ولكنه يدير وجهه إلى الجدار ويموت بغير أن ينطق بهذه الكلمة!..

آه ترى ماذا يكون شعورها وقتئذ؟. وتخيل نفسه وقد حملوه جثة هامدة الى المنزل بعد أن غرق فى النهر، وخصلات شعره مبتلة، وقلبه بارد كالثلج... وتصور عمته وهى تلقى بنفسها فوق جثته، وكيف أن الدمع سينهمر مدراراً من عينيها، وكيف أن شفتيها ستبتهلان الى الله أن يعيده إليها، وكيف أنها سوف تعاهده على ألا تسىء إليه إطلاقاً! ولكنه سيظل ممدداً فوق الفراش جثة هامدة مصفرة دون أن يأتى حراكا — إنه المعذب التعس الذى انتهت آلامه ومتاعبه!!. وهكذا مضى الغلام يتلاعب بعواطفه بمثل هذه التخيلات والأوهام حتى يحتفظ بذلك الشعور اللذيذ من الشماتة... ولكنه سرعان ما غلب على أمره، إذ لم تلبث هذه الخيالات المؤلمة أن أثارت أشجانه وجعلت الدمع ينسال من عينيه ويتساقط من طرف أنفه..

وظل هذا حاله إلى أن أقبلت ابنة عمته «مارى» من الخارج وهى ترقص فى سيرها، وقد امتلأت فرحاً وسروراً لعودتها إلى المنزل بعد أن قضت سبعة أيام فى زيارة بالمدينة. عند ذلك نهض «توم» من مكانه، وغادر الغرفة لينفرد

بآلامه وأشجانه بعد أن ضاق بما جلبته « مارى » معها من جو كله بهجة ونغم ونور !

وراح يتسكع بعيداً عن الأماكن التى اعتاد الغلمان ارتيادها ، باحثاً عن مواقع موحشة منعزلة تتلاءم مع انقباض صـــدره .. ورأى كتلة خشبية طويلة فى النهر ، فجلس فوق حافتها الخارجية وراح يفكر فى اتساع النهر المخيف وتمنى لو استطاع أن يغرق بشرط ألا يشعر بذلك ، وألا يتعرض لذلك العذاب الأليم الذى فرضته الطبيعة على كل من يلجأ إلى هذه الوسيلة لقطع ما بينه وبين الحياة من صلة .. ولكنه تذكر الزهرة فى تلك اللحظة ، فأخرجها من جيبه .. كانت قد تهشمت وذبلت فزاد ذلك من سخطه وحنقه وراح يتساءل : أتراها : أى صاحبة هذه الزهرة — سوف ترثى لحاله اذا عرفت حقيقة أمره ؟ أتراها ستبكى . ترجو لو أنها تمتعت بحرية تتيح لها ان تحيط عنقه بذراعيها لتهبه شيئاً من الراحة ؟ أم تراها ستنكص على عقبيها مبادرة بالابتعاد عنه فى برود شأن العالم الأجوف كله ؟ ولقد جعلته هـذه الصورة يستشعر ألماً ، ولكنه كان ألماً لذيذاً ، فراح يقلبها فى عقله المرة تلو المرة وهو يعرّضها لمختلف الأضواء ويستعرض ما فيها من محاسن وسيئات. وأخيراً نهض من مكانه وهو يتنهد ، وسرعان ما ابتلعه الظلام .

وحوالى الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة وصل إلى الشـارع الذى تقيم فى أحد منازله المعبودة المجهولة ، فتوقف لحظة أمام منزلها ، وأصاخ السمع ولكن الهدوء كان شاملا ، بينما كان ضوء باهت ينبعث من شمعدان وينعكس على ستار مسدل فوق نافذة بالطابق الثانى . . . وراح يتساءل : أتراها فى هذه الغرفة ؟ وتسلق السياج ، وأخذ يتحسس طريقه متسللا بين أشجار الحديقة إلى أن وقف أسـفل تلك النافذة وقد ضم يديه المستكنين بالزهرة الذابلة المهشمة إلى صدره . . . هـكذا سيموت — فى ذلك الفضاء البارد دون أن يظال رأسه شىء ، وبغير أن تمسح يد حانية برودة الموت من فوق جبهته ، أو ينحنى فوقه وجه جميل ليرثى لحاله عندما يدهمه الموت . .

وهكذا سوف تراه عندما تتطلع من نافذتها لتستقبل الصباح الجميل .. و ..
أواه ! أتراها ستذرف دمعة واحدة على جسده الجامد الذى انحسرت عنه
الحياة ؟ أتراها ستزفر زفرة واحدة حينما ترى هـــذه الحياة القصيرة وقد
اختزلت قبل الأوان .

وفتحت النافذة فى تلك اللحظة ، ومزق السكون صوت إحدى الخادمات
ثم لم تلبث بقايا الشهيد القابع تحت النافذة أن غرقت فى طوفان الماء الذى
انسكب من النافذة .

ووثب البطل المعذب واقفاً وهو ينتفض من البلل والغضب معاً ، وراح
يسب ويلعن ، وفى اللحظة التالية أغلقت النافذة ، وعندئذ انطلق شبح
صغير كالسهم ، فعبر الحديقة ثم تسلق السياج وغاب فى الظلام ...

وقبل أن يأوى « توم » إلى فراشه فى تلك الليلة أخذ يتأمل ثيابه المبللة
على ذلك الضوء الضعيف الذى كان ينبعث من المصباح . واستيقظ
« سيدنى » وقتئذ ، ورغم أنه رأى حالة ثياب « توم » التعسة إلا أنه لاذ
بالصمت طلبا للسلامة ، فقد رأى الغدر فى نظرات « توم » !

وصعد « توم » إلى الفراش دون أن يصلى كالعادة . . ولم يخف ذلك
على سيدنى أيضاً !!

الفصل الرابع

مسرحية فى « مدرسة الأحد »

أشرقت الشمس على الدنيا الهادئة ، وتألقت أشعتها فوق القرية الوادعة تباركها .. وانتهى الجميع فى تلك اللحظة من تناول طعام الإفطار ، وبدأت العمة « بولى » صلاة الصباح مع أسرتها .. وقد استهلتها بذكر بعض آيات من الإنجيل ، وختمتها بضراعة إلى الله عز وجل أن يبارك الأسرة ويحفظها .

وعندما انتهت الصلاة ، بدأ « توم » يستذكر درسه الدينى . أما « سيدنى » فكان قد استوعبه قبل ذلك بأيام . وبذل « توم » قصارى جهده محاولا أن يستوعب خمس آيات ، وكان قد اختار قطعة من « موعظة الجبل » التى ألقاها المسيح على تلاميذه ، لأنه لم يجد آيات أقصر منها . وبعد نصف ساعة ، استطاع « توم » أن يحصل على فكرة عامة مبهمة عن درسه ولا شىء أكثر من ذلك ، لأن عقله كان يسبح فى حقل التفكير الإنسانى كله ، كما كانت يداه مشغولتين بالعبث ببعض اللعب . . وأخذت « مارى » الكتاب منه ، وطلبت أن يسمعها ما حفظ ، فحاول أن يجد طريقه وسط الضباب . . قال :

— طوبى لله . . .

قالت « مارى » :

— للمساكين . . .

— نعم . . المساكين . . طوبى المساكين . .

— بالروح . .

— بالروح . طوبى للمساكين بالروح لأن . .

لأن لهم . .

— لأن لهم .. طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات..

طوبى للحزانى لأنهم . . لأنهم . .

— يتـ . . .

— لأنهم . . .

— يتـ . . .

— لأنهم يتـ . . . أوه . . . لست أدرى ماذا بعد ذلك

— يتـ . . !

— أوه ! يتـ . . ! لأنهم يتـ . . . لأنهم يتـ . . . يحزنون . . طوبى لهم لأنهم . . . لأنهم ماذا ؟

لماذا لا تخبرينني يا « مارى » ؟ لماذا تتعمدين تعذيبى ؟

— أوه يا « توم » .. يا لك من تعس غليظ العقل . . إننى لا أعذبك، لأن قلبى لا يطاوعنى على ذلك . يجب أن تذهب وتعيد استذكار دروسك . . . واحذر أن تستسلم لليأس يا « توم » . . . ثق أنك ستستطيع حفظ الدرس . . . فإن فعلت فسأعطيك شيئا لطيفا للغاية . . . هيا يا غلام وكن لطيفا . . .

— حسنا . . . لكن ماذا ستعطينى يا « مارى » ؟

— لا تفكر فى ذلك الآن يا « توم » . . . إنك تعلم إننى حين أقول أن ما سوف أعطيه لك شىء لطيف فلا بد أن يكون لطيفا فعلا .

— إنى واثق من ذلك يا « مارى » . . . حسناً . . . سأحاول حفظ الدرس مرة أخرى .

وحاول فعلا أن يستذكره — ولقد جعله حب الاستطلاع وتلهفه على الجائزة المرتقبة يستغرق تماماً فى الدرس ، حتى استطاع أن يستذكره كأجود ما يكون الاستذكار . وعندئذ أعطته « مارى » مدية جديدة لطيفة ثمنها اثنى عشر سنتا ونصف سنت . ولقد جعله هذا النصر يهتز طربا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . صحيح أن المدية لم تكن تصلح لقطع أى شىء ولكنها كانت ثمينة ، وفاخرة للغاية . . . وحاول « توم » أن يخدش الصوان (الدولاب) بها ، وكان يتهيأ للعبث بأحد الأدراج عندما استدعى لارتداء ثيابه توطئة للذهاب إلى مدرسة الأحد !

وقدمت له « مارى » وعاء مملوءا بالماء وقطعة من الصابون . فحملها إلى خارج الباب ووضع الحوض فوق مقعد خشبى هناك ، ثم وضع قطعة الصابون فى الماء ، وشمر عن ساعديه . وبعدئذ سكب الماء على الأرض بلطف . ثم عاد إلى المطبخ ، وبدأ يجفف وجهه بقوة فى المنشفة المعلقة خلف الباب ولكن « مارى » انتزعت المنشفة منه قائلة :

— يا للعار ! ألا تخجل من نفسك يا « توم » ؟ يجب ألا تكون شريرا هكذا ، فإن الماء لن يؤذيك .

وارتبك « توم » قليلا . . . وأعيد ملء الحوض ، وفى هـــذه المرة وقف « توم » يتأمله بعض الوقت وهو يحـــاول أن يستجمع أطراف شجاعته . ثم ملأ رئتيه بالهواء . . . وبدأ . . وعندما عـاد إلى المطبخ كان مغمض العينين — وراح يتحسس موضع المنشفة ، بينما كانت قطرات الماء وفقاقيع الصابون تتساقط من وجهه . . وعندما انتهى من استعمال المنشفة لم يكن وجهه نظيفا تماما ، ذلك لأن الجزء النظيف من وجهه كان يعلو ذقنه وفكيه ، فبدأ أشبه بالقناع . . وعندما فرغت « مارى » من العناية بأمره ، كان قد أصبح مخلوقا آخر ، فقد صففت شعره بشكل جميل وشذبت خصلاته القصيرة بشكل أكسبه منظراً عاما لطيفا (وكان « توم » يحبث

بتجاعيد شعره سراً ليتخلص منها لأنه كان يعتبرها مظهراً من مظاهر الأنوثة ، ومن ثم كانت التجاعيد التى تحدثها مارى فى شعره تملأ حياته مرارة وأسى) . وعندئذ أخرجت « مارى » ملابس « توم » التى ظل يرتديها أيام الآحاد فقط خلال العامين الأخيرين — والتى كان يطلق عليها ببساطة « الثياب الخاصة » — ومن ذلك نستطيع أن ندرك ما هى مجموعة الثياب التى كان الغلام يملكها . وبعد أن ارتدى « توم » ثيابه أصلحت « مارى » من شأنه ، وأغلقت سترته إلى أسفل ذقنه ، وقلبت ياقة قميصه فوق ياقة سترته ، ثم وضعت قبعته المصنوعة من القش فوق رأسه . ومع أنه كان يبدو أنيقا ، إلا أنه كان يشعر بأشد الضيق ، لأن هذه الثياب « الخاصة » كانت تعوقه عن الحركة . وكان يتمنى أن تنسى « مارى » حذاءه ، ولكن أمله لم يلبث أن تبدد ، إذ سرعان ما أحضرته الفتاة من الصوان ، فثارت ثائرته وقال لها إنهم يرغمونه دائما على إتيان ما لا يريد . فقالت له « مارى » محاولة إقناعه :

— أرجوك يا « توم » . . . كن ولدا لطيفاً .

واضطر الغلام إلى ارتداء الحذاء على مضض . . . وبعد قليل كانت « مارى » نفسها قد ارتدت ثيابها . وخرج الأطفال الثلاثة من المنزل فى طريقهم إلى مدرسة الأحد — وهى مكان كان « توم » يكرهه من كل قلبه . أما سيدنى ومارى فكانا يحبانه .

كانت ساعات الدراسة تبدأ من التاسعة حتى العاشرة والنصف ، ثم تُقام الصلاة فى الكنيسة بعد ذلك . وكان طفلان من مجموعة أطفال مدرسة الأحد يشتركان اختياريا فى خدمة (القداس) ، كما كان باقى الأطفال يبقون أيضاً أثناء القداس — لأسباب أخرى . وكانت مقاعد الكنيسة ذات الظهر المرتفع تتسع لثلثمائة شخص من المصلين . أما بناء الكنيسة نفسه ، فكان صغيراً ولكنه نظيف . . وعندما وصل « توم » وزميلاه إلى الكنيسة ، تقهقر الغلام خطوة ليتحدث الى زميل له :

— أخبرنى يا « بيلى » . . هل لديك بطاقة صفراء ؟

— نعم .

— ماذا تريد مقابلها ؟

— ما الذى تعرضه ؟

— شص سنارة .

— أرنى إياه .

فعرضه « توم » عليه . . ووافق « بيلى » على إبرام الصفقة . . وأتبع « توم » هذه الصفقة بأخرى حصل منها على بطاقتين حمراوين ثم بثالثة مقابل بطاقتين زرقاوين . . . وكان يتصيد الغلمان بمجرد وصولهم الى الكنيسة فيشترى منهم البطاقات مختلفة الألوان بما كان لديه من ثروة جمعها إبان طلاء السياج . واستغرقت هذه العملية أكثر من ربع ساعة . فلما فرغ منها انضم الى مجموعة من الأولاد والبنات كانت تدخل الى الكنيسة فى تلك اللحظه ، وتقدم من مقعده ، وبدأ يتشاجر مع أول غلام صادفه فتدخل المشرف ، وكان كهلاً وقوراً ، حتي فض المشاجرة ، ولكنه لم يكد يوليه ظهره حتى جذب « توم » شعر الغلام الذى يجلس أمامه ، فلما استدار الغلام اليه ألفاه منهمكا فى المطالعة ، وما كاد هذا الغلام ينصرف عنه ، حتى غرس « توم » دبوساً رفيعاً فى ظهر غلام آخر فتأفف هذا الغلام بصوت مرتفع ، فاستدار المدرس له وزجره بقوة ، فقد كان فصل « توم » معروفا بالشغب . وعندما حان موعد « التسميع » تبين أن الجميع لم يستذكروا الآيات كما ينبغى ، مما اضطر المدرس الى معاونتهم كى يتذكروا بعض الفقرات . ومع ذلك فقد وزّع المدرس على كل منهم ما يستحقه من بطاقات زرقاء بواقع بطاقة عن كل آيتين . وكانت كل عشر بطاقات زرق تقوّم ببطاقة واحدة حمراء ، وكل عشر بطاقات حمر ببطاقة صفراء . وقد جرت العادة أن يعطى المدرس لمن

يحصل على عشر بطاقات صفر إنجيلا أنيقا (يساوى أربعين سنتاً فى تلك الأيام) . بيد أنه كان من النادر جداً أن يظفر غلام أو فتاة بهذه الجائزة لأن ذلك كان يستلزم حفظ ألفى آية من الإنجيل . ورغم ذلك فقد استطاعت « مارى » أن تحصل على إنجيلين منها — وكان ذلك نتيجة مجهود شاق بذلته خلال عامين متتاليين — كما حصل غلام من أبوين ألمانيين على أربعة أو خمسة أناجيل . فقد استطاع أن يردد ثلاث آلاف آية ذات مرة بدون توقف ، ولكن الجهد العقلى الذى بذله يومذاك كان عنيفاً للغاية ، ومن ثم فقد أصيب الغلام بما يشبه الخبل منذ ذلك الحين — وهو حادث مؤسف جداً بالنسبة للمدرسة ، فقد كان المشرف ينتهز فرص الاجتماعات الهامة ويستدعى هذا الغلام ويطلب منه أن يظهر مهارته ، ولذلك كان باقى الأطفال يخشون هذه التجربة الشاقة كما كان يسميها « توم » . وعلى أثر وقوع هذا الحادث لم يستطع غير الأولاد الكبار أن يحصلوا على البطاقات الملونة التى تكفى للحصول على نسخة من الإنجيل الأنيق ، ومن ثم كان تقديم إحدى هذه الجوائز من المناسبات الهامة نادرة الوقوع ، فإذا ما حصل تلميذ على إنجيل من هذه الأناجيل اعتبر كأنه نال شرفا عظيما ، فيكرمه المدرس ويحسده الزملاء طوال اليوم . ولم يكن « توم » ليفكر يوما فى بذل ذلك المجهود المضنى الذى يمكنه من الظفر بهذا الشرف العظيم ، بيد أنه كان يشعر فى الأيام الأخيرة برغبة شديدة فى أن يظفر بالمجد والتصفيق اللذين يحظى بهما كل فائز فى هذا المضمار .

وفى الوقت المحدد وقف المشرف أمام (المذبح) وهو يحمل كتابا دينياً مغلقا فى يده ، وقد وضع سبابته بين صفحتين من صفحاته ، وطالب الحاضرين بإصاخة السمع ، إذ أن من العادات المتبعة أن يحمل المشرف فى مدرسة الأحد كتابا دينياً فى يده حينما يلقى حديثه المعتاد ، كما هو الحال حينما يحمل المغنى نوتة موسيقية فى يده حينما يظهر على المسرح ليردد أغنية بمفرده — أما منشأ هذه العادة وسرها ، فأمر لا يزال غامضا حتى الآن ، لأن

المشرف والمغنى معاً لا يلجأن إلى الكتاب الدينى أو النوتة الموسيقية عندما يؤديان واجبهما . . وكان هذا المشرف مخلوقا نحيف القامة ، فى الخامسة والثلاثين من عمره ، ذهبى الشعر ، يرتدى ياقة صلبة تكاد حافتها العليا أن تصل إلى أذنيه ، وله طرفان مدببان مثنيان يوشكان على بلوغ ركنى فمه . وكانت هذه الياقة تجبر المشرف على النظر أمامه دائماً ، وتضطره إلى أن يدور بجسمه كله كلما أراد التطلع فى أى اتجاه آخر . أما ربطة عنقه فكانت عريضة جداً لا يزيد طولها عن طول ورقة النقد الكبيرة . وكان مقدم حذائه مقوساً إلى أعلى حسبما كان شائعاً فى تلك الأيام . ولقد كان شباب هذا الوقت يضطرون إلى قضاء الساعات الطويلة وهم يقوســـون أصابع أقدامهم داخل الجدار العلوى للحذاء لكى يتقوس ويجارى (الموضة) ! وباختصار كان مستر « ولترز » المشرف رجلا مهيب الطلعة ، مخلصاً ، أميناً . ومن ثم كان لا يفرط أو يتهاون فى الشعائر الدينية ، ولذلك أحبه الجميع ووثقوا به .

وبدأ الرجل موعظته . . فقال :

« أيها الأطفال ، أريد منكم الآن أن تصغوا إلىّ إصغاءً تاماً دقيقة أو دقيقتين ... نعم .. هكذا . . تلك هى الطريقة التى يجب أن يتبعها الأولاد الطيبون . . ولكنى أرى فتاة صغيرة تتطلع إلى الخارج من النافذة — كأنى بها تظن أننى موجود بالخارج — وربما تتوهم أننى جالس فوق إحدى الأشجار ألقى درسى على صغار الطيور ! (وهنا سرت بين الجالسين همهمة الاستحسان) . . أحب أن أقول لكم أننى أشعر بأشد الارتياح حينما أرى هذا العدد الكبير من الوجوه النضرة النظيفة مجتمعة فى مكان كهذا لتتعلم كيف تفعل الصواب والخير » . . وهلم جرا . . فليس من الضرورى أن نمضى فى ترديد بقية الموعظة ، فقد كانت ذات طابع واحد لا يتغير ، ومن ثم فإنها مألوفة لنا جميعاً . بيد أن الاضطراب ساد الثلث الأخير من الموعظة نظراً لتجدد العراك والشحناء بين جماعة معينة من الأولاد الأشرار . كذلك

لما شعر به آخرون من ضيق وملل بسبب طول الموعظة . وسرعان ما تفشى هذا التبرم حتى شمل الأولاد الهادئين المطيعين أمثال « سيدنى » و « مارى » . ولكن هذه الضوضاء لم تلبث أن تلاشت تماماً حينما أخذ صوت مستر « ولترز » يخفت إيذاناً بانتهاء الموعظة . وعندئذ ساد الجميع صمت التعبير عن الشكر والعرفان بالجميل !

ولقد سرى الهمس بين الجالسين بسبب حادث يعتبر من الحوادث النادرة فى مدارس الأحد ، ألا وهو ظهور عدد من كبار الزائرين أمثال المحامى « تاتشر » الذى كان بصحبة كهل هزيل ، ورجل آخر مهيب الطلعة فى منتصف العمر ، وسيدة وقورة لم يكن هناك شك فى أنها زوجة الرجل الأخير . وكانت السيدة تصطحب معها فتاة صغيرة . ولقد كان « توم » يشعر بالقلق والضيق والتململ ، فضلا عن تأنيب الضمير . فهو لم يستطع مواجهة عينى « آمى لورنس » فتاته الأولى وهى تنظر إليه نظرات حب وهيام . ولكنه ما كاد يرى هذه القادمة الصغيرة حتى امتلأت روحه بالسعادة . وفى اللحظة التالية بدأ مسرحيته المعتادة بكل قواه — كان يلكز جاريه بكوعه ، ويجذب شعر من أمامه ، ويأتى حركات مضحكة بأعضاء وجهه — وصفوة القول ، انه استخدم كل فن يمكنه من أن يسلب قلب الفتاة ويحوز استحسانها .. ولا عجب ، فقد كانت ملاكه الحارس الذى أهداه تلك الزهرة الذابلة ، ثم لم يلبث أن أذله حينما رآه يلتحف السماء فى حديقة منزله !

وقد أفسح المشرف للزائرين مكان الصدارة فى القاعة ، وما أن انتهى مستر « ولترز » من الوعظ ، حتى بادر فقدم الضيوف للتلاميذ . . . كان الرجل متوسط العمر ، مهيب الطلعة ، شخصية ممتازة ، ولا عجب فقد كان قاضى المقاطعة — ولا شك فى أن الأطفال لم يسبق لهم أن حظوا بشرف لقاء مثل هذا الرجل العظيم ، ولهذا كانوا يعجبون ويتساءلون عما اذا كان

هذا الرجل بشرا مثلهم ! ولقد أحسوا بالرغبة فى أن يسمعوه وهو يزأر كما يفعل فى المحكمة ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه ، خائفين خشية أن يفعل ذلك . ولقد كانوا معجبين به ، فهو قادم من مدينة تبعد اثنى عشر ميلا عن قريتهم — ومن ثم فلا بد — أنه قام برحلات كثيرة رأى الدنيا خلالها ولقد زاد من هذه الرهبة التى أثارتها تلك الأفكار ذلك السكون التام الذى شمل القاعة ، فراحت جميع العيون تحرق فى هذا الزائر العظيم القاضى « ناتشر » شقيق محاميهم . . . وفى التو تقدم « جيف ناتشر » نحو الرجل العظيم ليصافحه ، بينما الجميع يتطلعون اليه بعيون ترتسم فيها نظرات الحسد ولو أنه سمع الهمس التالى لرقص من فرط الطرب :

أنظر اليه ياجيم ! إنه يتقدم منه . . . أنظر ! إنه سيصافحه . . . ها هو يصافحه فعلا ! يا إلهى ! ألا تود أن تكون جيف ؟ . . . !

وبدأ مستر « والترز » يؤدى عمله ، فراح يصدر الأوامر هنا وهناك ، ويصدر الأحكام أيضاً « ويوجه مساعديه فى كل اتجاه ... أما أمين المكتبة فقد بادر بإحضار كمية ضخمة من الكتب والمراجع .. بينما تفرقت المدرسات الشابات بين الأطفال الذين أصابتهم لكمات كثيرة فيما بعد ، وكن يرفعن أصابعهن الى شفاههن محذرات الأطفال الأشرار من الإقدام على ما يسيء الى جلال هذه المناسبة العظيمة . . أما المدرسون فقد سارعوا الى أداء واجبهم ، فكانوا يزجرون المسيئين بلطف لا يخلو من قدر من العنف ويطالبون الجميع باحترام النظام — وقد خلق أكثر المدرسين والمدرسات لأنفسهم عملا فى هذه اللحظة ، إما فى المكتبة أو عند المذبح ... كل ذلك والقاضى يتطلع الى الجميع فى عظمة وخيلاء ، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة تشف عن الرضاء والارتياح لما قوبل به من تبجيل وتعظيم !

لم يكن ينقص مستر « والترز » غير شيء واحد لتتم سعادته ، ذلك

أن تتاح له فرصة تقديم إنجيل الى أحد الأطفال بعد أن يعرض مابلغه من إعجاز ، ولقد كان أطفال كثيرون يملكون بطاقات صفر ، ولكن أحداً منهم لم يكن يملك العدد الكافى الذى يتيح له الحصول على نسخة من الإنجيل — واتصل مستر « ولترز » سراً بجميع الصبيان النابهين واستفسر منهم عما معهم من بطاقات .. ولقد كان مستر « ولترز » على استعداد لأن يدفع أى ثمن فى هذه اللحظة لو استطاع أن يسترد الغلام الألمانى وهو متمتع بكامل قواه العقلية .

وفى تلك اللحظة ، لحظة اليأس المرير ، تقدم « توم سوير » وهو يحمل تسع بطاقات صفر ومثلها حمر وعشر بطاقات زرق ، وطالب بالحصول على نسخة الإنجيل .. كان ذلك بمثابة صاعقة تنقض فى سماء صافية ، فإن مستر « ولترز » لم يكن يتوقع إطلاقاً أن يتحقق هذا النصر لصبى مثل « توم سوير » ولو بعد عشر سنوات ! ولم يكن في استطاعته أن يروغ أو يرفض — فقد كان « توم » يملك بطاقات مختومة لا يمكن الطعن فيها . ومن ثم فقد رفع « توم » إلى المنصة التى جلس القاضى ومن معه فوقها ، وأعلن النبأ العظيم من القيادة ! كانت مفاجأة الجيل المذهلة ، ولقد أحدثت تأثيرا عميقاً رفع البطل الجديد إلى مرتبة العظمة ، وهكذا لم تصبح المدرسة أعجوبة واحدة ممثلة فى شخص القاضى الزائر ، وإنما أصبحت أمامها أعجوبتان هما القاضى و « توم سوير » ولقد أكل الحسد قلب الغلمان — أما أكثرهم حقداً وغيظاً فكانوا أولئك الذين أدركوا ، بعد فوات الأوان ، أنهم ساهموا فى تحقيق هذا المجد للصبى « توم » بقبولهم بيع ما كان لديهم من بطاقات ملونة له ، مقابل ما كان يقدمه لهم من تفاهات لا قيمة لها ، جمعها من زملائهم الذين سمح لهم بالمساهمة فى طلاء السياج .. ولكم احتقر هؤلاء الغلمان أنفسهم لأنهم سمحوا لهذه الحية الرقطاء — « توم » — بأن تخدعهم وتسخر منهم !

وقدمت الجائزة للصبي « توم » وسط مظاهر التكريم ، ولكن مستر « والترز » المشرف لم يكن متحمسا لتكريم « توم » فقد كان الرجل المسكين يعتقد بالغريزة أن فى الأمر سراً وإن أغلق عليه فهم هذا السر فى تلك اللحظة لأنه كان واثقاً من أن غلاما مثل « توم » لا يمكن أن يستوعب ألفى آية من الإنجيل — فإن عشر آيات فقط كانت تكفى لإجهاده واستنزاف قواه الذكرية .

وغمرت السعادة والفخر « آمى لورنس » وحاولت أن تجتذب أنظار « توم » إلى وجهها — ولكنه لم يفكر فى التطلع إليها . فعجبت الفتاة لذلك ، ثم لم تلبث أن تملكها القلق ، وسرعان ما تحول هذا القلق إلى ريبة ظلت تساورها وتنحسر عنها ثم تساورها مرة أخرى .. واستمرت تراقب « توم » خلسة ، وقد كشف لها نظرة واحدة عن أشياء كثيرة — وفى التو تحطم أملها ونهشت الغيرة قلبها ، واستبد بها الغضب ، فبدأت العبرات تتساقط من عينيها ، وتملكها الحقد على الجميع ، وكانت أكثر حقداً على « توم » (أو هكذا ظنّت) !

وقدّم « توم » للقاضى ، وأحس الغلام بأن لسانه قد ألجم ، وأن أنفاسه تكاد تتوقف ، وراح قلبه يطرق بعنف بالغ بين جنبيه ، وكان ذلك مرجعه إلى الرهبة التى أحس بها من لقاء هذا الرجل العظيم وبخاصة عندما تبين له أن هذا الرجل هو والد معبودته .. لقد كان على استعداد لأن يجثو عند قدمى هذه المعبودة ، لو أن الوقت كان ليلا ، ولكنه كان نهاراً .. وفى تلك اللحظة وضع القاضى يده فوق رأس « توم » ووصفه بأنه رجل صغير لطيف ، ثم سأله عن اسمه ، فتلعثم الغلام ، وشهق ثم قال بصعوبة :

— « توم »

— أوه . كلا ، ليس اسمك « توم » ، وإنما ..

— « توماس »

— آه ! هو ذاك . . هـذا حسن . . ولـكنى أظن أن لك اسما آخر . . فهل قلته لى ؟

فقال « ولترز » يحث « توم » على الـكلام :

— قل للسيد ما هو اسمك الآخر يا « توم » ، واختم كلامك بلفظ « سيدى » .. يجب ألا تتجاهل آداب السلوك يا فتى

— « توماس سوير » يا سيدى

— هذا حسن أيها الفتى اللطيف . . إن ألفى آية عدد كبير جدا . . . نعم . كبير جداً جداً . ومع ذلك فإنك لن تشعر بأى أسف على المجهود الـكبير الذى بذلته فى استيعابها ، لأن المعرفة أثمن شيء فى هذا العالم . . إنها هى التى تصوغ عظماء الرجال وأخيارهم . . وأنت يا « توماس » ، ستصبح فى أحد الأيام رجلا عظيما خـيّراً ، ويومذاك سوف تتطلع إلى الوراء وتقول « أن ذلك كله راجع إلى المزايا العظيمة التى أكسبتنى إياها مدرسة الأحد فى أيام صباى — أن مرجعه إلى المدرسين الأعزاء الذين علمونى كيف أحب العلم ، وشجعونى ، وعنوا بأمرى ، وقدموا لى نسخة جميلة من الإنجيل لأحتفظ بها ولتكون معى دائما . . إن مرجعه إلى التنشئة الصالحة ! » . . هذا ما سوف تقوله يا « توماس » — ولـكنك لن تحصل على أية نقود مقابل استيعابك لألفى الآية هـذه — كلا بالطبع — إننى أعرف أنك لن تقبل ذلك . . والآن ، لا أظنك تبخل علىّ وعلى هـــذه السيدة بسماع شيء مما تعلمته — كلا . . إننى أعرف إنك لن تبخل علينا بذلك ، إذ أننا نفخر بالغلمان الصغار الذين يتعلمون . . والآن ، لا شك فى إنك تعرف أسماء تلاميذ السيد المسيح الاثنى عشر . . فهلا ذكرت لنا اسمى أول تلميذين منهما ؟

كان « توم » يعبث بأحد أزرار سترته ، وقد بدا عليه الارتباك فى ذلك الحين ، ثم تملـكه القلق وغض من بصره . . وعندئذ غاص قلب

مستر « ولترز » بين جنبيه ، وقال لنفسه « ليس من الممكن أن يفلح الغلام في الإجابة على سؤال بسيط كهذا — . رباه ! لماذا سأله القاضى ؟ » ومع ذلك فقد أدرك أنه يجب عليه أن يتكلم . . قال :

— أجب على سؤال السيد يا « توماس » . . لا تخف .

وبقى لسان « توم » معطلا عن العمل .

قالت السيدة : لا شك أنك سوف تكلمنى أنا . . لقد كان اسما أول تلميذين هما . . .

— داود وجوليات . !

وأحسبُ أنه يحسن بنا أن نسدل الستار هنا وألا نتعرض لبقية المنظر !!

الفصل الخامس

الخنفساء الفريسة

حوالى الساعة العاشرة والنصف ، بدأ ناقوس الكنيسة الصغيرة يدق ، وسرعان ما تجمع الجمهور لحضور صلاة الصباح . . . ووزع أطفال مدرسة الآحد أنفسهم فى أرجاء المكان ، وشغلوا المقاعد عالية الظهر مع آبائهم حتى يكونوا تحت رقابتهم . . وأقبلت العمة « بولى » ومعها « توم » و « سيدنى » و « مارى » ، وجلسوا معاً ، وكان « توم » يجلس بجوار الممر ليكون بعيداً عن مارى قدر المستطاع ، عن النافذة وعن مناظر الصيف المغرية خارج الكنيسة . . وامتلأت القاعة بالمصلين . . وكان بينهم وكيل مكتب البريد وهو كهل أصبح فى تلك الأيام معدماً بعد أن شهد كثيراً من أيام المجد . . . والعمدة وزوجته — فقد كان للقرية عمدة ، وهو منصب من المناصب التى لم تكن الضرورة تدعو لوجودها ، كذا الأرملة « دوجلاس » وهى امرأة جميلة أنيقة ، فى الأربعين من عمرها عرفت بالسخاء ، وطيبة القلب ، وسعة العيش ، وكان قصرها المشيد فوق التل هو القصر الوحيد فى المدينة ، وكان يعتبر أكبر دار للضيافة ، وأكثرها كرماً من حيث الولائم الكبرى التى كانت تقام فيه ، والتى كانت (سانت بيترسبورج) كلها تتباهى بها . . . وكان من بين الحاضرين أيضاً « الماجور وارد » وزوجته ، والمحامى « ريفرسون » ، وهو رجل بارز جاء إلى المدينة ليقيم فيها بصفة دائمة . . وأقبلت فى أثره أجمل فتاة فى القرية يتبعها صف من الفتيات الفاتنات أنيقات الثياب وتبعهن الكتبة الشبان الذين جاءوا من المدينة معاً ، ووقفوا يتأملون الفتيات بإعجاب . . وأخيراً أقبل الغلام النموذجى « ويلى

مافرسون ، وهو يبدى أشد العناية بأمه كما لو كانت دمية مصنوعة من الزجاج .. فقد كان من عادته أن يصحب أمه إلى الكنيسة ؛ ولهذا كان موضع فخر جميع الأمهات . ولكنه كان أيضاً مكروهاً من جميع الصبيان لأنه كان غلاماً مثالياً ، ولأنه كان يبزهم جميعاً لا من الناحية الأخلاقية فحسب وإنما أيضاً من ناحية الهندام . . كان منديله الأبيض يتدلى من جيبه . . ولم يكن « توم » يملك منديلا ، ولهذا كان يعتبر الغلمان الذين يملكون المناديل « متغطرسين » !

وعندما التأم عقد المصلين ، دق الناقوس مرة أخرى لينبه المتسكعين والمتأخرين ، ثم لم يلبث أن ساد القاعدة سكون شامل لم يكن يعكره غير همس (الشمامسة) فقد كان ذلك حالهم دائماً حتى إبان الصلاة . .

وبدأ المنشد يردد أناشيده بصوت رخيم ونغمة كانت تستهوى جميع سكان هذا الجزء من الريف ، وقد بدأ صوته هادئاً لطيفاً ، ثم لم يلبث أن ارتفع حتى بلغ نقطة معينة ، ثم لم يلبث أن خفت ثانية وهو يردد :

هل أحمل إلى المجد فوق فراش من الأزهار
بينما يرهق الآخرون أنفسهم من أجل الفوز والفخار ؟

كان يعتبر منشداً مثالياً ... ولهذا كان يستدعى دائماً إلى الاجتماعات الكنسية ليردد « التراتيل » ، حتى إذا ما فرغ من الإنشاد رفعت السيدات أيديهن وتركنها تسقط فى حجورهن ، أو حجبن أعينهن بأيديهن ، أوهززن رؤوسهن كأنما يقلن : « إن الكلمات لا تستطيع أن تصف هذا الإعجاز .. إن صوته رخيم . ساحر لا يتلاءم مع هذه الدنيا الفانية »

وبعد أن فرغ المنشد من الترتيل ، تحول الكاهن مستر « سبراج » إلى نشرة أنباء ، وأخذ يقرأ قائمة بمواعيد الاجتماعات ، وأسماء الشركات ، حتى خيل للحاضرين أن هذه القائمة لن تنتهى إلا فى يوم الحشر — ومن عجبه

أن هذه العادة الغريبة ما زالت موجودة في أمريكا في هذا العصر الذي كثرت فيه الصحف . إذ يبدو أنه كلما قلت مبررات إحدى العادات التقليدية ، أصبح من الصعب التخلص منها !

وبدأ الكاهن يصلي ، وكانت صلاته حارة صادرة من القلب . ثم لم يلبث أن انتقل إلى التفصيلات . فأخذ يبتهل من أجل الكنيسة وأبنائها ، ومن أجل كنائس القرية الأخرى ، ومن أجل القرية نفسها ، ثم من أجل المقاطعة ، فمن أجل الولاية ، ومن أجل موظفيها ، فمن أجـــل الولايات المتحدة كلها ، ومن أجل كنائس الولايات المتحدة ، ومن أجل الكونجرس ، ومن أجل رئيس الولايات المتحدة ، ومن أجل ضباط الحكومة ، فمن أجل البحارة المساكين الذين يكافحون في البحار العاتية ، ومن أجل ملايين المضطهدين الذين ينوءون ويرزحون تحت حكم الملوك الأوربيين الطغاة والمستبدين في الشرق ، كما أخذ يبتهل إلى أن يهدي أولئك الذين وهبهم النور والرزق ولكنهم لا يبصرون ولا يسمعون ، ومن أجل الوثنيين الذين يعيشون في الجزر السحيقة . . . ثم ختم ابتهالاته ضارعاً إلى الله أن تلقى كلماته قبولا من المستمعين وأن تكون بمثابة الحب ، يبدو في الأرض الطيبة لينتج في الوقت الملائم ثماراً كثيرة من الخير . آمين !!

وجلس المصلون ... أما الغلام الذي تدور حوله هذه القصة فلم يشعر بأية متعة من هذه وإن احتملها — وكان احتماله على مضض . . لقد بقى ساكنا طوال الوقت ، ولكنه كان عازفاً عن الإصغاء إلى التفصيلات ، ولا عجب فقد ألم بها منذ أمد طويل ، إلا أنه كان لا يلبث أن يرهف السمع كلما نطق الكاهن بجديد ، إذ كان يتمتع بأذن حساسة تلتقط كل جديد ولو أن طبيعته كانت تنفر منه لأنه كان يعتبر كل إضافة عملا لا ينطوي على العدالة.. وفي منتصف الصلاة حطت ذبابة على ظهر المقعد المواجه له ، وراحت تعذب روحه حينما (حكت) ذراعيها معاً في هدوء ، ثم لم تلبث أن

أحاطت رأسها بذراعيها وأخذت تدلكه بقوة ، حتى لقد خيل لتوم أن رأسها يكاد ينفصل عن جسدها . وبعدئذ أخذت تدلك جناحيها برجليها الخلفيتين .. وهكذا مضت فى عملية زينتها بهدوء عجيب ، كما لو كانت مطمئنة تماماً إلى أنها آمنة من كل سوء .. والحق أنها كانت آمنة ، إذ رغم ما كان « توم » يشعر به من رغبة عارمة فى الفتك بها ، إلا أنه لم يجرؤ على ذلك — كان يؤمن بأن روحه سوف تزهق فى الحال إذا أتى مثل هـذا الإثم والصلاة قائمة . ومن ثم فما أن اختتم الكاهن صلاته حتى ثنى « توم » راحة يده ، وراح يحركها بحذر شـديد إلى الأمام ، وفى اللحظة التى نطق الكاهن فيها بكلمة « آمين » سقطت الذبابة أسيرة حرب ! ولـكن العمـة « بولى » فطنت إلى ما حدث وأرغمته على إطلاق سراح الذبابة .

وبدأ الواعظ يقرأ بعض آيات من الكتاب المقدس ، ثم فسرها بصوت عميق ممل ، حتى لقد أحس كثير من الحاضرين بالنعاس ، .. أما « توم » فقد راح يعد الصفحات التى قرأها الواعظ إبان هذه المرحلة من الصلاة — وكان فى استطاعته دائماً أن يحدد عدد الصفحات التى يقرأها الواعظ أثناء صلاة كل يوم أحد ولكنه لم يكن ليستطيع أن يتذكر شيئاً من محتويات هذه الصفحات ! بيد أنه مع ذلك شعر بشيء من الاهتمام بما قاله الواعظ فى ذلك اليوم لأنه ، أى الواعظ ، استطاع أن يرسم صورة رائعة لالتئام شمل جميع الأعداء فى هذا العالم فى يوم القيامة ، عندما يجلس الأسد والحمل معاً ، ثم يأتى طفل صغير ليقودهما ! ! ... وعلى الرغم من أن الغلام لم يدرك ما فى هذا القول من معنى عميق ، إلا أن المعنى الواضح للمبدأ من ناحيـة تآلف الشعـوب لم يغب عنـه ، فتهـلل وجهـه وقال لنفسه أنه يتمنى أن يـكون ذلك الطفل !

وعاد غلامنا يستشعر الضيق ثانية حينما استأنف الواعظ حديثه الجاف . وفى تلك اللحظة رأى « توم » خنفساء سوداء كبيرة ، وكان أول ما فعلته هذه

الخنفساء أن مرقت من فوق أصبعه فاقشعر جسمه ، وفى اللحظة التالية كانت الخنفساء تتخبط فى ممشى الكنيسة ، بينما وضع «توم» أصبعه فى فمه . وظلت الخنفساء ملقاة على الأرض وقد انقلبت على ظهرها وهى تحاول عبثا أن تستعيد توازنها . وراح «توم» يتأملها بغيظ ، فقد كان يريد القضاء عليها ولكنها كانت بعيدة عنه . ولقد وجد كثير من المصلين الذين ضاقوا ذرعاً بلجاجة الواعظ وسيلة للتسلية فى هذه الخنفساء ، فراحوا يتأملونها بدورهم ، وفى تلك اللحظة أقبل كلب ضال متسكع يبدو عليه الحزن ، ويعانى من الكسل بسبب هدوء الصيف وقيظه ، ومن الإعياء بسبب مضى الحياة على وتيرة واحدة . . لقد كان يهفو إلى التغيير ، ومن ثم فما كادت عيناه تقعان على الحشرة حتى رفع ذيله وأخذ يحركه . ومضى يتأمل الخنفساء ، ثم لم يلبث أن دار حولها ، وشمها من بعد ، ثم دار حولها مرة ثانية ، وكأنما قد استجمع شجاعته فى تلك الفترة إذ أنه اقترب منها ، وشمها مرة أخرى ، ثم رفع شفته ، وهجم عليها ولكنه أخطأها ، فقام بمحاولة ثانية فثالثة ، وبدا يستمتع بهذا اللون من التسلية ، وسرعان ماضم فكيه ، على الخنفساء ، ومضى فى تجاربه ، بيد أنه لم يلبث أن ضاق بها ذرعاً فى النهاية . فانصرف عنها ، وكاد ينساها . . وأخذ رأسه يهتز ، كأنما استولى النعاس عليه ، و بعد لحظات بدأ ذقنه يتراخى ويهبط رويداً رويداً حتى لمس العدو الذى قبض على طرفه ، وفى التو نبح الكلب بقوة ، وحرك رأسه بعنف شديد ، وسقطت الخنفساء على مبعدة ياردتين ، وكان سقوطها على ظهرها هذه المرة أيضا . وابتسم كل من رأوا هذا المنظر ، واختبأ عدد غير قليل من وجوه المصلين خلف المناديل والمراوح . أما «توم» فقد أحس بسعادة غامرة وبدا الكلب كالأحمق ، ومن المحتمل أنه أحس بأنه كذلك ، ولكنه كان يستشعر القيظ أيضاً ، كما كان يتحرق إلى الانتقام . ولهذا فقد اقترب من الخنفساء وبدأ هجومه عليها . . وكان يثب نحوها من كل جانب وهو يقترب منها بجليه الأماميتين بوصة فى كل مرة ، ويحاول أن ينقض عليها بأسنانه

ولكنه لم يلبث أن أحس بالإعياء مرة أخرى من فرط مابذل من جهد ، فحاول أن يسلى نفسه بمطاردة ذبابة ، ولكنه لم يجد فى ذلك متعة ، فانصرف عنها إلى متابعة نملة كانت تسير على الأرض ، وقد جعل أنفه قريباً منها . ولكنه سرعان ما ضاق ذرعاً بهذه المحاولة أيضاً فتمطى ، وتنهد ، وكان قد نسي الخنفساء تماما فجلس فوقها ، وفى اللحظة التالية انطلق ينبح نباحاً متواصلاً بينما طارت الخنفساء فى ممر الكنيسة .

وأخذ الكلب يعدو حتى خرج من باب الكنيسة ، أما الخنفساء فقد سقطت فى حجر الكاهن الذى قذف بها من النافذة ، فعاد الهدوء يشمل المصلين مرة أخرى .

فى ذلك الوقت كانت وجوه جميع المصلين مختنقة من فرط ما بذلوه من جهد لكبت الضحك . وتوقف الواعظ عن الكلام ، ولكنه سرعان ما استأنفه وإن خلا من ذلك الحماس السابق . ولم يجد الكاهن بداً من الإسراع بأداء الشعائر الدينية ، فلما فرغ منها تنفس الجميع الصعداء .

وعاد « توم سوير » إلى منزله وهو مرح أشد ما يكون المرح ، وبدأ يعتقد ألا بأس من حضور صلاة يوم الأحد ، طالما كان فى الإمكان حدوث شيء من التجديد فيها !!

الفصل السادس

«توم» يقابل «بيكى»

كان « توم سوير » تعساً صباح يوم الاثنين . . ولا عجب ، فقد كان يشعر بهذه التعاسة فى صباح كل يوم اثنين — لأنه بداية أسبوع من العذاب البطىء فى المدرسة . . كان يبدأ هذا اليوم عادة وهو يتمنى لو أنه لم يحصل على أجازة ، لأنه كان يشعر بأنه ذاهب للأسر ، وأن قيوداً أثقل سوف تكبل يديه خلال الأسبوع الجديد .

وبقى « توم » ممددا فى فراشه ، واستغرق فى التفكير . ولم يلبث أن خطر بباله أنه يتمنى أن يكون مريضاً ، فبذلك يمكنه أن يبقى فى المنزل ولا يذهب إلى المدرسة . . ولاحت له فكرة . . راح يستعرض كل جزء فى جسمه ولكنه لم يجد عضوا منه يشكو ألما . فأعاد الفحص مرة أخرى ، وفى هذه المرة خيل إليه أنه يستطيع أن يكتشف أعراض مغص ، فراح يشجع هذه الأعراض ، وقد امتلأ أملا ، ولكن الأعراض سرعان ما ضعفت ثم لم تلبث أن تلاشت تماما ، فعاود التفكير . وفجأة اكتشف شيئا . . كانت إحدى أسنانه العلوية الأمامية غير ثابتة ، فاعتبر ذلك مرضاً خطيراً ، وأوشك على البدء بالتأوه ، لولا أنه تبادر إلى ذهنه أنه من المحتمل أن تعمد عمته إلى جذب هذه السن وخلعها ، وأن ذلك خليق بأن يسبب له ألما شديداً .

وسرعان ما حزم أمره على أن يبحث عن « مرض » آخر ، بيد أنه لم يستطع أن يجد هذا المرض بعض الوقت ، ولكنه سرعان ما تذكر أنه سمع الطبيب يتحدث عن شىء معين يضطر المريض إلى ملازمة

الفراش أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ويتهدده بفقد أحد أصابعه . فبادر وأخرج قدمه من أسفل الغطاء وتأمل أصبعه المتقرح . ومع أنه لم يكن يعرف ما هي الأعراض الملازمة لهذا المرض ، إلا أنه قرر أن ينفذ التجربة ، فتمدد في الفراش وراح يئن بصوت عال .

ولكن « سيدني » ظل مستغرقا في نومه كأنما فقد وعيه . .

وازداد أنين « توم » عنفا ، وتخيل أنه بدأ يشعر بألم في أصبع قدمه حقيقة !

وظل « سيدني » جامداً . .

وبدأ « توم » يلهث من فرط ما بذل من جهد . . فاستراح قليلا ، ثم استأنف الأنين بعنف شديد ، ولكن « سيدني » مضى في شخيره .

وضاق « توم » ذرعاً ، فنادى « سيدني » . ثم هزه . . فتنبه الغلام ، وعندئذ استأنف « توم » أنينه . . وتثاءب « سيدني » وتمطى ، ثم نهض معتمداً على مرفقيه ، وراح يحدّق في وجه « توم » . . بينما استمر هذا في تأوهه .

قال « سيدني » : توم . . توم . . ماذا يؤلمك ؟

ولكن « توم » لم يجب . فأردف « سيدني » : توم : توم ! أخبرني ماذا يؤلمك ؟

وهزه بقوة ، وتطلع إلى وجهه بلهفة . . فقال « توم » متأوها :

— آه . . كلا . . لا تهزني يا « سيدني » .

— لماذا ؟ ما الأمر يا « توم » ! يجب أن أنادي عمتي .

— كلا . . لا داعي لذلك ، فقد تتحسن حالتي بعد قليل . . لا تنادِ أحداً .

— لكني يجب أن أدعوها ! لا تتأوه هكذا ، لأن تأوهاتك تؤلمني . .

منذ متى وأنت على هذه الحال ؟

— منذ ساعات . . آه ! لا تهزنى هكذا « ياسيدنى » . . . إنك ستقتلنى .

— لماذا لم توقظنى قبل الآن يا « توم » ؟ أواه يا « توم » . . لا تتأوه لأن جسدى يقشعر كلما سمعت أنينك . . ما الأمر « يا توم » ؟

— إننى أصفح عنك تماما يا سيدنى (وتأوه) . . إننى أصفح عن كل ما ارتكبته فى حقى . . . ، عندما أموت . . .

فقاطعه « سيدنى » بلهفـــة : أواه يا « توم » . . لن تموت . . أليس كذلك ؟ كلا يا « توم » . . أوه . . . ربما . . .

— إنى أصفح عن كل إنسان يا « سيدنى » (وتأوه) قل لهم ذلك يا « سيدنى » . . كذلك أرجوك أن تهب مزلاج النافذة وقطتى ذات العين الواحدة إلى تلك الفتاة التى أتت إلى المدينة حديثاً . . وقل لها . . .

ولكن « سيدنى »كان قد وثب من الفراش وانطلق من الغرفة كالسهم .. كان « توم » يتألم فعلا الآن . فقد جعله الخيال يتوهم أنه مريض حقا ، فاكتسبت أناته طابع الحقيقة .

وهبط « سيدنى » الدرج وثباً وصاح :

— أواه يا عمتى « بولى » تعالى على عجل ! إن « توم » يموت !

— يموت !

— نعم يا عمتى . . لا تتلكأى . . تعالى سريعا !

— هذا سخف . . إننى لا أصدقك !

ولكنها هرولت إلى الطابق العلوى و « سيدنى » و « مارى » فى أعقابها . وعندما وقفت أمام الفراش شهقت وصاحت : ماذا دهاك يا « توم » !

— أواه يا عمتى . . إنى . . .

— ماذا يؤلمك أيها الطفل ؟

— أواه يا عمتى . . إنى أشعر بأن أصبع قدمى المقترح قد مات !

وتهاوت السيدة العجوز على أحد المقاعد ، وانفجرت ضاحكة ، ثم انفجرت باكية ، ثم اختلط ضحكها ببكائها . وهكذا استطاعت أن تمالك رباطة جأشها .

وقالت : لقد أفزعتنى يا « توم » . . . والآن ، كف عن هذا الهذيان ، واهبط من الفراش .

واختفت الأنات ، وتلاشى الألم ، وتظاهر الغلام بشىء من الغباء . . . ثم قال :

— أواه يا عمتى . . لقد خيل إلىّ أنه مات . . ثم إن ألمه لا يطاق ، حتى لقد أنسانى ألم أسنانى .

— أسنانك ! وماذا حاق بأسنانك ؟

وبدأ « توم » يتأوه . .

— أوه ! كفى . . لا تستأنف التأوه . . هيا ، افتح فمك . . حسناً ، إن سنك غير ثابتة ، ولكنك لن تموت بسببها . . اذهبى يا « مارى » وأحضرى خيطاً من الحرير ، وقطعة فحم مشتعلة من المطبخ .

فقال توم : أرجوك ألا تخلعيها يا عمتى . . إنها لم تعد تؤلمنى . . أرجوك يا عمتى ، إننى لا أريد البقاء فى المنزل والتخلف عن المدرسة .

— أوه ! أحقا ؟ إذن فقد كانت كل هذه الجلبة لأنك ظننت أنك تستطيع البقاء بالمنزل والذهاب لصيد السمك ؟ « توم » . . إننى أحبك أشد الحب ، ولكن يبدو أنك تجرب كل وسيلة لكى تحطم قلبى العجوز بما تأتيه من فضائح .

وفى تلك الأثناء كانت أدوات خلع السن قد أعدت ، فربطت العجوز السن بأحد طرفى الخيط الحريرى ، وربطت الطرف الآخر بعامود الفراش. وقربت قطعة الفحم المشتعلة فجأة من وجه « توم » حتى كادت تلمسه .. وسرعان ما كانت السن تتأرجح بجوار عامود السرير .

إن لجميع المحن مزاياها . إذ ما كاد « توم » يتناول طعام الإفطار ويغادر المنزل فى طريقه إلى المدرسة ، حتى أصبح موضع حسد كل غلام قابله بسبب تلك الفجوة التى خلفها خلع السن فى صف أسنانه العلوى ، والتى كانت تمكنه من أن يبصق بطريقة مدهشة !! وسرعان ما أحاط به عدد كبير من الغلمان الذين استهواهم هذا المنظر الجديد ، بعد أن انصرفوا من حول غلام آخر كان قد جرح أصبعه . . وهكذا وجد الغلام الأخير نفسه فجأة بغير متفرجين ، وأحس بالضيق ، وقال باحتقار مفتعل أن البصق بالطريقة التى يتبعها « توم سوير » ليس شيئاً يستحق الاهتمام !!

وبعد قليل ، التقى « توم » بغلام القرية الشريد « هاكلبرى فين » ، وهو ابن رجل سكير . . وكانت جميع الأمهات فى المدينة يكرهن « هاكلبرى » لأنه كان كسولا ، خارجا على القانون ، مبتذلا ، شريداً — ولأن جميع أطفالهن كانوا يعجبون به وتشوقهم رفقته المحرمة كما كانوا يتمنون أن يكونوا مثله ! . ولقد كان « توم » ، مثل الآخرين ، يحسد « هاكبرى » على تشرده هذا ، ولكن عمته « بولى » كانت تحرم عليه أن يلعب معه ، ولهذا كان يلعب معه كلما واتته الفرصة ! وكان « هاكلبرى » يرتدى دائما ثياب الرجال الكبار المهلهلة التى كثرت بها الرتوق فضلا عن اتساعها عليه . أما قبعته فكانت حطام قبعة ضخمة ، على حين كانت السترة تكاد تصل إلى أخمص قدميه : ولم يكن يرفع سرواله (بنطلونه) ويثبته حول خصره غير جانب واحد من (الحمالة) ، بينما كانت قاعدة السروال تتدلى إلى منتصف ساقيه ، مما جعل أطرافه السفلية تمتزج بالقاذورات بسبب طول السروال !

كان « هاكلبرى » يتجول حيثما يشاء، ينام فوق عتبات أبواب المنازل إذا كان الطقس معتدلا ، وفى البراميل الكبيرة إذا أمطرت السماء . ولم يكن مضطراً للذهاب إلى الكنيسة أو الى المدرسة ، كما لم يكن مضطراً لأن ينادى أحداً بـ « ياسيدى » أو يطيع أحداً . وكان فى استطاعته أن يذهب للسباحة وصيد السمك أينما يشاء ووقتما يريد، وأن يقضى فى ذلك اللهو الوقت الذى يروقه . ولم يكن أحد ليجرؤ على تحديه للقتال، كما كان يستطيع أن يسهر إلى أية ساعة من ساعات الليل .. وكان هو أول غلام يمشى حافى القدمين فى الربيع ، وآخر من يرتدى الحذاء عندما يقبل الخريف . ولم يكن يغسل وجهه أبداً ، أو يرتدى ثيابا نظيفة ، كما يجيد الشتائم والسباب ... صفوة القول ، كان هذا الغلام يملك كل ما من شأنه أن يجعل الحياة ثمينة .. أو هذا على الأقل ما كان يظنه كل غلام فى قرية سانت بيتر سبرج !!

نادى « توم » هذا الطريد قائلا :

— أهذا أنت يا « هاكلبرى » ؟

— أهلا .. كيف حالك يا « توم » !

— ما هذا الذى معك ؟

— قطة ميتة

— دعنى أرها يا « هاك » . . . إلهى ! إنها متصلبة تماما . . من أين حصلت عليها ؟

— اشتريتها من أحد الغلمان .

— ماذا أعطيت له مقابلها ؟

— بطاقة زرقاء ومثانة حصلت عليها من المجزر !

— ومن أين حصلت على البطاقة الزرقاء ؟

ـ اشتريتها من « بن روجرز » منـذ أسبوعـين مقابل مضرب طوق

ـ أخبرنى يا « هاك » . مافائدة القطة الميتة ؟

ـ فائدتها ؟ أنها تشفى السنط !

ـ أحقا ؟ إننى أعرف طريقة أحسن من ذلك

ـ أراهن أنها ليست أحسن .. لكن ماهى ؟

ـ الماء المتخلف عن المطر .

ـ ماء المطر : هذا سخف ..

ـ لماذا ؟ هل سبق لك أن جربته ؟

ـ كلا .. ولكن « بوب تانر » جربه .

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ هو قال لجيف تاتشر ، وجيف قال لجونى بيكر ، وجونى قال لجيم هو ليس ، وجيم قال لبن روجرز وبن قال لصبى ، زنجى ، والزنجى قال لى..

ـ حسناً . إنهم جميعاً كاذبون . لكن قال لى كيف استطاع « بوب تانر » أن يفعل ذلك يا « هاك » ؟

ـ لقد غمس يده فى جذع شجرة مجوف متآكل حيث تجمع ماء المطر

ـ أكان ذلك نهارا ؟

ـ بالتأكيد

وهل كان وجهه نحو الجذع ؟

هذا ما أظنه

وهل نطق بشىء ؟

ـ علم ذلك عند ربى .. لكنى لا أعتقد أنه قال شيئا .

— يا للسخف ! أليس من خطل الرأى أن تقول أن فى الإمكان شفاء السنط بالماء المتخلف من المطر ؟ إن ذلك غير معقول ! إنهم يقولون أنه يجب عليك أن تذهب إلى قلب الغابة بمفردك حيثما تعرف أن هناك جذع شجرة مملوءا بماء المطر . وعندما ينتصف الليل تلصق ظهرك بجذع الشجرة وتدخل يديك فيه ، وتردد بيتين معينين من الشعر . وبعدئذ تمشى إحدى عشرة خطوة بسرعة وعينيك مغلقتين ، وتدور حول نفسك ثلاث مرات ، ثم تعود الى منزلك بغير أن تكلم أحداً ، لأنك اذا تكلمت فقد السحر أثره !!

— حسناً . . يبدو أنها طريقة لا بأس بها ، ولكن ذلك لم يكن هو ما فعله « بوب تانر » .

— نعم ياسيدى . . تستطيع أن تراهن على أنه لم يفعل ذلك ؛ لأن جسمه مملوء بالسنط ، ولاشك أنه ما كان ليتردد فى التخلص منه اذا عرف كيف يستخدم الماء المتخلف عن المطر . . لقد تخلصت من السنط الذى يظهر على يديه بهذه الطريقة يا « هاك » . . . إننى أكثر من اللعب بالضفادع لهذا فإن يدى كثيرا ما تصابان بالسنط . وفى بعض الأحيان أتخلص منه بحبة من الفول .

— نعم .. إن الفول مفيد فى مثل هذه الأحوال . فقد جربته .

— أحقا ! ما هى الطريقة التى تتبعها ؟

— إفلق حبة الفول ، ثم إقطع السنطة حتى يسيل منها دم قليل ، وبعدئذ الطخ إحدى الفلقتين بالدم ، ثم أحفر حفرة فى تقاطع طريقين ، بشرط أن يكون ذلك عند منتصف الليل ، وفى الظلام ، وادفن الفلقة فيها ، وبعدئذ إحرق ماتبقى من حبة الفول . إن مايحدث هو أن فلقة حبة الفول الملوثة

بالدم ، ستحاول أن تبحث عن زميلتها الأخرى ، وهى كلما تفعل ذلك تساعد الدم على طرد السنطة ، وسرعان ما تسقط .

— نعم . . هذا صحيح يا « هاك » . وأنه ليحسن أن تقول — وأنت تدفن فلقة حبة الفول « إنزلى يا حبة الفول ، اسقطى أيتهـــا السنطة ، لا تعودى لمضايقتى مرة أخرى » .. تلك هى الطريقة التى يتبعها « جو هاربر » . . لكن قل لى كيف تتخلص من السنط بالقطط الميتة ؟

— هذا يستلزم أن تذهب ، ومعك القطة الميتة ، إلى المقابر حوالى منتصف الليل ، بشرط ان يكون شخص شرير قد دفن فى اليوم السابق . وعندما ينتصف الليل ، سيأتيك شيطان وربما اثنان أو ثلاثة ، ولكنك لن تستطيع أن تراهم ، وإنما قد تسمع فقط شيئاً يشبه قصف الريح ، وربما تسمع الشياطين يتكلمون ، وعندما يتأهبون للمضى بجثة هذا الشرير ، يجب عليك أن تقذف بالقطة فى أثرهم وأنت تقول « ياشيطان اتبع الجثة ، وياقطة اتبعى الشيطان ، وياسنط اتبع القطة ، فإننى لست بحاجة إليك » . فإن ذلك خليق بالقضاء على أية سنطة .

— يخيل إلىّ أنها طريقة لا بأس بها .. هل سبق لك أن جربتها يا «هاك» ؟

— كلا . . ولكنى سمعت هذه القصة من الأم العجوز « هوبكنز »

— حسناً ، أظن أن الأمر كذلك ، فقد سمعت الناس يقولون إنها ساحرة .

— أنا أعلم أنها كذلك ! لقد سحرت أبى ، فإن أبى يقول ذلك . . لقد جاء إلى المنزل وقال أنها كانت تسحره ، فالتقط صخرة وقذفها بها ، ولولا أنها استطاعت أن تتجنبها لأصابتها . مهما يكن ، لقد حدث له أمر غريب فى تلك الليلة . فقد سقط فى إحدى الحظائر ، وبقى ممدداً فيها وهو مخمور ، كما كسر ذراعه .

— هذا أمر مخيف . . لكن كيف عرف أنها كانت تسحره ؟

— إن أبي يفسر ذلك بسهولة ، فهو يقول إن الساحر إذا استمر يحدق النظر فيك وقتا طويلا ، فإنه يسخرك وبخاصة إذا كان يتمتم ، إذ أن هذه التمتمة عبارة عن صلات ذات تأثير عكسى !

— أخبرنى يا « هاك » . متى ستقوم بتجربة القطة الميتة ؟

— الليلة ، فأكبر ظنى أن الشياطين ستسعى الليلة فى طلب « هوس وليامز » !

— ولكنهم دفنوه يوم السبت . . فهلا سعت الشياطين إليه ليلة الأحد؟

— يا لله . ! إنك ساذج يا « توم » . . كيف يمكن أن تحدث تعاويذهم أثرها حتى منتصف الليل ؟ ثم لا تنس أن الشياطين لا تستطيع أن تعمل يوم الأحد فيما أعتقد .

— إن ذلك لم يخطر ببالى إطلاقا . . هل تدعنى أذهب معك ؟

— بالطبع ، إذا لم تكن خائفاً .

— خائف ! ؟ هذا أمر بعيد الاحتمال . . لكن هل ستموء تحت نافذتى ليلاً ، لكى تنبهنى إلى أنه قد حان وقت الذهاب إلى المقابر ؟

— نعم . وعليك أن تموء أيضاً إذا واتتك الفرصة . . لقد تركتنى أموء فى المرة السابقة ، إلى أن بدأ « هايز » العجوز يقذفنى بالأحجار وهو يقول : لعنة الله على هذا القط ! فاضطررت إلى أن ألقى حجراً عليه — لكن إياك أن تذكر ذلك لأحد .

— لن أفعل . . إننى لم أستطع أن أموء فى تلك الليلة لأن عمتى كانت تراقبنى عن كثب . ولكنى سأموء هذه المرة — قل لى ما هذا ؟

— إنها قرادة

— من أين حصلت عليها ؟

— من الغابة .

— ماذا تأخذ مقابلها ؟

— لا أعلم . ولكنى أريد أن أبيعها

— حسناً .. إنها حشرة صغيرة على كل حال !

— أوه ... إن فى استطاعة أى شخص أن يحصل على ما يشاء من هذه الحشرات . ولكنى قانع بهذه القرادة على كل حال . .

— مهما يكن .. هناك قراد كثير . . وإنى لمستطيع أن أحصل على ألف واحدة منها إن شئت .

— إذن لماذا لا تحاول ؟ أنت تعلم أنه ليس هناك قراد الآن ، إذ أن موسمه لم يحن بعد فيما أظن . لقد كانت هذه القرادة أول واحدة أراها هذا العام .

— اصغ إلىّ يا « هاك » . سأعطيك سنتى مقابلها .

— دعنى أرها .

وأخرج « توم » لفافة صغيرة من الورق ، راح يحلها بعناية . وتأمل « ها كلبرى » السن بإعجاب .. كان الإغراء قويا .. وأخيراً قال .

— هل هى سن حقيقية ؟

ورفع « توم » شفته العلوية فكشف عن الفجوة ..

قال « ها كلبرى » : حسناً .. إننى موافق على الصفقة .

ووضع « توم » القرادة بداخل علبة كبسول ، وافترق الغلامان ، وكل منهما يشعر أنه أثرى من ذى قبل !

وعندما وصل « توم » إلى مبنى المدرسة الصغير المنعزل ، كان يمشى

بخطوات واسعة ، شأن الشخص الأمين الذى يلجأ إلى أقصى سرعة مستطاعة حتى يستطيع أن يصل إلى غايته فى الموعد المحـــدد . . وعلق قبعته على المشجب ، وجلس فوق مقعده بنشاط أشبه بنشاط رجال الأعمال .. وكان المعلم فى تلك اللحظة مستسلماً للنعاس اللطيف وهو جالس فوق (عرشه) الضخم المرتفع ! . ولكنه لم يلبث أن تنبه عند دخول « توم » وما أحدثه من ضوضاء حينما جلس .

هتف المعلم : « توماس سوير » !

كان « توم » يعلم أنه يجب عليه أن يتوقع المتاعب كلما نطق المعلم باسمه كاملاً .

أجاب : نعم يا سيدى .

ـــ تعال هنا .. والآن أخبرنى يا غلام لماذا جئت متأخراً كالعادة ؟

كان « توم » يوشك على الإلقاء بأكذوبة يبرر بها تأخيره ، ولكنه عدل عن ذلك حينما رأى خصلتين طويلتين من الشعر الذهبى تتدليان فوق ظهر فتاة جعلته كهرباء الحب يعرف من هى صاحبتهما ، كما رأى بجوار صاحبة هاتين الضفيرتين مقعداً شاغراً ..

أجاب بلا إبطاء :

ـــ لقد كنت أتحدث مع « هاكلبرى فين »

وجمد الدم فى عروق « المعلم » وراح يحدق فى وجه « توم » مبهوتا . . وتلاشى فى الحال ذلك الطنين الذى كان يصدر عن التلاميذ وهم يستذكرون درسهم ، وراح جميع مَن فى القاعة يتساءلون : هل فقد « توم » عقله حتى يدلى بهذا التصريح الخطير ؟! .

وقال المعلم : ماذا .. ماذا تقول ؟

ـــ لقد كنت أتحدث مع « هاكلبرى فين » !

لم يبق شك فى مغزى كلمات « توم ».. فقال المعلم :

— إن هذا أخطر اعتراف سمعته فى حياتى يا « توم سوير » ، وليست هناك عقوبة يمكن أن تتلاءم مع هذا الإثم الكبير .. اخلع سترتك !!

وظل المعلم يضرب الغلام إلى أن كلّ ساعده .. ثم قال له آمراً :

— والآن ، اذهب واجلس مع البنات يا سيدى ! وليكن لك فى ذلك عبرة .

ورغم ما كان يبديه زملاؤه من استنكار لمسلكه ، فإن « توم » لم يبال بذلك كثيراً إزاء ما كان يملأ قلبه من سعادة أتاحها له حظه الحسن . . وما كاد يجلس فوق حافة المقعد حتى تحركت الفتاة مبتعدة عنه ، وهى تحرك رأسها إلى الوراء . . وبدأت الهمسات ، والغمزات تسرى فى جميع أنحاء الفصل ، ولكن « توم » جلس جامداً فى مكانه وقد اعتمد بذراعيه فوق الدرج الطويل المنخفض الموجود أمامه ، وهو يتظاهر بالقراءة فى كتابه .

وبعد قليل انصرف زملاؤه عن الاهتمام بأمره وارتفع طنين الاستذكار المألوف مرة أخرى . وعندئذ بدأ « توم » يختلس النظر إلى الفتاة . ولم يخف ذلك عليها ، فقلبت له شفتيها وأدارت رأسها عنه قرابة دقيقة . وعندما حولته نحوه بحذر ، وجدت أمامها (خوخة) . فدفعتها بعيداً عنها ، ولكن « توم » أعادها برفق إلى مكانها الأول ، فدفعتها بعيدا ولكن بنفور أقل ، فأعادها « توم » إلى مكانها بصبر ، فتركتها حيث هى . وعندئذ كتب « توم » على لوحة « أرجوك أن تأخذيها — فإن معى مزيدا من الخوخ » وتطلعت الفتاة إلى الكلمات ، ولكنها لم تأت بأية حركة . وبدأ الغلام يرسم شيئاً فوق لوحه وهو يخفيه بيده اليسرى . وقد عزفت الفتاة عن إبداء أى اهتمام بما يرسمه أول الأمر ، ولكن حب الاستطلاع البشرى لم يلبث أن تغلب عليها ، وإن بدا فى حركات لا تكاد تلحظ . . واستمر الغلام فى عمله

دون أن يفطن إلى هذه الحركات ، كما بدأت الفتـــاة محاولة لترى الرسم ، ولكن « توم » لم يبد أية حركة تدل على أنه لاحظ محاولاتها . وأخيراً استسلمت للإغراء وقالت بصوت هامس متردد :

— دعنى أره .

وكشف « توم » عن رسم كروكى لمنزل ، ينبعث من مدخنته خط متعرج من الدخان . وعندئذ تركز اهتمام الفتاة فى الرسم ونسيت كل شىء آخر . . . فعندما انتهى « توم » من عمله ، حدقت الفتاة فيه وهمست :

— إنه بديع ... ارسم رجلا .

ورسم الفنان الصغير رجلا فى الساحة الأمامية ... وتأملته الفتاة لحظة ، ثم همست :

— إنه رجل جميل ... والآن ارسمنى وأنا قادمة..

ورسم « توم » فتاة جميلة بيدها مروحة .. فقالت الفتاة :

— إنه رسم مدهش جداً .. كم أود لو عرفت كيف أرسم .

فهمس « توم » إن ذلك أمر سهل .. سوف أعلمك

— أوه ! أحقاً ؟ ومتى ؟

— عند الظهر .. هل تذهبين إلى المنزل لتناول طعام الغذاء ؟

— سأبقى إذا بقيت .

— حسناً .. إنها فكرة عظيمة .. ما اسمك ؟

— « بيكى ثاتشر » وما اسمك ؟ أوه ... إننى أعرفه . « توماس سوير »

— هذا هو الاسم الذى ينادوننى به .. ولكنهم يدعوننى « توم » فقط عندما يدللوننى . أما أنت فستنادينني باسم « توم » أليس كذلك ؟

— نعم .

وبدأ « توم » يكتب شيئاً على لوحه وهو يخفى الكلمات عن الفتاة

ولكنها توسلت إليه أن يدعها تقرأ ما يكتب . فقال « توم » :

— أوه ! ليس ما أكتبه شيئاً مذكورا

— بل إنه لا بد أن يكون شيئاً ذا بال

— كلا .. لا أظنك راغبة حقا فى رؤية ما أكتب

— نعم . . إننى راغبة فى ذلك كل الرغبة .. أرجوك أن تدعنى أقرأ .

— وهل ستفضحيننى ؟

— كلا .. لن أفعل .. ثق من ذلك ..

— لن تقولى لأحد طالما أنت على قيد الحياة ؟

— كلا .. لن أقول لأحد .. دعنى أقرأ ما كتبت

— أوه ! إنك لا تريدين أن تقرأيه .

— ما دمت تعاملنى على هذا المنوال ، فسأرى

ووضعت يدها الصغيرة فوق يده ، وأعقب ذلك شىء من الهرج. وكان « توم » يتظاهر بأنه يقاومها بقوة ، ولكنه ترك يده تنزلق شيئاً فشيئاً حتى كشف عن الكلمة التالية : « أحبك »

فقالت وهى تضربه على يده : أوه ياللك من شرير !

ولكن وجهها تخضب بحمرة الخجل ، وبدت عليها علامات السرور .

وفى تلك اللحظة الحاسمة ، أحس « توم » بيد تطبق على أذنه ، وتجذبه بقوة ، فاضطر إلى النهوض . وعلى هذا النحو ظل المعلم يجذبه حتى أجلسه على مقعده بينما انفجر التلاميذ يضحكون ويتغامزون . وظل المعلم يتأمل « توم » بنظرات يتطاير منها شرر الغضب عدة لحظات ، ثم استدار ومضى عنه ليجلس فوق عرشه المرتفع دون أن ينطق بكلمة واحدة . ورغم أن أذن « توم » كانت تؤلمه أشد الألم إلا أنه كان يشعر بسعادة غامرة . .

وعندما عادت الأمور إلى نصابها ، بذل « توم » جهدا صادقاً ليستذكر درسه ، ولكن الانفعال الذى استبد به كان شديداً ، فلم يستطع تركيز انتباهه .. فلما كانت حصة المطالعة أكثر من الخطا فى النطق . وعندما جاءت حصة الجغرافيا قلب البحيرات إلى جبال ، والجبال إلى أنهار ، والأنهار إلى قارات ، حتى عمت الفوضى الفصل من جديد . وفى حصة الهجاء راح المعلم يحقره بعبارات لاذعة وحينما ضاق به ذرعاً أوقفه أمام التلاميذ وانتزع منه ميدالية التفوق التى ظل يرتديها شهوراً طويلة منذ أن حصل على نسخة من الإنجيل زوراً وبهتانا .

الفصل السابع

مطاردة وفشل

كان « توم » كلما بذل جهدا لتركيز اهتمامه فى الكتاب الموضوع أمامه ازدادت أفكاره شروداً ..

ومن ثم فقد اضطر أخيراً إلى التخلى عن المحاولة وتنهد وتثاءب ، وقد خيل إليه أن (فسحة) الظهر لن تحين .. كان الهواء راكداً تماماً ، فلم تكن هناك نسمة تخفف من وطأة ذلك القيظ الشديد ، كما كان يوما يخيم عليه الخمول التام بشكل أنهك الأعصاب وجلب النعاس إلى الجفون . وهكذا كانت همهمة التلاميذ الخمسة والعشرين الموجودين فى الفصل هى الصوت الوحيد الذى يشعر الإنسان بأن هناك حياة ، رغم أن هذه الهمهمة كانت أشبه بطنين النحل . وعلى مبعدة كانت تلال « كارديف هيل » ترتفع بجوانبها العالية المكسوة بالخضرة الجميلة فى الهواء وقد انعكست عليها أشعة الشمس الحامية مُكْسِبةً إيّاها منظراً رائعاً خلاباً ، بينما راح عدد قليل من الطيور يسبح فى الفضاء وهو يرفرف بأجنحته فى كسل شديد . ولم يكن يُرى فى المنطقة كلها أحياء غير بضع بقرات كانت مستسلمة للنوم بدورها . . وأحس « توم » بثقل مرور الوقت . . كان أشد ما يكون لهفة على التحرر من قيود المدرسة ، أو أن يجد ما يفعله ليشغل به الوقت الباقى على مجيء (الفسحة) . . ومن ثم فقد وضع يده فى جيبه ، باحثا عن شيء يسليه . ولم يلبث أن تهلل وجهه ابتهاجا . وأخرج يده وقد أغلقها على علبة الكبسول .. وأزاح الغطاء ، ثم أمسك بالقرادة الموجودة بداخل العلبة ووضعها فوق الدرج الطويل الأملس . ويبدو أن الحشرة أحست بشيء غير قليل من الشكر لإطلاق سراحها ، ولكنها لم تتمتع بحريتها طويلا ، إذ ما أن بدأت

تنطلق حسبما تريد ، حتى أعادها « توم » إلى حيث وَضَعها أول الأمر ، مستعينا فى ذلك بطرف دبوس صغير ، وبذلك أرغم الحشرة على أن تسلك اتجاها جديداً .

كان صديق « توم » الصدوق يجلس بجواره ، وكان يعانى مثله أشد العناء من شدة الحر ، ولكنه ما كاد يرى القرادة حتى تنفس الصعداء ، وأيقن أنه وجد أخيراً الوسيلة الكفيلة بقطع الوقت ، ريثما يدق الناقوس مؤذنا بانتهاء الدراسة . . كان هذا الصديق هو « جو هاربر » . . ولقد كانت صداقة الغلامين أقوى من صلة القربى ، ولهذا ندر أن يفترقا فى السراء أو الضراء . وأخذ « جو » دبوساً من ياقة سترته وبدأ يعاون صديقه فى تدريب الحشرة السخيفة . . وسرعان ما أصبحت هذه التسلية مثار اهتمامهما الشديد . وبعد قليل قال « توم » : إننا ننافس أحدنا الآخر فى متابعة الحشرة ، مما يؤدى إلى عدم استمتاعنا باللعبة كما ينبغى . ثم جذب « توم » لوح « جو » ورسم فوق سطحه خطاً قسم اللوح إلى مستطيلين .

وقال : اصغ إلىّ . . طالما كانت القرادة فى المستطيل المواجه لك فإنك حر فى توجيهها كيفما تشاء ، أما إذا تركتها تعبر الخط لتدخل إلى مستطيلى فعليك أن تتركها وشأنها ، ما دمت أستطيع منعها من تخطى الحد الفاصل بيننا .

— حسناً . . فلنبدأ . .

وبعد قليل استطاعت الحشرة أن تفلت من « توم » ، فأخذ « جو » يطاردها فى منطقته إلى أن تمكنت أخيراً من عبور الخط مرة أخرى . ولقد حدث هذا التغيير فى القاعدة مرات عديدة . وهكذا بينما كان أحد الغلامين منصرفا تماما إلى ملاحقة الحشرة كيلا تفلت منـــه ، كان الغلام الثانى يراقبها عن كثب ، وقد انحنى الاثنان برأسيهما فوق اللوح ، وانصرفا عن كل شىء آخر فى الوجود . وأخيراً ، بدا أن الحظ قد حالف « جو »

فبقيت الحشرة فى منطقته . . ورغم المجهود العنيف الذى بذلته القرادة للفرار ، بسلوك هذا السبيل ، أو ذاك ، فقد أحفقت تماما ، وكأنما أثار ذلك اهتياجها مثلما أثار انفعال الغلامين ، إذ راحت تندفع هنـــا وهناك بجنون وفى كل محاولة ، كان « توم » يتحفز لا ستئناف المطاردة ولكن « جو » نجح فى التضييق على الحشرة وإرغامها على البقاء فى منطقته. وأخيراً لم يستطع « توم » احتمال الانتظار ، فقد كان الإغراء عنيفا أشد ما يكون العنف ، ومن ثم ، فقد مد يده ليشترك مع « جو » فى المطاردة ، فاستولى الغضب على « جو » لحظة وقال :

— « توم » دعها وشأنها .

— لقد أردت أن أبعث فيها قليلا من النشاط « يا جو » .

— كلا يـا سيدى . . ليس ذلك من العدالة فى شىء . . دعها وشأنها .

— قلت لك إننى أبعث فيها بعض النشاط .

— قلت لك اتركها وشأنها

— كلا . . لن أفعل !

— بل ستفعل — إنها فى منطقتى .

— اصغ إلىّ « يا جو هاربر » . . قرادةُ مَنْ هذه ؟

— لست أبالى من يكون صاحبها . . إنها فى منطقتى الآن ، فعليك أن تمسك عن لمسها .

— حسناً ، إننى لن أستجيب لقولك ، لأنها ملكى ، وسأفعل بها ما أشاء . . أو أموت !

وأحس « توم » بشىء ثقيل يسقط فوق كتفه كما أحس « جو » بنفس

الشيء ومضت دقيقتان قبل أن يتلاشى الغبار الذى تناثر من سترتى الغلامين بسبب اللطمتين اللتين هوت بهما يدا المعلم على كتفيهما . أما باقى التلاميذ ، فراحوا يراقبون هذا المنظر الفريد باهتمام شديد . لقدكان الغلامان «توم» و «جو» مستغرقين تماما فى لعبهما ومناقشتهما حتى أنهما لم ينتبها إلى ذلك الصمت الرهيب الذى ساد الفصل قبل أن يهبط المعلم من فوق عرشه ويتقدم منهما على أطراف أصابعه ، ثم يقف خلفهما فترة يشاهد خلالها ما كانا يفعلان ثم يتدخل لإنهاء الموقف بشكل حاسم !!

وعندما حان موعد انصراف المدرسة ظهراً بادر «توم» بالذهاب إلى «بيكى ثاتشر» وهمس فى أذنها :

ــ ارتدى قبعتك وتظاهرى بأنك منصرفة إلى المنزل ، وعندما تصلين إلى ناصية الطريق ، إنسحبى سراً من بين زميلاتك ، واسلكى الممر الجانبى ، ثم عودى ثانية . أما أنا ، فسأمضى فى الاتجاه المضاد ، ثم أعود أدراجى إلى هنا !

وهكذا سارت الفتاة مع مجموعة من التلميذات ، بينما سار «توم» مع بعض التلاميذ . وبعد قليل التقى الاثنان فى الطريق الجانبى ، وكرا عائدين إلى مبنى المدرسة ، دون أن يلتقيا بأحد ، فقد انصرف كل من كان بها . .

وجلسا معاً ، وقد وضعا لوحاً أمامهما ، وقدم «توم» لصديقته «بيكى» قطعة من الطباشير ، وأمسك يدها بيده ليرشدها ، وبعد لحظات كانت قد رسمت منظراً آخر مدهشاً للمنزل الذى رسمه «توم» فى الصباح . وعندما بدأ اهتمامها بالفن يضمحل ، انصرف الاثنان للحديث . .

وكان «توم» يشعر بسعادة غامرة .. سألها :

ــ هل تحبين الفئران ؟

ــ كلا .. إننى أكرهها .

— وأنا أيضاً أكره الجرذان الحية .. ولكنى أحب الفئران الميتة التى نستخدمها فى اللعب ، فنربط أحد قدميها بخيط ونديرها فى الهواء فوق رؤوسنا .

— مهما يكن ، أننى لا أهتم كثيراً بالفئران .. ولكنى أحب (اللبان) ..

— أوه .. أظنك على حق .. بودى لو كان معى شيء منه .

— أحقاً ؟ إن معى قليلا منه ، وسأجعلك تمضغه عدة دقائق ، لكن يجب عليك أن تعيده إلىّ .

وهكذا تبادلا مضغ قطعة اللادن (اللبان) ، وهما يؤرجحان أرجلهما ويشعران بفيض من السعادة .

سألها « توم » : هل ذهبت إلى « السيرك » فى أحد الأيام ؟

— نعم ، وسيصحبنى أبى إليه مرة أخرى عما قريب إذا ظللت فتاة عاقلة .. وهكذا قال أبى !

— أما أنا فقد ذهبت إلى السيرك ثلاث أو أربع مرات — بل مرات كثيرة .. وليس هناك أى تشابه بين الكنيسة وبينه ، فإن السيرك يظل ممتلئاً بالحركة طوال الوقت ! ولسوف أصبح بهلواناً عندما أصبح رجلا .

— أوه .. ! أحقاً ؟ هذا جميل .. فإن جميع البهلوانات يتمتعون بمظهر جذاب فى ثيابهم المزركشة !

— نعم .. إنهم لكذلك .. كما أنهم يحصلون على نقود كثيرة — فإن « بن روجرز » يقول إن أكثرهم يحصلون على دولار فى اليوم .. أخبرينى يا « بيكى » ألم يسبق لك أن خطبت ؟

— ما معنى ذلك ؟

— أعنى خطبت توطئة للزواج

— كلا .

— وهل تحبين ذلك ؟

أظن ذلك .. لا أعلم .. لكن ماذا تشبه الخطوبة ؟

— تشبه ؟ أنها لا تشبه شيئاً .. يكفى أن تقولى لغلام إنك لن تقبلى أحدا غيره ، مطلقاً ، مطلقاً ، مطلقاً . ثم تقبلان بعضكما .. هذا هو كل شيء .. إن فى استطاعة أى شخص أن يفعل ذلك .

— يقبل ؟ ولماذا التقبيل ؟

— حسناً . . ذلك لأن .. لأن — حسناً . . إنهم يفعلون ذلك دائماً

— كل إنسان ؟

— نعم . . كل إنسان يحب إنساناً آخر . . هل تذكرين ما كتبته فوق اللوح ؟

— نعم .. نعم

— ماذا كان ؟

— لن أقوله لك

— إذن هل أقوله أنا لك ؟

— نعم .. نعم .. ولكن فى وقت آخر

— كلا .. بل الآن

— كلا .. ليس الآن .. غداً

— اوه .. الآن . . الآن . . ارجوك يا « بيكى » . . سأهمس بها . . سأهمس بها بصوت خافت جداً .

فبدا التردد على « بيكى » واعتبر « توم » سكوتها دليلا على القبول .

فهمس بالكلمة فى صوت رقيق جداً بعد أن قرب شفتيه إلى أذنيها . . ثم أضاف :

— والآن اهمسى فى أذنى بنفس الكلمة ..

فتمنعت لحظة ثم قالت : أدر رأسك بحيث لا تستطيع أن ترى وجهى وعندئذ سأنطق بها . ولكن إياك أن تخبر أحداً بذلك . . أليس كذلك يا « توم » ؟ إنك لن تفعل . .

— كلا .. بالطبع .. لن أقول لأحد .. والآن هيا يا « بيكى »

وأدار وجهه بعيدا ، فمالت فوقه بوجل حتى لفحت أنفاسها خصلات شعره ، وهمست ..

— أحب .. أحبك !

ثم وثبت واقفة وراحت تعدو حول المقـــاعد والأدراج و « توم » يلاحقها ، وأخيراً لاذت بأحد أركان الغرفة وقد غطت وجهها بميدعتها (المريلة) البيضاء الصغيرة ، فأحاط « توم » عنقها بذراعيه وقال بضراعة :

— لقد انتهى كل شيء الآن يا « بيكى » ولم يبق غير القبلة . . فلا تخافى منها — فإنها ليست شيئاً مذكورا .. أرجوك يا « بيكى »

وراح يجذب (المريلة) وذراعيها . وبعد قليل بدأت تستسلم ، فسقط ذراعاها إلى جانبيها . وبدا وجهها شديدالتوهج من فرط ما ناضلت .. وقبل « توم » شفتيها الحمراوين وقال :

— أما وقد انتهى كل شيء الآن يا « بيكى » فيجب عليك أن تعلمى أنه منذ الآن لا يجوز لك أن تحبي أحداً غيرى ، وألا تتزوجى أحداً غيرى .. مطلقاً .. وإلى الأبد .. فهل ستفعلين ؟

— نعم ... لن أحب أحداً غيرك يا « توم » ، ولن أتزوج أحداً غيرك ، وأنت أيضاً لن تتزوج أية فتاة غيرى ..

بالتأكيد .. بالطبع .. فإن هذا هو واجبى الآن ، وعليك منذ الآن أن تسيرى معى عند حضورك إلى المدرسة وانصرافك منها — بشرط ألا يرانا أحد — وعليك أيضاً أن تختارينى شريكا ، وعلىّ أن أختارك شريكة، ذلك هو ديدن كل مخطوبين !

— هذا شىء جميل جدا . . إننى لم أسمع به من قبل

— أوه ؟ إن حياتنا ستصبح شديدة المرح والبهجة منذ الآن . . إننى و « آمى لورنس » . . .

واتسعت حدقتا الفتاة فى تلك اللحظة ، فأدرك « توم » أنه ارتكب خطأً فاحشا ، فأمسك لسانه ولكن بعد فوات الأوان .

— أوه يا « توم » ؟ إذن فأنا لست أول من خطبتها ؟

وانفجرت باكية . فقال « توم » : لا تبكى يا « بيكى » .. إننى لم أعد أهتم بها إطلاقا .

— بل تهتم بها — أنت تعرف أنك تهتم بها .

وحاول « توم » أن يحيط عنقها بذراعيه ، ولكنها دفعته بعيداً عنها وأدارت وجهها إلى الجدار ثم استمرت فى نشيجها . وحاول « توم » مرة أخرى أن يسترضيها وهو يخاطبها بكلمات لطيفة ، ولكنها نفرت منه ثانية . وعندئذ ثارت كبرياؤه ، فمشى مبتعدا وخرج من الغرفة ، ولكنه وقف فى الخارج وقد تملكه القلق والضيق ، وهو لا يفتأ يتطلع إلى الباب بين الحين والحين آملا أن تشعر الفتاة بالندم ، وتأتى إليه ، ولكنها لم تفعل . وعندئذ بدأ يشعر بأنه أخطأ ، ونشبت فى أعماقه معركة حامية بين الكبرياء والعقل، ولم يلبث العقل أن تغلب ، فعاد أدراجه إلى الغرفة فوجدها لا تزال واقفة حيث تركها فى ركن الغرفة وهى تبكى ووجهها إلى الجدار . وتمزق قلب « توم » ، وتقدم منها ، ووقف أمامها دون أن يدرى كيف يعالج الموقف.. وأخيراً قال بتردد .

— «بيكى» .. إننى لا أهتم بأى شخص غيرك .

فلم تجب .. واستمرت فى بكائها .

فقال بضراعة : « بيكى » .. «بيكى» .. ألا تقولين شيئا ؟

واستمرت فى البكاء .

وأخرج «توم» أثمن شىء معه، وكان عبارة عن مقبض باب من النحاس اللامع وقدمه لها وهو يقول :

— أرجوك يا «بيكى» .. خذى هذه الهدية

فأخذتها منه وألقتها على الأرض . وفى التو انطلق «توم» خارجا من الغرفة ، ثم من المدرسة ، وارتقى التل ومضى مبتعداً ، ولم يعد إلى المدرسة فى ذلك اليوم .. أما «بيكى» فبدأت ترتاب فى الأمر .. وأسرعت إلى الباب تنظر . ولكنها لم تجد «لتوم» أثراً ، فركضت إلى الملعب . ولكنها لم تجده هناك فنادته .

— « توم » ! تعال ! «توم» !

وأصاخت السمع ولكنها لم تسمع أية إجابة . ولم تجد رفاقاً غير الصمت والوحدة ، فجلست ، واستأنفت البكاء وهى تنحى على نفسها باللائمة .. وبعد قليل بدأت أفواج التلميذات والتلاميذ تصل إلى المدرسة ، فاضطرت إلى إخفاء أحزانها ، وتهدئة قلبها المحطم . والمضى فى الدراسة بعقل شارد ونفس متألمة . وبغير أن تجد من بين أترابها من تستطيع أن تركن إليها لتبثها أحزانها وأشجانها ..

الفصل الثامن

القرصان الشجاع !

راح «توم» يسلك هذا الطريق وذلك إلى أن ابتعد عن الشارع الذى يجتازه التلاميذ عند عودتهم إلى المدرسة .. ثم هدأ من سرعته .. وبعد نصف ساعة كان يختفى وراء قصر «دوجلاس» المشيد فوق رابية «كارديف هيل» حيث احتجبت المدرسة عن أنظاره ، ودخل غابة كثيفة ومضى يمشى على غير هدى حتى بلغ قلبها فجلس فوق الحشائش تحت أغصان شجرة بلوط ضخمة .!. كان السكون سا كنا تماما ، إذ يبدو أن شدة قيظ ذلك النهار جعلت الطيور تعزف عن التغريد ... بينما كان صوت مطرقة أحد قاطعى الخشب يرتفع بين حين وآخر من بعد ، ويبدو أن هذا الصوت أيضاً كان يزيد من شدة وطأة السكون وإحساس « توم » بالوحدة .. كان الغلام غارقا فى الحزن ، ولهذا كانت إحساساته متلائمة تماما مع الجو الراكد الذى يحيط به .. وطالت جلسته ، وطال معها تفكيره العميق .. ولقد خيل إليه أن الحياة ليست إلا سلسلة متصلة من المتاعب مهما بدت باسمة فى بعض . . الأحايين .. وأحس بأنه يحسد أولئك الذين ماتوا ، فقد دار بخلده أن الموت راحة أبدية لا تتخللها متاعب ولا أحزان ، حيث يرقد الإنسان وقد أغلقت عيناه إلى الأبد ،وهكذا يتخلص الإنسان نهائيا من المتاعب والأحزان .. وخطر له أنه كان يفضل أن يموت لو أن سجله فى مدرسة الأحد كان نظيفا، ولكنه لم يكن كذلك .. ثم تذكر «بيكى» فراح يتساءل : ماذا فعلت بها ماذا يغضبها ؟ لا شىء ! » ... لقد أراد لها كل الخير . ولكنها عاملته ككلب.. ولا شك أنها سوف تشعر بالأسف فى أحد الأيام — وربما حدث ذلك

بعد فوات الأوان ، . لكن بالله . . ليته يستطيع أن يموت ولو لفترة قصيرة !

ولكن القلب الغض لا يمكن أن يستسلم لليأس أمداً طويلا ، إذ ما لبث « توم » أن بدأ ينساب ثانية فى خضم الحياة العادية . . وأخذ يتساءل : ماذا يحدث إذا أدار لها ظهره الآن واختفى بطريقة غامضة ؟ ماذا يحدث لو أنه رحل — رحل إلى بلاد غير معروفة عبر البحار — بغير أن يعود مرة أخرى إلى هذا البلد ! ماذا سيكون شعورها عندئذ ! وعاودته فكرة العمل كبهلوان ، ولكنها ملأته حنقا وغيظاً ، لأن الضحك والمرح أمران لا يتلاءمان مطلقا مع شخص يستشعر الكآبة التى يخلفها وراءه جب جريح ! كلا ، سوف يصبح جنديا ، ويعود بعد سنوات طويلة وهو منهوك القوى من فرط المعارك التى خاضها .. كلا ، أيضا .. إنه من الخير له أن ينضم إلى الهنود الحمر ويصطاد « سيد قشطه » ثم يمضى فى طريق الحرب بين سلاسل الجبال والسهول الشاسعة بالشرق الأقصى ، فإذا ما انقضت فترة طويلة من الزمن أصبح زعيما كبيرا ، يتزين بالريش ، ويطلى وجهه وبدنه بطلاء غريب . ثم تمضى الأيام ، ويعود ذات صباح إلى مدرسة الأحد . ليطلق صيحة الحرب المألوفة ، فيتأمله رفاقه القدامى بحسد . . لكن لا . . إن ذلك ليس هو كل ما يطمع فيه .. ولربما كان من الأفضل له أن يصبح قرصانا ! نعم . قرصانا ! لقد أصبح مستقبله واضحاً الآن .. سوف يصبح اسمه ملء الأسماع فى الدنيا كلها ، فإذا ذكر ارتعد الناس خوفا !... ولسوف يكتسح البحار العاتية فى سفينته الطويلة المنخفضة « روح العاصفة » ، وعلمه المخيف يرفرف فوق مقدمها ! فإذا ما بلغ أوج شهرته ، عاد فجأة إلى القرية القديمة ، ومضى إلى كنيستها وقد لفحت أشعة الشمس وجهه وبدا فى زيه الفريد من القطيفة السوداء إنساناً ترتعد فرائص الناس من رؤيته ! يومذاك سوف يشير الجميع إليه باحترام ويتهامسون قائلين هاهو « توم سوير » القرصان ! — إنه المنتقم الأسود الذى يثير الفزع فى قلوب القراصنة الأسبان !

وهز الغلام رأسه دلالة على أنه قد فر من تقرير مصيره .. وقرر أن يهرب من المنزل ليحقق هذا الحلم الرائع .. وقرر أن يبادر بتنفيذ هذا القرار فى صباح اليوم التالى . ومن ثم فقد أصبح لزاما عليه أن يتهيأ لذلك منذ الآن . فمشى من فوره إلى كتلة خشب قريبة ، وبدأ يحفر أسفل أحد طرفيها بالمدية التى أهدتها « مارى » له ، وسرعان ما ارتطم سن المدية بقطعة خشب، فأدخل يده فى الفجوة وراح يردد التعويذة التالية :

— تعال يا من لست هنا ! وليبق هنا ما هو موجود من قبل !

ثم أزال الوحل ، فكشف عن لوح متفتت من شجرة صنوبر ؛ فرفعه من مكانه ، فإذا بأسفله مخبأ كان الغلام يحتفظ فيه بكنوزه الخاصة ، وبداخل المخبأ رأى « توم » كرة صغيرة من الرخام . فتملكته دهشة شديدة ، وحك رأسه بيده ، وقد بدت عليه الحيرة وقال :

— حسنا . إن ذلك أمر يحار الإنسان فى تعليله .

ودفع قطعة الرخام بعيداً عنه باحتقار ، وراح يفكر .. ولا عجب ، فقد فشلت بدعته ، تلك البدعة التى كان هو وزملاؤه يعتقدون اعتقاداً جازماً أنها لا يمكن أن تفشل فى أى وقت من الأوقات . لقد كانوا يؤمنون بأنك إذا دفنت قطعة من الرخام وأنت تردد تعويذة معينة ، وتركتها فى إمكانها أسبوعين ثم عدت فنبشت المخبأ وأنت تردد التعويذة التى رددها هو منذ قليل ، فإنك تجد جميع قطع الرخام التى فقدتها فى مناسبات أخرى وقد تجمعت فى هذا المخبأ مهما تباعدت المسافة بينها !! ولكن ها هو الإيمان ينهار من أساسه، فكثيراً ما سمع بنجاح هذه البدعة ، ولكنه لم يسمع أنها أخفقت مرة واحدة ولم يخطر بباله أنه سبق له أن جربها مرات عديدة وأنه كان فى كل مرة يفشل فى العثور على المكان الذى أخفى فيه كنوزه !! .. وراح يفكر فى الأمر فترة من الوقت وأخيراً قرر أنه من المحقق أن ساحرة مجهولة تدخلت فى الأمر وأفسدت التعويذه . وظن أنه يستطيع أن يستوثق

من صحة هذا الاستنتاج ، ومن ثم راح يبحث حوله حتى عثر على منطقة رملية صغيرة بها منخفض على شكل نفق فانبطح على وجهه ، ووضع فمه قريباً من المنخفض وصاح :

— « دودلباج » « دودلباج » ، أخبرنى بما أريد أن أعرفه ! « دودلباج » « دودلباج أخبرنى بما أريد أن أعرفه !

وفى التو اهتز الرمل ، ولم تلبث أن برزت من داخله حشرة سوداء صغيرة أخذت تهتز لحظات ، ثم تملكها الفزع فغاصت فى الرمل ثانية واختفت عن عينى « توم » .

قال « توم » لنفسه : إن الشيطان لم يرد على ندائى . لاريب أن ساحرة أفسدت كل شىء . ولقد كنت واثقا من ذلك .

كان « توم » يعلم أنه من العبث أن يحاول منازلة الساحرات ، ومن ثم فقد استسلم يائسا . بيد أنه خطر له أن يستعيد كرة الرخام الصغيرة التى ألقاها بعيداً ، فبدأ يبحث عنها بصبر ، ولكنه لم يستطع العثور عليها ، فعاد أدراجه إلى مخبأه ، واتخذ نفس الموقف الذى كان عليه حين قذف بقطعة الرخام ، ثم أخرج قطعة أخرى من جيبه ورماها فى نفس الاتجـــاه وهو يقول :

— اذهبي وابحثى عن أختك !

وراقب قطعة الرخام وهى تسقط ، ثم مضى إلى مكانها ، وراح يتطلع هنا وهناك ، ولكنه لم يعثر لها على أثر ، فكرر المحاولة مرتين . ونجحت المحاولة الأخيرة ، فقد عثر على قطعتى الرخام متقاربتين .

وفى تلك اللحظة سمع « توم » صوت نفير من ذلك النوع الذى يلعب به الأطفال ، يأتى من بعيد ، وفى التو خلع « توم » سترته وسرواله ، وحول (حمالته) إلى حزام ، ثم تقدم من بعض الحشائش الملاصقة لكتلة الخشب ، فأزاحها من مكانها ، وكشف عن سهم وقوس ، وسيف من الخشب وبوق

من الصفيح . وفى لحظة التقط هذه الأشياء جميعاً ، وانطلق يركض وهو حافى القدمين ، وأطراف قميصه تتطاير فى الهواء .. ولم يلبث أن توقف عن الركض أسفل شجرة ضخمة ، ونفخ فى نفيره ليجيب على النداء الذى سمعه . وبعدئذ أخذ يسير على أطراف أصابعه ، وقد بدا عليه التحفز وهو يتطلع إلى مصدر الصوت هناك .. ثم قال بحذر كأنما يحذّر زميلا وهميا :

— قف أيها الرجل المرح ! ابق فى الخفاء حتى أطلق نفيرى !

وفى هذه اللحظة ظهر « جو هاربر » ، وهو يرتدى زياً شبيهاً بذلك الذى يرتديه « توم » ويتسلح بأسلحة مماثلة .. فصاح « توم » :

— قف ! من ذلك الجرىء الذى يجرؤ على القدوم إلى « غابة شيروود » بغير إذنى !

— إنه « جاى أوف جويسبورن » ! ولا حاجة به للحصول على جواز المرور من أى إنسان .. مَنْ أنت ؟!

فقاطعه « توم » قائلا : كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟

كانا يتكلمان حسبما (قرآه فى الكتاب)

— من أنت حتى تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟

— أنا ؟ أنا « روبين هود » ، كما ستعرف بعد لحظات .

— إذن فأنت طريد القانون المشهور ؟ قف حيث أنت ... إننى أتحداك !

واستل الاثنان سيفيهما الخشبيين ، وألقيا ببقية أمتعتهما على الأرض ، ثم اتخذا الأهبة للمبارزة .

وسرعان ما اشتبكا فى قتال جندى حذر ، واندفعا يتبارزان

بقوة حتى لهثت أنفاسهما ، وانسال العرق فوق جبهتيهما . وبعد قليل صاح « توم » :

— استسلم لى ! . استسلم . . لماذا لا تركع على ركبتيك ؟

— لن أفعل ! لماذا لا تركع أنت ؟ إنك لست صنوا لى ..

— أحقا ؟ ولكنى لا أستطيع الاستسلام لك لأن ذلك يغاير ما جاء فى الكتاب . . فالكتاب يقول « وبطعنة واحـــدة قتل جاى أوف جويسبورن التعس » ، فعليك أن تستدير لى حتى أغمد حسامى فى ظهرك .

ولم يكن ثمة مفر من النزول على حكم ما جاء فى الكتاب ، فاستدار « جو » . وتلقى الطعنة الوهمية ثم سقط على الأرض .

وقال « جو » وهو ينهض واقفاً : والآن يجدر بك أن تدعنى أقتلك ! أظن أن ذلك هو ما يقتضيه العدل .

— ولكنى لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لأنه لا يتفق مع ما جاء بالكتاب .

— مهما يكن .. من النذالة ألا تدعنى أنتقد عليك ! !

— اصغ إلىّ « ياجو » يمكنك أن تلعب دور « فريار تاك » أو « ماش » ابن صاحب الطاحون ، وأن تشتبك معى فى مبارزة ، أو أن ألعب أنا دور عمدة « نوتنجهام » وتلعب أنت دور « روبن هود » فترة قصيرة ، فبهذا وحده تستطيع أن تقتلنى ... هكذا قالت الكتب ! !

وقبل « جو » هذا الحل ، وراح الغلامان يتبارزان ، وبعدئذ عاد « توم » يتقمص شخصية « روبن هود » الذى تركته الراهبة الخائنة يفقد قواه بسبب الدم الذى نزف من جرحه ! ! وأخيرا ، قام « جو » بدور جماعة من الخارجين على القانون ، جذبوا « روبين هود » ، وقدموا له قوسه

وسهمه وهم ينتحبون . . وأمسك « توم » بالقوس والسهم فى إعياء وقال :
« يجب أن تدفنوا « روبين هود » التعس فى المكان الذى يسقط فيه السهم
تحت الشجرة الخضراء » . . . ثم أطلق السهم ، وسقط فوق ظهره ثم
أسلم الروح !! . . وبعد لحظات ، انبعث واقفاً وقد بدا عليه المرح
الشديد .

وارتدى الغلامان ثيابهما ، وحملا أدواتهما ، وانطلقا فى سبيلهما وهما
يأسفان لأنه لم يعد يوجد فى هذا العصر خارجون على القانون ، ويتساءلان
عما فعلته المدنية العصرية لتستعيض به عن فقدهم !! وقالا انهما يتمنيان لو
أمكنهما أن يصبحا طريدى قانون ولو لمدة عام واحد فى غابة شيروود ،
وأنهما يفضلان ذلك على أن يصبحا رئيسى الولايات المتحدة إلى الأبد !!

الفصل التاسع

مأساة فى المقابر

أمرت العمة «بولى» «توم» و «سيدنى» بأن يأويا إلى فراشهما فى الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة . وبعد أن أدى الغلامان صلاتهما، صعدا إلى الفراش وسرعان ماراح «سيدنى» فى سبات عميق . أما «توم» فقد ظل مستيقظاً وقد تملكه الضجر الشديد .. وأخذ الوقت يمضى بتثاقل شديد حتى خيل للغلام أن النهار يوشك أن يطلع على الأحياء ، ولكنه مالبث أن سمع الساعة تدق العاشرة ! فتملكه اليأس ... كان فى استطاعته أن يتقلب ويتململ حسبما كانت تقتضى حالة أعصابه المتوترة ، ولكنه خشى أن يوقظ «سيدنى» إن فعل ذلك . ومن ثم فقد لاذ بالهدوء وراح يحملق فى الظلام .. كان كل شىء ساكناً بشكل يثير الأعصاب . وبعد قليل سمع «توم» ضوضاء خافتة وأصوات مبهمة اقشعر لها جسده : كما بدد السكونَ نعيقُ بومة بعيدة ، فانتفض «توم» — وأدرك أن شخصاً مامن سكان القرية سيموت قريباً !! .. فازداد فزعاً . وبعد قليل بدأ النعاس يستولى عليه رغماً عنه .. ودقت الساعة الحادية عشرة ، ولكنه لم يسمعها : وبعد قليل ارتفع من الخارج صوت أشبه بمواء القطط ، ثم فُتحت نافذة الجيران ، وأخذ الجار ينهر القطة ، ثم ألقى بزجاجة فى اتجاه المواء، فارتطمت بسياج منزل العمة «بولى» ، وتحطمت ، وعندئذ تنبه «توم» . وبعد دقيقة واحدة ، ارتدى ثيابه ، وتسلل من النافذة، وأطلق مواء مشابها .. ثم تسلق السياج وهبط إلى الأرض فألفى «هاكلبرى فين» فى انتظاره وهو يحمل قطته الميتة فى يده ! . ومشى الغلامان ، وسرعان ما ابتلعهما الظلام .. وبعد نصف ساعة كانا قد وصلا إلى السياج المتهدم الذى يحيط بمقابر المدينة !

كانت المقابر (جبّـانة) من الطراز الغربي العتيق ، أنشئت فوق تل يبعد ميلا ونصف ميل عن القرية ، ولها سياج عريض مالت بعض أجزائه إلى الداخل وبعضها الآخر إلى الخارج ، ولـكن لم يـكن به جزء واحد مستقيما وكانت الأعشاب والحشائش تملأ كل مكان بالجبانة . أما المقابر نفسها فقد كانت أبنية متـداعية طمس الزمـان ما سُجـّل على شواهدها من أسماء الموتى .

وكانت نسمة خفيفة من الريح تهب في تلك اللحظة فتحركت أغصان الأشجار مُحدثة صوتا غامضاً جعـــل « توم » يخشى ان يـكون هذا الصوت صوت أرواح الموتى تحتج على انتهاكهما حرمتها..وتحدث الغلامان أحدهما مع الآخر همساً لأن جدية الوقت والمكان كانت تستلزم ذلك . كما أن الهدوء المقبض يثير أعصابهما . وبعد قليل استطاعا أن يعثرا على كومة التراب التي كدست حديثا ، فاحتجبا وراء ثلاث شجرات ضخمة على مبعدة أقدام قليلة من القبر .

وانتظرا صامتين فترة خيل إليهما أنها دهر طويل .. ثم مزق السكون نعيق بومة قريبة فانتفض الغلامان ، وبدأت الوساوس تساور « توم » ، وأيقن أن الموقف يستلزم الـكلام ، ومن ثم قال هامساً :

— « هاك » ، هل تظن أن الموتى لا يرتاحون إلى وجودنا هنا ؟

فهمس (ها كلبرى) بدوره : لست أعلم ولكنني أعتقد أنهم لا يرتاحون إلى وجودنا

— وأنا أيضا أوافقك على هذا الراى

وساد الصمت مرة أخرى بين الغلامين .. وبعد قليل همس « توم »

— أخبرني يا « هاك » — هل تظن أن « هوس ويلياmز » الميت يسمعنا نتحدث

— بالتأكيد .. على الأقل ان روحه تسمعنا

فقال « توم » بعد صمت قصير :

— بودى لو أننى قلت « مستر ويليامز » ، ولكننى لم أقصد إهانته ، فإن كل شخص يدعوه « هوس »

— إن الإنسان لا يدقق كثيراً عند ما يتحدث عن الأموات يا « توم ».

واكتفى « توم » بهذا الرد ، ولاذ الغلامان بالصمت فترة أخرى ، ولكن « توم » لم يلبث أن قبض على ذراع زميله بعنف وهمس :

— صه .

فهتف « هاكلبرى » وهو يتشبث بذراع زميله وقد أخذ قلباهما يطرقان بعنف :

— ماهذا يا « توم » ؟

— صه . لقد تكرر ثانية . ألم تسمعه ؟

— إننى . . .

— ها هو ، إصغ إليه . ألا تسمعه ؟

— يا إلهى يا « توم » . . إنهم قادمون ! إنهم قادمون بكل تأكيد . . ماذا نفعل ؟

— لا أعلم . هل تظن أنهم سيروننا ؟

— بالطبع يا « توم » . . إن فى استطاعتهم أن يبصروا فى الظلام كالقطط . ليتنا لم نحضر .

— أوه . . لا تخف . فأكبر ظنى أنهم لن يزعجونا ، لأننا لا نأتى أمراً إدًا . . إلزم الهدوء الكامل ، فقد لا يلاحظوننا على الإطلاق .

— سأحاول يا « توم » . . ولكن ، يا إلهى . . إننى أنتفض بشدة :

— اصغ !

وأطرق الغلامان برأسيهما معاً وحبسا أنفاسهما ، فسمعاهمهمة أصوات آتية من الجانب الآخر من المقابر : وعندئذ همس « توم » :

— انظر ؛ هل ترى ؟ ما هذا ؟

— اواه يا « توم » ، إنه لشيطان مريع

رأى الغلامان أشباحاً مقبلة فى الظلام ، وكان أحدها يحمل مصباحاً عتيقاً يتأرجح أثناء سيره

وهمس « هاكلبرى » فى أذن « توم » : من المحقق انها الشياطين .. إنهم ثلاثة .. لقد هلكنا يا « توم » .. هل تستطيع الصلاة ؟

— سأحاول ، لكن لا تخف هكذا ، فإنها لن تؤذينا و ..

— صه .. !

— ما هذا « ياهاك »

— إنهم بشر . على الأقل واحد منهم آدمى .. إننى أسمع صوت « ماف بوتر » الكهل بين أصواتهم .

— أحقا ؟ هل أنت واثق من ذلك ؟

— أراهن على أن هذا صوته . لا تتحرك . . . إن « بوتر » ضعيف البصر ولن يستطيع رؤيتنا . ثم إنه مخمور كالعادة . . يا له من كهل عربيد!

— حسناً . سألزم الهدوء . . آه . ها هم قادمون ، إنهم يسيرون ببطء، ولكنهم يسرعون الآن . . ثم ها هم يبطئون مرة أخرى ، ويعودون إلى الإسراع من جديد . . يا إلهى ! إنى أعرف واحداً منهم يا « هاك » . . إنه « إنجان جو »

— هذا صحيح . . إنه ذلك السفاح الشرير . . ليتهم كانوا شياطين . . لأشد ما أعجب ما الذى جاء بهم إلى هنا ؟ .

وكف الغلامان عن كل همس ، فقد وصل الرجال الثلاثة إلى القبر ووقفوا على مبعدة ثلاثة أقدام من مخبأ الغلامين .

وقال الصوت الثالث ، وكان صاحبه هو الذى يحمل المصباح ، ولم يلبث الغلامان أن عرفا فيه « الدكتور روبنسون » الشاب .

— ها هو قبره ! !

كان « بوتر » و « انجان » يجران عربة يد خشبية بها حبـل ومجرفتان ، فوضعا حملها على الأرض وراحا ينبشان القبر . ووضع الطبيب المصباح عنـد رأس القبر ، وجلس وظهره إلى إحـدى الأشجار التى اختبأ الغلامان خلفها بحيث لم تكن المسافة التى تفصلهما عنـه تزيد على أشبار قليلة .

وقال الطبيب فى صوت خافت : أسرعا يا رجلين ! فقد يظهر القمر فى أية لحظة .

وأومأ الرجـلان برأسيهما ، ومضيا فى الحفر ، ومضت فترة لم يكن يسمع فيها غير صوت المجرفين وهما يحملان الطين والحصى ويلقيان به بعيداً محدثين همهمة بغيضة ، وأخيراً ارتطم أحد المجرافين بالتابوت محدثاً صوتاً مخيفاً ! وبعد دقيقة أخرج الرجلان التابوت ووضعاه فوق الأرض . ثم رفعا الغطاء بمجرفيهما . وأخرجا جثة الميت وألقيا بها على الأرض فى خشونة . وفى تلك اللحظة برز القمر وراء السحب فسقطت أشعته على الوجه الجامد .. وأسرع الرجلان يعدان عربة ، ووضعا الجثة فوقها ، وغطياها بغطاء من الصوف ، ثم ثبتاها فى مكانها بالحبل . وأخذ « بوتر » مدية من جيبه قطع بها طرف الحبل ، ثم قال :

— أما وقـد انتهينا من كل شىء يا « دكتور » ، فعليك أن تعطينا خمسة دولارات أخرى وإلا فستبقى الجثة هنا . وقال « انجان » : هذا صحيح !

فقال الدكتور : ما هذا ؟ لقد طلبتما أجركما مقدما ، فدفعته لكما .

فقال « انجان جو » : نعم وفعلت أكثر من ذلك !

وتقدم « انجان » من الطبيب الذى كان قد انبعث واقفاً فى تلك الأثناء وأردف :

— منذ خمسة أعوام طردتنى من مطبخ أبيك عندما جئت ذات ليلة أطلب شيئاً أطعم به ، وقلت إننى لم آت لغرض شريف ، وعندما أقسمت أننى سوف أنتقم منك ، ألقى أبوك بى فى السجن بتهمة التشرد ، فهل تظن أنى نسيت ؟ إن دم « انجان » لا يزال يجرى فى عروقى . . وها أنت الآن فى قبضتى ، ويجب أن تصفى حسابك معى . . هل فهمت ؟ !

وراح « انجان » يهدد الطبيب ملوحاً بقبضة يده فى وجهه ، وفى التو سدد الطبيب لكمة ساحقة إلى فك « انجان » ألقته على الأرض ، فألقى « بوتر » بمديته فوق الأرض وصاح :

— كفى يا هذا . . لا تضرب زميلى ! .

وفى اللحظة التالية انقض « بوتر » على الطبيب والتحم الاثنان فى معركة حامية ، وفى سرعة خاطفة وثب « انجان » واقفاً على قدميه ، وقد تمثل الشر فى عينيه ، والتقط مدية « بوتر » ، ثم بدأ يزحف كالهرة المتنمرة وهو يدور حول المتقاتلين مترقباً الفرصة التى تمكنه من إغماد المدية فى قلب الطبيب . وفى تلك اللحظة استطاع الطبيب ان يتخلص من قبضة « بوتر » وأسرع لحمل الدعامة الرئيسية فى قبر « ويليامز » ثم أهوى بها على « بوتر » فسقط الرجل على الأرض ! ! عند ذاك رأى « انجان » فرصته سانحة فأغمد المدية حتى مقبضها فى صدر الشاب . . فترنح هذا ، وسقط فوق « بوتر » مُغرقاً إيّاه فى الدم . وفى اللحظة التالية حجبت السحب القمر . وكان الغلامان قد ركبهما الفزع الشديد ، فاندفعا يركضان بجنون بعيدا عن ذلك المنظر المريع .

وعندما برز القمر من خلف السحب مرة أخرى ، كان « انجان جو »

يقف فوق الجريحين وهو يفكر . . وأخذ الطبيب يهذى بعض الوقت ، ثم لم يلبث أن شهق شهقة قوية ، وفاضت روحه ، بينما وقف « انجان » يقول لقد صفيت حسابى معك . . عليك اللعنة ! .

ثم سرق ما كان القتيل يحمل من مال ، وبعدئذ وضع المدية فى يد « بوتر » المفتوحة ، وجلس فوق التابوت المفتوح وهو يفكر تفكيراً عميقا . . ومضت ثلاث دقائق ، فأربع ، ثم خمس ، وعندئذ بدأ « بوتر » يتململ ويتأوه . وأطبقت يده على المدية ، فرفعها وتطلع إليها ، ثم تركها تسقط وهو يرتعش .

واستوى « بوتر » جالساً وهو يدفع جثة الطبيب بعيداً عنه ، وحدق فيها ، ثم فيما حوله وهو يحس بدوار شديد . . وسرعان ما التقت عيناه بعينى « جو » .

قال : يا إلهى ! كيف حدث ذلك يا « جو » ؟ .

فأجاب « جو » بغير أن يتحرك : إنه عمل قذر . . لماذا فعلت ذلك ؟

— أنا ! إننى لم أرتكب هذه الجريمة ! .

إصغ إلىّ ! إن مثل هذا القول لن يجد مَنْ يصدقه .

فانتفض « بوتر » وامتقع لونه . . ثم قال :

— كنت أظن أننى لست مخموراً ، فإننى لم أقرب الخمر هذه الليلة ، ولكن يبدو أن رأسى ما زال متأثراً بالخمر بشكل أسوأ مما كان عليه عندما جئنا إلى هنا . . الحق أننى مضطرب أشد الاضطراب ، وليس فى استطاعتى أن أجمع شتات أفكارى أو أتذكر ما حدث . أخبرنى يا « جو » وكن صادقا يا صديق — هل ارتكبتُ أنا هذه الجريمة ؟ « جو » . . إننى لم أقصد ذلك إطلاقا — أقسم على ذلك بشرفى . . إننى لم أقصد قتله « يا جو » !

أخبرنى ، كيف حدث ذلك . . يا إلهى . إنه شىء فظيع — إنه ما زال شابا فى مقتبل العمر ! .

فقال : « انجان » : إن ما حدث هو أنكما تماسكتما ، والتقط هو قطعة من شاهد القبر لطمك بها فسقطت على الأرض ، ولكنك بادرت بالوقوف وأنت تترنح وتتمايل ثم التقطت المدية وأغمدتها فى صدره فى الوقت الذى كان هو يسدد فيه إليك لطمة أخرى فسقطت على الأرض كقطعة من الصخر حتى لقد حسبتك ميتاً . . وظللت فاقد الوعى وقتاً طويلا .

— أواه ! إننى لم أكن أعلم ماذا كنت أفعل . . كم أود أن أموت الآن . . لقد كان ذلك نتيجة إفراطى فى احتساء الخمر وما استولى علىّ من هياج فيما أظن ، فإننى لم أستعمل سلاحاً من قبل « يا جو » . . صحيح إننى اشتبكت فى معارك كثيرة ولكننى لم أستعمل أسلحة على الإطلاق . إن الناس جميعا يعرفون ذلك يا « جو » . . فلا تش بى ! قل إنك لن تشى بى يا صديقى العزيز . . إننى طالما أحببتك ودافعت عنك . . ألا تذكر ذلك ؟ إنك لن تشى بى . . أليس كذلك يا « جو » ؟

وجثا الرجل التعس عند قدمى القاتل الشرير ، وضم يديه فى ضراعة .

وقال « جو » : لقد كنتَ دائما عادلا معى يا « ماف بوتر » ، ولهذا فلن أتنكر لك ، وأظن أن هذا هو أنبل ما يمكن أن يبديه إنسان من إخلاص ؟ ! .

— أواه يا « جو » . . إنك ملاك . . سأباركك من أجل ذلك ما حييت .

وانفجر « بوتر » باكيا ، فقال « جو » :

— كفى ، فليس لدينا من الوقت ما نضيعه فى هذا السخف . . اسلك أنت ذلك الطريق ، وسأسلك أنا هذا الطريق . . هيا تحرك ، واحذر أن تترك أى أثر خلفك !

وتحرك « بوتر » مبتعداً بخطى سريعة لم تلبث أن انقلبت إلى عدو . . أما القاتل فظل ثابتا فى مكانه ثم غمغم :

— لقد نسى الأحمق المدية ، واعتقد أنه لن يتذكرها إلا بعد أن يبتعد عن هنا كثيرا ، وما أظنه سيجرؤ على العودة فى طلبها .. ياله من جبان !

وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق لم يعد هناك من يتطلع إلى القتيل والجثة المغطاة والقبر المفتوح غير القمر . . وساد الصمت الرهيب مرة أخرى !!

الفصل العاشر

النبوءة المخيفة لكلب يعوى

استمر الغلامان يركضان هاربين نحو القرية وقد عقد الرعب لسانيهما.. وكانا لا يكفان عن التطلع (من فوق كتفيهما) بين حين وآخر كأنما كانا يخشيان أن يتبعهما أحد، وكان يخيل لهما أن كل جذع شجرة يصادفهما رجل وعدو، وكلما قابلا واحداً منها شهقا بقوة، حتى إذا اقتربا من بعض الأكواخ المشيدة على مقربة من القرية وسمعا نباح كلاب الحراسة يرتفع، ضاعفا من سرعتهما..

وقال «توم» لاهثا: لو أننا استطعنا أن نصل إلى المدينة القديمة فحسب. فعندئذ يمكننا أن نخفف من سرعتنا. إننى لا أستطيع احتمال هذا الموقف المخيف أكثر من ذلك.

ولم يجب «هاكلبرى»، فقد كان يلهث بقوة. وركز الغلامان عيناهما على الهدف الذى يسعيان إليه ويأملان فى بلوغه.. وظلا يتقدمان منه تدريجاً، حتى استطاعا أخيرا أن يبلغا المدينة جنبا إلى جنب، واندفعا داخلين عبر بابها، ثم تهالكا فى الظل وقد أضناهما الإعياء.. وأخذت دقات قلبهما تبطىء شيئا فشيئا إلى أن صارت طبيعية، وعندئذ همس «توم»:

— ماذا ستكون نتيجة ذلك يا «هاكلبرى»؟

— إذا مات الدكتور «روبنسون» فاعتقد أن «جو» سيشنق!!

— ومن الذى يعرف أن «جو» هو القاتل؟

— إننى أعرف أنه القاتل «ياتوم»!

فكّر « توم » قليلا . . ثم سأل : ومن الذى سيشى به ؟ نحن ؟

— نحن ؟ ماذا تقول ؟ افرض أن شيئاً ما حدث ولم يشنق « انجان جو » أليس من المحتمل والحالة هذه ، أن يقتلنا بعد ذلك مثلما قتل « الدكتور روبنسون » ؟ .

— هذا هو ما أفكر فيه أنا أيضا يا « هاك » .

— إذن فلندع مهمة الوشاية لماف بوتر إذا بلغت به الحماقة هذا القدر . إنه يكون عادة مخموراً ولن يستطيع السيطرة على لسانه .

وسكت « توم » — ومضى يفكر . وأخيرا همس :

— إن « ماف بوتر » لا يعرف شيئا عن حقيقة تلك الجريمة يا « هاك » فكيف يشى بانجان ؟ .

— وما السبب فى أنه لا يعرف ؟ :

— لأنه فقد الوعى قبل أن يقتل « انجان » الدكتور .. هل تظن أن « بوتر » كان يستطيع أن يرى شيئا ؟ هل تظن أنه عرف شيئاً ؟ .

— يا إلهى .. هذا صحيح يا « توم » !

— ثم .. من الجائز أن يكون ذلك الشرير « انجان » قد قتل « بوتر » أيضاً ! :

— كلا ، هذا غير محتمل يا « توم » .. لقد كان « جو » يدرك أن « بوتر » مخمور ، كما كان يعلم على اليقين أن « بوتر » لا يعرف حقيقة ما حدث .. ومن ثم يخيل لى أن « جو » أبقى على حياته ، ولم يفتك به .

وساد الصمت قليلا مرة أخرى .. ثم قال « توم » :

— (هاك) ... هل أنت واثق من أنك تستطيع أن تلوذ بالصمت ؟

— بل يجب أن نصمت صمت القبور يا « توم » .. إن ذلك الشيطان

« أنجان » لن يتورع عن الفتك بنا إذا عرف أننا كنا فى مسرح الجريمة او إذا وشينا به .. والآن ، ينبغى يا « توم » ، أن يقسم أحدنا للآخر على أن نخلد إلى الصمت .

— إنى أوافقك على هذا الرأى لأنه خير ما يمكن عمله فى الوقت الحاضر . هل يمسك كل منا بيد الآخر ونقسم !

— أوه ! لا ، هذا القسم لا يجدى لأنه قسم عادى ، وكثيرا ما يمكن الحنث به — إنما يجب أن يكتب القسم فى مثل هذه الحالة وأن يسجل بالدم !

ونفر « توم » من الفكرة لأنها بدت له سوداء ، قاتمة ، مظلمة ، كئيبة . ولكنه — رغم ذلك — لم يجد مفراً من تنفيذها ، ، فالتقط لوحاً خشبياً نظيفاً كان ملقى على مقربة ، كما التقط قطعة حديد مدببة كانت قريبة منه ، وانتظر ريثما طلع القمر وراح يسجل القسم بصعوبة فوق اللوح وهو يؤكد كل كلمة بقرقعة يحدثها بلسانه !

وكان « ها كلبرى » يراقب « توم » بإعجاب لما كان يبديه من سهولة فى الكتابة وقدرة على التعبير ! !

وانتزع « ها كلبرى » دبوسا من ياقة سترته ، وهمّ بأن يغرسه فى لحمه ولكن « توم » منعه من ذلك قائلا :

— لا تفعل . . لا تفعل ذلك ، لأن الدبوس مصنوع من النحاس وقد يكون مسمماً .

مسمم . ؟

— نعم ، ومن الجائز أن ينتقل جزء من السم إلى جسمك . . .

وأخذ « توم » يحل الخيط الملفوف حول إحدى إبرتيه ، وغرس كل من الغلامين سن الإبرة فى طرف إبهامه ، وضغطه حتى سالت منه قطرة من الدم . واستطاع « توم » أن يرسم الحروف الأولى من اسمه فوق لوح الخشب مستخدما طرف إبهامه كقلم ، ثم أطلع « ها كلبرى » على الطريقة التى يرسم بها حرفى هـ ، ف . وبذلك سُجِل قسم الغلامين ، ودفنا اللوح قريباً من الجدار بعد أن غمغما ببعض التعاويذ ، وتعهدا بأن يمسكا لسانيهما عن الإشارة أو المأساة التى شاهداها فى المقابر .

وفى تلك اللحظة تسلل شبح من فجوة فى الجدار المقابل ،من البناء المتهدم ولكن الغلامين لم يرياه .

همس « ها كلبرى » : هل يُلزِمنا هذا القسم بألا نذكر شيئاً عن هذا الحادث مدى الحياة ؟

— بالتأكيد . . فمهما يحدث يجب أن نلزم الصمت التام ، وإلا سقطنا ميتين . . ألا تعرف ذلك ؟

— هذا حق ؟

ثم راح الغلامان يتهامسان فترة قصيرة من الوقت . وفى تلك اللحظة أخذ كلب ينبح نباحاً عاليا متواصلا ، وكان هذا الكلب على مبعدة عشرة أقدام من الغلامين ، فأسرع الغلامان يتشبثان أحدهما بالآخر وقد تملكهما الفزع .

وسأل « هاكلبرى » بصوت أجش : أينا هو المقصود بهذا النباح ؟

— لست أدرى .. أسرع واختلس النظر من الفجوة .

— لا أستطيع .. إننى خائف .. إفعل أنت ذلك يا « توم »

— لا أستطيع .. لا أستطيع يا « هاك » !

— أرجوك أرجوك يا « توم » . . إنى أسمع الصوت مرة أخرى

— أواه . يا إلهي : شكرا لله . . إنني أعرف صوته . . إنه الكلب « بول هاربيسون » !!

— هذا حسن يا « توم » الواقع أنى شعرت بأشد الفزع ، فقد خشيت أن يكون كلباً ضالا .

ونبح الكلب مرة أخرى . . وغاص قلبا الغلامين من جديد .

وهمس « هاكابرى » : رباه ! . إنه ليس « بول هاربيسون » . . أليس كذلك يا « توم »

وتملك الفزع « توم » . ولكنه ألصق عينه بالفجوة . وقال بصوت يشبه الهمس :

-- أواه يا « هاك » .. إنه كلب ضال .

— أسرع يا « توم » .. أسرع .. من الذى يقصده هذا الكلب ؟

— لا ريب فى أنه يقصدنا معاً ..

— إذن فقد هلكنا يا « توم » .. إننى أعرف ماذا سيكون مصيرى .. فقد كنت دائماً ولدا شريراً . وغمغم « توم » بفزع : إن هذه نتيجة العبث والأعمال الشريرة . كان فى استطاعتى أن أكون ولداً طيباً مثل « سيدنى » لو أننى حاولت ذلك .. ولكننى لم أفعل بالطبع .. بيد أننى أقسم أن أكون ولداً طيباً ، أواظب على حضور مدرسة الأحد ، وأواظب على الصلاة ، إذا قدرت لى النجاة من هذا المأزق .

وأردف توم سريعاً : أنظر يا « هاك » أنظر .. لقد أولانا ظهره .

وتطلع « هاك » . وقد انعم قلبه سروراً ، ثم هتف :

— أنظر .. إن ظهره تجاهنا فعلاً ! هل كان كذلك من قبل ؟

-- نعم . . ولكنى بحماقتى ، لم أفكر فى ذلك . . إنه الكلب « بول » بغير شك . . لكن من الذى يعنيه ؟

وكف الكلب عن النباح ، وأرهف « توم » أذنيه ثم همس : صـه ! ما هذا ؟

— يخيل إلىّ أنه شخير إنسان يا « توم »

— هذا صحيح .. لكن أين هو هذا الإنسان يا «هاك» ؟

— أعتقد أنه فى الجانب الآخر من البناء . . أو هذا ما يبدو لى على كل حال . . لقد اعتاد أبى أن ينام هناك فى بعض الأحايين ، ولكننى لا أعتقد أنه يجىء إلى هنا إطلاقا الآن .

ومرة أخرى طغت روح المغامرة على الغلامين .

— هل توافق على متابعتى إذا تقدمتك يا « هاك » ؟

— لست مرتاحا إلى ذلك يا « توم » . فإننى أخشى أن يكون النائم هو « انجان جو » !

وتردد « توم » لحظة ، ولكن الإغراء لم يلبث أن سيطر عليه ثانية . واتفق الغلامان على القيام بالمحاولة ، على أن يطلقا الريح لساقيهما إذا توقف الشخير . وبدأ سيرهما على أطراف أصابع أقدامهما ، أحدهما فى المقدمة والآخر فى أعقابه . وعندما أصبحا على مبعدة خمس خطوات من الرجل النائم ، وطىء « توم » عصا كانت فى طريقه دون أن يفطن إليها ، فتحطمت ، محدثة صوتاً حاداً . . وتأوه النائم ، وتململ قليلا ، ثم حول وجهه فسقطت عليه أشعة القمر .. لقد كان « ماف پوتر » ! وكاد قلبا الغلامين يتوقفان ، وتملكهما الارتباك عندما تحرك الرجل ، ولكن مخاوفهما تبددت ، واستمرا فى تقدمهما حتى خرجا من الفجوة التى فى الجدار . وبعد أن قطعا مسافة لا بأس بها توقفا ليتبادلا كلمة وداع ، وعندئذ انطلق الكلب ينبح بشدة مرة أخرى ! فتحول الغلامان نحو مصدر الصوت ، ورأيا الكلب الغريب يقف على مبعدة أقدام قليلة من الرجل النائم وهو يواجهه ، وقد رفع أنفه نحو السماء !

صاح الغلامان فى صوت واحد : يا إلهى ! إنه هو !

وأردف « ها كلبرى » : أخبرنى يا « توم » — سمعتهم يقولون أن كلباً غريباً نبح عند منزل « جونى ميلر » حوالى منتصف الليل منذ أسبوعين تقريباً ، ولكن أحداً فى منزله لم يمت حتى الآن .

— أعرف ذلك . . ولكن على فرض أن أحداً لم يمت ، ألم تصب « جراسى ميلر » بحروق مؤلمة يوم السبت التالى ؟

— نعم . بيدأنها لم تمت . . . وما هو أكثر من ذلك ، إن حالتها آخذة فى التحسن .

— حسناً . . فانتظر لترى ما قد يحدث لها . . إنها هالكة لا محالة ، مثلما سيهلك « ماف بوتر » . هذا ما يقوله الزنوج عن مغزى نباح الكلاب الغريبة ، وهم يعرفون كل شىء عن مثل هذه الأمور يا « هاك » ! !

وافترق الغلامان وهما مستغرقان فى التفكير العميق . . وعندما تسلل « توم » من نافذة غرفة نومه ، كان الليل قد أوشك على الانتهاء ، فأخذ يخلع ثيابه بحذر شديد ، ثم استغرق فى النوم وهو يهنىء نفسه ، لأن أحداً لم يعلم بأمر مغامرته ، ولكنه لم يفطن إلى أن « سيدنى » — الذى كان يشخر بهدوء — كان فى الواقع مستيقظا منذ أكثر من ساعة .

وعندما استيقظ « توم » من نومه ، كان « سيدنى » قد فرغ من ارتداء ثيابه وانصرف . وتلفت « توم » حوله ، وإذا ضوء يسطع قوياً ، فتملكته الدهشة الشديدة ، وراح يتساءل ، لماذا لم تناده عمته وتنهره كعادتها حتى ينهض من الفراش ؟ وازدادت حيرته ، فنهض من فراشه على عجل ، وبعد خمس دقائق كان قد ارتدى ثيابه وهبط إلى الطابق الأرضى وهو لا يزال يشعر بالنعاس . وكانت الأسرة لا تزال تجلس حول المائدة وإن كانت قد فرغت من تناول طعام الإفطار . . ولم يوجه أى توبيخ أو تقريع لتوم ، وإنما لاحظ الغلام أن الجميع قد أشاحوا بوجوههم عنه . وإذ لاذ الجميع بالصمت ،

غاص قلبه بين جنبيه ، وجلس فوق مقعده المألوف ، وحاول أن يتظاهر بالمرح ، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فإن أحداً من الحاضرين لم يبتسم أو يستجب لدعاباته ، وإنما ظلوا جميعاً صامتين .

وبعد أن فرغ « توم » من تناول طعام الإفطار ، انتحت عمته به جانباً فتهلل الغلام وتمنى لو أنها ضربته وقضت بذلك على التوتر الشديد الذى كان يعانى منه أشد العناء ، ولكنها لم تفعل ، وإنما انخرطت فى البكاء وسألته كيف جرؤ على ترك المنزل فجأة محطماً بذلك قلبها العجوز . . وأخيراً قالت له إنها ستدعه وشأنه ، يسلك السبيل الذى يروقه حتى لو أودى بحياته رغم ما فى ذلك من مرارة قد تحطم قلبها ، فتموت من فرط الحسرة والحزن على ذلك الغلام الذى يئست من إصلاحه . وكان ذلك القول أشد وقعاً على نفس الغلام من ضرب السياط ، فازداد ألمه وعذابه ، وانفجر باكيا ، وراح يناشدها الصفح والغفران ، ويعدها بأن يسلك الطريق السوى ، وعندئذ صرفته عمته ، وهو يشعر بأنها لم تصفح عنه تماماً لضعف ثقتها به !!

ولم يستشعر « توم » أية رغبة فى الثأر من « سيدنى » هذه المرة ، ومن ثم لم يكن هناك ما يحمل « سيدنى » على التسلل من الباب الخلفى خوفاً من « توم » . . ومضى « توم » إلى المدرسة بخطوات بطيئة وقلب مثقل ، وسر أن المدرس ضربه هو و « جو هاربر » لأنهما لعبا الهوكى فى اليوم السابق ولم يشعر بألم الضرب ، فقد كان عقله منصرفا تماماً إلى أحزانه وأشجانه . ثم جلس فى مكانه واعتمد بمرفقيه على المنضدة ، واعتمد ذقنه براحتيه ، وحملق فى الجدار بنظرة جامدة شأن أى رجل بلغ عذابه أقصى مداه . وكان مرفقاه يضغطان على مادة صلبة ، وبعد وقت طويل عدل جلسته ببطء وحزن ، ثم التقط ذلك الشىء الصلب وهو يتنهد . . كان هذا الشىء ملفوفاً فى ورقة ، وفتح « توم » الورقة ، ثم تنهد تنهدة عميقة ، وتحطم قلبه . . فقد وجد بداخل الورقة المقبض النحاسى الذى أعطاه فى أمسه لبيكى .

وكانت هذه ضربة قاضية على آمال توم !!

الفصل الحادى عشر

« توم » يؤنبه ضميره

حوالى ظهر اليوم التالى ، استولى الفزع على سكان القرية حينما بلغهم النبأ المؤلم فجأة . . ولم يكن البرق قد اخترع بعد ، ولكن القصة سرت فى القرية كما تسرى النار فى الهشيم . فكانت تنتقل من رجل إلى آخر ، ومن جماعة إلى أخرى ، ومن منزل إلى آخر فى لحظات ، حتى عرف كل شخص فى القرية تلك القصة المؤلمة ، واضطر ناظر المدرسة إلى منح تلاميذه عطلة بعد ظهر ذلك اليوم . ولو أنه لم يفعل ذلك ، لحسبت القرية كلها سلوكه غريباً !

قال الرواة إن مدية ضخمة وجدت على مقربة من جثة القتيل ، وإن شخصاً قال إن هذه المدية ملك « ماف بوتر » . . وقيل أيضاً إن مواطناً كان عائداً إلى منزله فى ساعة متأخرة من ليلة ارتكاب الجريمة ، رأى « بوتر » يغتسل فى رافد النهر ، وكان ذلك فى الساعة الثانية صباحاً ، وأن « بوتر » بادر بالاختفاء حينما رأى ذلك المواطن — ولقد أثارت هذه الظروف ، وبخاصة الاغتسال ، الريبة فى أمر « بوتر » لأنه لم يعتد الاغتسال فى النهر فى مثل ذلك الوقت المتأخر جداً من الليل . وقال الرواة أيضاً إن العمدة ورجاله ينقبون فى جميع أرجاء القرية باحثين عن هذا «القاتل» (ومعروف أن الجمهور يحرص على تصفية الأدلة وإصدار حكمه فى مثل هذه المناسبات)، ولكن العمدة ورجاله لم يستطيعوا العثور على أثر لبوتر . ومن ثم فقد أرسل الفرسان فى كل مكان للبحث عنه . ومضى الرواة يقولون ان العمدة يؤكد أنه سيقبض على « بوتر » قبل حلول الليل !

وانطلق سكان القرية جميعاً إلى المقابر .. وسرى قليلا عن « توم » فانضم إلى الموكب لا لشيء إلا لأنه لم يستطع أن يتغلب على الإغراء الذى سيطر عليه ودفعه إلى ذلك . وعندما وصل إلى المكان المشئوم راح يتسلل بجسمه الصغير بين المتفرجين ، إلى أن وقعت عيناه على المنظر البغيض .. خيل إليه أن دهراً قد مضى منذ أن جاء إلى هذا المكان ، وأحس بشخص (يقرصه) فى ذراعه ، فتلفت ليرى من يكون هــذا الشخص . والتقت عيناه بعيني « هاكلبرى » . وبعد لحظة ، كان كل منهما ينظر فى اتجاه آخر وهما يتساءلان عما إذا كان قد رآهما أحد ، وهما ينظران إلى أحدهما الآخر ، وفهم المعنى الذى انطوت عليه نظراتهما .. ولكن جميع الموجودين كانوا منهمكين فى الحديث وفى تأمل المنظر الرهيب الماثل أمامهم !

كانوا يقولون : مسكين هذا الشاب! مسكين هذا الشاب ! يجب أن يكون فى ذلك درس للصوص المقابر ! سوف يشنق « ماف بوتر » جزاء له على ارتكاب هذه الجريمة إذا قبضوا عليه .

وقال الواعظ : هذا حكم الله .. لا شك أن له يداً فى هذه المأساة !

وانتفض « توم » من قمة رأسه إلى أخمص قدميه فى تلك اللحظة ، فقد وقعت عيناه على وجه « إنجان جو » . وفى تلك اللحظة بدأت الجموع تلوح وتناضل ، وارتفعت أصوات تقول :

— إنه هو ! إنه هو ! ها هو قادم !

وانطلقت أصوات أخرى كثيرة تتساءل : — من هو . . . من هو ؟ .

— « ماف بوتر »

فقال قائل : ها هو قد توقف .. انظروا .. لقد استدار ليهرب .. لا تدعوه يهرب !

وقال الأشخاص الذين كانوا يعتلون أغصان الأشجار فوق رأس

« توم » إن « بوتر » لم يكن يحاول الفرار ، وإنما كان يبدو فقط متردداً مضطرباً .

فقال أحد الواقفين : يا للوقح ! لقد أراد أن يلقى نظرة هادئة على ما جنته يداه . . ولا شك فى أنه لم يكن يتوقع أن يجد أحداً هنا ..

وأفسح الجمهور الطريق للعمدة الذى أقبل فى تلك اللحظة وهو يقود « بوتر » . من ذراعه . . وكان وجه الرجل التعس شاحباً جداً ، وقد تجسم الرعب فى عينيه . وعندما وقف أمام جثة القتيل هز رأسه بعنف ثم غطى وجهه بيديه وانخرط فى البكاء .. وقال بصوت أجش :

— إننى أرتكب هذه الجريمة أيها الأصدقاء .. أقسم لكم بشرفى أننى لم أرتكبها .

فصاح أحد الواقفين : ومن الذى اتهمك بارتكابها ؟

وخيل للجميع أن هذه الرمية أصابت مقتلا ، فقد رفع « بوتر » وجهه وتلفت حوله وقد بدا عليه يأس قاتل .

ووقع بصره على « إنجان جو » فصاح : أواه يا « إنجان » .. لقد وعدتنى بأنك لن ..

فقاطعه العمدة متسائلا وهو يدفع المدية أمام عينيه : هل هذه المدية ملكك ؟

كاد « بوتر » يسقط على الأرض ولكن أحد المتجمهرين ساعده على النهوض .. ثم قال « بوتر » :

— إن هاتفاً قال لى إننى إذا لم أعد ..

وانتفض ، ثم لوّح بيده فى إشارة يائسة وقال :

— أخبرهم يا « جو » .. أخبرهم فلم تعد هناك فائدة من الصمت ..

وجد « هاكلبرى » و « توم » فى مكانهما وراحا يصغيان الى « إنجان » وهو يقص أكذوبته الكبرى بثبات عجيب . وكان الغلامان يعتقدان أن السماء الصافية سوف تبرق فى تلك اللحظة احتجاجا على هذا الكذب الممقوت، او تنقض صاعقة فوق رأس الكاذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .. وعندما فرغ « انجان » من سرد قصته ، وبقى واقفاً فى مكانه دون أن يمسسه سوء ، طغت على الغلامين رغبة فى الحنث بقسمهما وإنقاذ حياة السجين البرىء ، ولكن هذه الرغبة لم تلبث أن تبددت حينما أدرك الغلامان أن هذا الشرير « انجان » باع نفسه للشيطان ، وأنه من خطل الرأى أن يتدخلا فى شىء أصبح ألعوبة فى يد قوة الشر هذه .

سأل أحد النظارة : لماذا لم تهرب ؟ لماذا سعيت إلى هنا ؟

فتأوه « بوتر » وقال : لم أستطع الفرار .. لم استطع الفرار لأن قوة خفية قاهرة كانت تدفعنى للمجىء الى هنا ؟

واستأنف البكاء بحرقة .

وبعد بضع دقائق عاد « انجان جو » يسرد قصته هذه بصوت هادىء فى أول جلسة للتحقيق .. ولما لم يبرق البرق، آمن الغلامان أن « جو » باع نفسه للشيطان حقاً !

وقرر الغلامان فيما بينهما ، أن يراقبا «جو» ليلا عندما تحين لهما الفرصة لعلهما يستطيعان أن يريا لمحة من مولاه المخيف : الشيطان !

وساهم « إنجان جو » فى رفع جثة القتيل ووضعها فوق عربة توطئة لنقلها ، وتهامس الحاضرون بان الجرح القاتل لم ينزف دماً كثيرا ، فظن الغلامان أن هذه الملاحظة العابرة سوف تحول الريبة إلى الاتجاه الصحيح ، ولكن خاب فألهما ، إذ لم يلبث أكثر من قروى أن قال معقباً .

— لقد سدد «بوتر» الطعنة للطبيب على مبعدة ثلاثة أقدام فقط ولذلك لم ينزف الجرح دماً غزيراً .

وبدأ « توم » يستشعر عذاب الضمير أثناء نومه طوال أسبوع كامل بعد الحادث وبينما كانت الأسرة تتناول طعام الإفطار ذات صباح ، قال « سيدني » :

— إنك تكثر من التقلب فى الفراش يا « توم » ، وتنطق بكلمات كثيرة لم أستطع معها أن أنام نصف الوقت الذى اعتدت أن أنامه !

وأحس « توم » أن قلبه قد تحجر بين جنبيه ، واصفر لونه .

وقالت العمة « بولى » بلهجة جدية : هذه علامة سيئة .. ما الذى يثقل ضميرك يا « توم » ؟

— لا شىء .. لا شىء ياعمتى . .

ولكن يده ارتعشت ، حتى لقد انسكب منه قدح القهوة ، فقال « سيدنى » : — إنك تكثر من ترديد عبارات مخيفة . فقد سمعتك تقول فى الليلة الماضية « إنه دم .. إنه دم .. » ولقد كررت هذا القول المرة بعد الأخرى ، كما قلت « لا تعذبنى هكذا — سأقول كل شىء » فما الذى عساك تقوله يا « توم » ؟

وغامت الدنيا أمام عينى « توم » ولم يَدْرِ ما قد يحدث له ، ولكن حظه الحسن لم يخذله فى هذا الوقت الرهيب ، إذ لم يلبث وجه العمة « بولى » أن انفرجت أساريره ، وقالت مُنْقِذَةً إياه بدون قصد :

— آه ! إنها تلك الجريمة البشعة .. فإننى أحلم بها كل ليلة تقريباً . وفى بعض الأحايين أحلم بأنى مرتكبها !

فقالت « مارى » إنها كانت تعانى نفس الإحساس ، وبدا كأن « سيدنى » قد اقتنع بهذا القول . وانتهز « توم » أول فرصة عرضت له للتسلل من الغرفة ، وبعدئذ زعم أن أسنانه تؤلمه ، وظل أسبوعاً كاملا يطبق فكيه على بعضهما بربط منديل حول رأسه ، ولكنه لم يكن يعلم أن

« سيدنى » كان يرفع الرباط من مكانه أثناء الليل ويرتكز فوق مرفقيه ، وقد أدنى أذنه من شفتى « توم » ليستمع إلى ما يقوله أثناء نومه ، ثم يعيد الرباط إلى مكانه بعد ذلك .. ومع مضى الأيام بدأ اضطراب « توم » النفسى ينحسر شيئاً فشيئاً ، فتظاهر بأن أسنانه شفيت ، وبذلك تخلص من الرباط ... أما « سيدنى » فقد لاذ بالصمت المطبق ، فلم يُحدّث أحداً عما إذا كان قد فهم شيئاً من الكلمات المتقطعة التى كان يسمعها من « توم » أثناء هذيانه !!

وتغيّر « توم » تغيراً كبيراً . فبعد أن كان يتزعم حلقات يعقدها الصبية الصغار للتحقيق فى حوادث قتل القطط ، أصبح يضيق ذرعاً بهذه الحلقات . ولاحظ « سيدنى » أن « توم » لم يطالب فى هذه الجلسات بأداء دور المحقق ، مع أنه اعتاد أن يفعل ذلك فى جميع الجلسات السابقة ، كما لاحظ أن « توم » لم يقم أيضاً بدور الشاهد — وهو أمر غريب . كذلك لم يخف على « سيدنى » أن « توم » كان يبدى فتوراً ظاهراً حيال هذه الجلسات ، محاولا تجنب الاشتراك فيها كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .. ورغم ما كان يساور « سيدنى » من دهشة إزاء سلوك « توم » إلا انه لاذ بالصمت .. ومع ذلك فإن « توم » لم يلبث أن تخلص من ضيقه بهذه الجلسات ، وعاد إلى حالته الطبيعية بعد أن تضاءل تأنيب ضميره له !

وكان « توم » لا يفتأ يذهب كل يوم أو اثنين ، خلال تلك الفترة العصيبة ، إلى سجن القرية حيث يُهرّب كل ما يستطيع أن يُهرّبه (مما يجلب الراحة) الى السجين البرىء .. فقد كان السجن عبارة عن غرفة عتيقة مشيدة عند طرف القرية ، ولم يكن هناك من يحرسها لأنها لم تكن تُستخدم إلا نادراً . ولقد ساعدت هذه المعاونات البسيطة على تهدئة ضمير « توم » !!

الفصل الثانى عشر

القطة والدواء الذى يقتل الألم !

لم يكن « توم » قد أفاق بعد من هول الجريمة المروعة التى وقعت على مرأى ومسمع منه ، عندما حلت به كارثة جديدة . . . فقد اختفت « بيكى » ، ولم تعد تذهب الى المدرسة ! وظل « توم » يناضل كبرياءه أياما قليلة ، وهو يحاول أن ينسى كل ذكرى للفتاة ، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل . وسرعان ما بدأ يتسكع حول منزل أبيها ، فكان يقضى ساعات طويلة من الليل وهو يتمنى أن يرى فتاة قلبه ، غير أن جميع آماله تبددت ، فأحس بتعاسة أليمة .. وقال لنفسه إنها لا ريب مريضة . . فماذا عساه يفعل لو اختطفها الموت ؟ ! وأذهلته الفكرة ، ولم يعد يهتم بالحرب ولا بالقرصنة . كما فقدت الحياة بهجتها فى عينيه ، ولم يبق فيها غير الكآبة والانقباض .

وانصرف عن نفيره وأدوات قتاله ، ولم يعد يشعر بالميل إلى العبث الذى كان مولعاً به من قبل . . واهتمت عمته بالأمر . وبدأت تجرب جميع ضروب العلاج معه ، فقد كانت من أولئك الأشخاص الذين يؤمنون أعمق الإيمان بفائدة العقاقير (الجاهزة) وجميع (الوصفات) المستحدثة للتمتع بالصحة أو استعادتها ؛ وكانت تجرب هذه الأشياء باستمرار . فكلما ظهر عقار جديد من هذا النوع ، كانت تنتابها حمى تجربته لا فى نفسها ، لأنها لم تَشْكُ يوما من المرض ، وإنما فى أى شخص يقع فى براثنها . . وكانت العمة « بولى » مشتركة فى جميع مجلات « الصحة » الدورية ونشرات أدعياء الطب ، إذ كانت تعتقد اعتقاداً جازما بجدوى ما اشتملت عليه هذه

النشرات من سخافات عن أحـــدث وسائل التهوية ، وكيف يأوى المرء إلى فراشه ، وكيف يستيقظ ، وماذا يأكل ، وماذا يشرب ، وما مقدار الرياضة البدنية التى يجب أن يحصل عليها ، والحالة العقلية التى ينبغى أن يكون عليها الإنسان ، ونوع الملابس التى يرتديها . . كل ذلك كان مقدساً فى نظرها ، ولكنها لم تكن تلاحظ مطلقا أن ما تحمله لها هذه النشرات اليوم يناقض ما حملته إليها منذ شهر مضى ، فقد كانت سيدة بسيطة طيبة القلب ، ولهذا كانت فريسة سهلة لذلك الغش والتضليل ! !

وكان العلاج بالماء قد ظهر فى ذلك الحين ، فرأت العمة « بولى » فيما طرأ على « توم » من هزال وكآبة فرصة سانحة لتطبيق هـــذا العلاج . . فكانت تصحبه كل صباح إلى حظيرة بقرتها حيث تسكب عليه كثيراً من الماء البارد ، ثم تجفف جسده بمنشفة خشنة كالمبرد ، وتعود به إلى المنزل بعد ذلك ، ثم تلفّـه فى غطاء مبلل بالماء ، وتغطيه (بالأغطية الصوفية) إلى أن تتطهر روحه ! ! . . .

ورغم كل ذلك ازداد حزن الغلام ، واشتد اصفرار وجهه، وتدهورت صحته ، فأضافت العمة « بولى » إلى ذلك العلاج ، الحمامات الساخنة وغيرها من مختلف أنواع التطبيب ، ولكن الغلام ظل على كآبته وشروده . وعندئذ عززت العلاج بالماء بوجبات من الشوفان واللصقات ، كما أخذت تقدم له مقادير كبيرة من العقاقير « التى تشفى كل مرض » ! !

ولم يعد « توم » يبالى بهذه الألوان المختلفة من التعذيب . . ولكن عمته بدأت تضيق ذرعاً بحالته ، وصممت على القضاء على ما يبديه من عدم مبالاة بأى ثمن . . وفى هذه الأثناء سمعت العمة « بولى » عن الدواء « الذى يقتل الألم » لأول مرة ، فطلبت كمية منه ، وما كادت تحصل عليه وتتذوقه حتى أحست ببرد الراحة يدب فى قلبها . . لقد كان شبيها بنار فى شكل سائل . وفى الحال قررت العدول عن العلاج المائى وجميع أنواع العلاج الأخرى

إيمانا بمفعول هذا الدواء الجديد . . وقدمت لتوم ملعقة منه وراحت تراقبه بمنتهى القلق لترى النتيجة ، وسرعان ما اختفت مخاوفها ، وسرى الهدوء إلى نفسها ، فقد انحسر « عدم المبالاة » عن الغلام مباشرة وأبدى اهتماما أكثر مما كان يبديه لو أنها أشعلت ناراً تحته . . .

وأدرك « توم » أن الوقت قد حان للخروج من عزلته . . صحيح أن هذا اللون من الحياة قد يكون ملائما لحالة الجمود التى يعانيها ، ولكن الموقف يستدعى إعادة النظر فى ذلك اللون من الحياة ، ومن ثم راح يستعرض مختلف الخطط التى تحقق له الخروج من هذه العزلة ، وسرعان ما تذكر الدواء « قاتل الألم » وأدرك أنه وجد فيه ضالته المنشودة ، فأخذ يطلب تناوله بكثرة ، حتى تضايقت عمته من إلحاحه فأعطته الزجاجة ليتناول منها ما يشاء وقتما يشاء كيلا يزعجها بالطلب ولو كان « سيدنى » هو الذى طلب الحصول على الزجاجة لأعطتها له وهى مطمئنة ، ولكن نظراً لأن « توم » هو الذى استولى عليها ، فقد دأبت على مراقبتها باهتمام . ولم تلبث أن تبينت أن محتويات الزجاجة تنقص باستمرار ، ولكن لم يخطر ببالها أن الغلام كان يسد شقاً فى أرض الغرفة بهذا الدواء ولا يتناوله !! .

وذات يوم كان « توم » يتهيأ لسكب الجرعة فى الشق عندما أقبلت قطة عمته الصفراء وهى تقر وتتأمل الملعقة باهتمام كأنما تتوسل إلى الغلام أن يذيقها الدواء .

قال « توم » : لا تطلبى تذوقه إلا إذا كنت بحاجة إليه .

وأتت القطة بحركة من رأسها تدل على رغبتها فى تذوق الدواء .

قال « توم » يحسن بك أن تتأكدى من حاجتك إليه

ومرة ثانية هزت القطة رأسها

— مادمت تصرين على تذوقه فسأجعلك تتذوقيه ، إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك ، لكن لم يعجبك مذاقه فلا تلومى إلا نفسك .

وملأ « توم » الملعقة وأدناها من فم القطة .. ففتحت القطة فمها ، وسكب « توم » محتويات الملعقة فيه ، وفى التو وثبت القطة « ياردتين » فى الهواء ثم أطلقت مواء شديدا وأخذت تثب فى جميع أرجاء الغرفة وهى ترتطم بقطع الأثاث ، وتسقط أوانى الزهور ، وتثير الفوضى فى كل ركن وبعدئذ وقفت على قائمتيها وراحت تدور حول نفسها كأنما استخفها الطرب أو تملكها الجنون فانطلقت فى كل مكان مثيرة الفوضى حيثما حلت .. وفى تلك اللحظة دخلت العمة « بولى » الغرفة ، فوجدت القطة تؤدى بعض حركاتها البهلوانية العجيبة ، وكأنما أرادت القطة أن تنهى عرضها البهلوانى الرائع فى تلك اللحظة فقذفت بنفسها من النافذة ، جاذبة معها ما تبقى من أوانى الزهور وهى فى طريقها إلى الفضاء !!.. فجمدت السيدة العجوز فى مكانها وقد استولت عليها دهشة شديدة ، وراحت تتطلع إلى القطة من فوق حافة عوينانها ، بينما أغرق « توم » فى الضحك حتى استلقى على قفاه فوق الأرض .

— قالت العمة « بولى » :

— « توم » ماذا بحق السماء يؤلم القطة ؟

فقال « توم » لاهثا : لست أدرى يا عمتاه

— إنى لم أرها على هذه الحال فى يوم من الأيام يا « توم » فماذا جعلها تتصرف هكذا ؟

فأجاب « توم » بلهجة رزينة : أؤكد لك إننى لا أعلم يا عمتى !! بيد أن ما أعلمه هو أن القطط تحب التمثيل عندما يستخفها الطرب .

— أحقاً ؟

— نعم يا سيدتى . . هذا ما أعتقده .

— تعتقده ؟

— نعم يا سيدتى .

ومالت العمة « بولى » فوق « توم » ، فراح « توم » يراقبها باهتمام لا يخلو من القلق . ولكنه تبين ما ترمى إليه بعد فوات الأوان ، فقد رأت طرف الملعقة بارزا من أسفل السرير ، فالتقطتها ، وتأملتها . فانكمش « توم » ، وغض من بصره ، وفى التو مدت يدها وأمسكت بأذنه وراحت تضغطها بقوة . ثم قالت :

— والآن أخبرنى يا سيدى .. ما الذى جعلك تعالج هذا الحيوان الأبكم ؟

— لقد فعلت ذلك لأن القطة لا عمة لها ! .

— ليست لها عمة ! — ولكن ما لذلك وإرغامها على تناول الدواء ؟

— إن الأمرين متصلان أوثق اتصال . فلو أن لها عمة لما أعطتها هذا الدواء الذى يلهب الأحشاء ! .

وأحست العمة « بولى » بتقريع الضمير فجأة ، فقد كانت عبارة الغلام أشبه بسوط ألهب ظهرها . فما يعتبر قسوة بالنسبة للقطة يمكن أيضاً أن يكون قسوة بالنسبة للغلام .. ورق قلبها ، وشعرت بالأسف ، وترقرقت الدموع فى عينيها ، ووضعت يدها على رأس « توم » ، وقالت له برفق :

— لقد أردت لك الخير يا « توم » .. ولا شك فى أن هذا الخير قد تحقق !

فتاملها « توم » مليا ، وقد التمعت عيناه ببريق الاهتمام . وقال :

— إنى أعلم أنك تنشدين لى الخير يا عمتى ، وهذا أيضاً ما أردته أنا للقطة !! . لقد شفاها الدواء . فمنذ أن قفزت من النافذة وأنا لا أراها تتسكع هنا ..

— أوه ! إقفل ما بدا لك يا « توم » ، فإنى أشعر بأنك تسعى لإثارتى

مرة أخرى . لكن أرجوك أن تحاول أن تصبح غلاماً مطيعاً ولو مرة واحدة ، وعندئذ لن تكون بحاجة إلى تناول مزيد من الدواء .

* * *

ذهب « توم » إلى المدرسة قبل الموعد المحدد ، وقد لوحظ تكرار هذه الظاهرة العجيبة يوميا منذ أن استأنف « توم » الذهاب إلى المدرسة . وطبقاً لما جرت عليه عادته مؤخرا ، فقد انفرد « توم » بنفسه على مقربة من باب الملعب بدلا من أن يشترك مع زملائه فى اللعب . . قال لهم إنه مريض ، وكان منظره يدل على ذلك ، وحاول أن يتطلع إلى كل مكان ، ولكن الواقع أنه كان يكثر من التطلع إلى الطريق العام . وبعد قليل أقبل « جيف ثاتشر » ، فتهلل وجه « توم » ، وحدق فى الغلام قليلا ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه وقد تملكه الأسف . . وعندما وصل « جيف » ، استقبله « توم » ، وحاول أن يدير دفة الحديث نحو « بيكى » ، ولكن « جيف » لم يذكر شيئا يشفى غليل « توم » حتى لقد ضاق هذا به فانصرف عنه . . وراح يراقب ويراقب لعله يلمح « بيكى » ، ولكن خاب فأله فانتابه اليأس ، ودخل قاعة الدراسة وقد بدا عليه الملل . وفى تلك اللحظة السوداء رأى الفتاة تدخل من باب المدرسة فدق قلبه بين ضلوعه ، وفى اللحظة التالية كان يندفع إلى الخارج وهو يصيح ويضحك ويدفع الفتيات هنا وهناك ، ويثب من فوق السياج معرضا حياته للخطر ، ويقوم بحركاته البهلوانية المعتادة وهو يتطلع خلسة إلى « بيكى » ليرى أن كانت قد لاحظته . ولكن يبدو أنها لم تنتبه لكل ما فعله ، لأنها لم تتطلع نحوه على الإطلاق . . فراح يتساءل : هل من المعقول أنها لم تنتبه لوجوده ؟ . . واقترب منها كثيرا ، وهو يطلق صيحة الحرب ، واختطف قبعة أحد التلاميذ وقذف بها نحو السقف ، واندفع بين جماعة من الغلمان ففرقهم فى كل اتجاه ، وسقط بدوره

على الأرض عند قدمى ، يبكى ، حتى كاد يسقطها أيضا — ولكنها تحولت عنه وقد شمخت بأنفها فى الهواء ، وسمعها تقول : يا إلهى ! إن بعض الناس يظنون أنهم ظرفاء — ولهذا يلجأون دائما إلى حركات بهلوانية بغيضة ليبرهنوا على أنهم ظرفاء !.

وأحس « توم » بخديه يلتهبان ، ونهض متثاقلا ، ثم تسلل مبتعداً وكأن صاعقة قاتلة قد انقضت فوق رأسه !!

الفصل الثالث عشر

قراصنة البحار يبحرون

حزم « توم » أمره !! . كان مكتئبا يائسا . . قال لنفسه إنه غلام منبوذ لا صديق له ، وليس هناك من يحبه ، وأن الناس قد يأسفون من أجله حينما يتبين لهم أنهم هم المسئولون عما قرر أن يقدم عليه . فقد بذل قصارى جهده ليستقيم ولكنهم لم يمكنوه من ذلك ، لأنهم يريدون التخلص منه !! وما دام الأمر كذلك ، فليكن لهم ما يريدون ، وليلوموه -- إن شاءوا -- على النتائج -- إذ ما الذى يمنعهم من لومه حينما يستحق الأمر لوما ؟ وأى حق لمن لا صديق له فى الشكوى ؟ نعم ، إنهم هم الذين أرغموه على سلوك هذا السبيل الشائك فى النهاية ، ومن ثم فقد تعين عليه أن يحيا حياة الجريمة !!

وفى هذا الوقت ، كان قد قطع شوطاً بعيداً فى طريق « ميدواين » وتناهى إلى سمعه صوت ناقوس المدرسة وهو يدق ، وهنا طفرت الدموع من عينيه ، فقد أيقن أنه لن يسمع هذا الصوت مرة أخرى -- لقد كان ذلك أمراً عسيراً ، ولكنه أرغم عليه إرغاماً ، وما دام الجميع يصرون على أن يقذفوا به إلى عالم الجريمة ، فعلى رسلهم -- ولكنه يعفو عنهم . . .

وازداد نحيبه ، وفى تلك اللحظة ، التقى برفيق روحه ، « جوهاربر » وكانت نظرات الغلام « جو » تدل على أنه انتوى أمراً .. كان من الواضح ، وإن اختلف الغلامان من ناحية التكوين البدنى ، أنهما يفكران فى شىء واحد . وجفف « توم » عينيه بكمه ، وبدأ يتمتم بكلمات متقطعة تشف عن تصميمه على الهرب من هذه الحياة الشاقة ، والتخلص مما يلقاه من معاملة

خشنة فى المنزل ، والانطلاق فى العالم الفسيح بغير أن يفكر يوما فى العودة إلى هذه الحياة المثقلة بالقيود والأغلال . وختم حديثه بالإعراب عن أمله فى ألا ينساه « جو » .

ولشدما كانت دهشة « توم » حينما قال له « جو » إن هذا الذى وطن عزمه عليه هو عين ما صمم عليه بدوره ، وأنه إنما جاء يبحث عنه ليفضى إليه بهذا القرار .. فقد ضربته أمه بالسوط ضرباً مبرحاً لأنه شرب قليلا من القشدة « الكريمة » التى لم يسبق له أن تذوقها ، والتى لم يكن يعرف شيئاً عنها . وكان يؤمن بأن أمه غير راغبة فيه وترجو أن يذهب عنها . وما دامت هذه رغبتها فإن من خطل الرأى ألا يذعن لها .. وأضاف « جو » أنه يرجو لأمه كل خير ، ويأمل ألا تأسف يوماً على أنها قذفت بابنها المسكين فى خضم الحياة ليتعذب ويموت !

وبينما كان الغلامان يسيران جنباً إلى جنب وهما يتجاذبان أطراف هذا الحديث الحزين ، تعاهد كل منهما على الوقوف بجانب الآخر وألا يفترقا أبداً حتى يريحهما الموت من متاعبهما .. ثم راحا يرسمان خططهما .. قال « جو » إنه سيصبح ناسكا يعيش على الفتات فى كهف سحيق ثم يموت من شدة البرد والحرمان والحزن .. ولكنه ما كاد يصغى إلى خطة « توم » حتى سلم بأن لحياة الجريمة مزاياها .. ووافق على أن يصبح قرصانا !

على مسافة ثلاثة أميال وأسفل مدينة « سانت بيترسبورج » ، وعند نقطة لا يزيد اتساع نهر المسيسبى فيها عن ميل ، توجد جزيرة ضيقة طويلة مغطاة بالغابات ، لها حاجز ضحل عند رأسها ، وتأمل الغلامان المكان بعيون فاحصة ، ثم قررا أن تصبح جزيرة « جاكسون » ميدانا لمغامراتهما . ولكن لم يخطر ببالهما فى تلك اللحظة أن يختارا ضحايا قرصنتهما .. وبعدئذ مضيا للبحث عن « هاكلبرى فين » ، وما كادا يعرضان عليه ما قرراه حتى انضم إليهما بلا تردد أو إبطاء لأن جميع سبل الحياة كانت عنده سواء .. وبعد

قليل تفرق ثلاثتهم على أن يتقابلوا فى ساعة معينة — هى منتصف الليل — فى مكان منعزل على شاطىء النهر يبعد حوالى ميلين عن القرية على أن يحضر كل منهم أدواته ، وما يستطيع أن يسرقه من المواد الغذائية الموجودة فى منزل أسرته — ولا عجب فى ذلك .. ألم يقرروا الخروج على القانون؟ وقبل أن يحين المساء كان ثلاثتهم قد نشروا فى طول القرية وعرضها أن المدينة سوف « تسمع شيئا مثيراً » فى القريب العاجل ولكنهم حرصوا على مطالبة من أفضوا إليهم بهذا « النبأ المثير » بالتزام الصمت وترقب الأحداث !

وحوالى منتصف الليل ، وصل « توم » ومعه (فخذة خنزير مسلوقة) وأشياء أخرى تافهة ، ووقف فوق منطقة مرتفعة تشرف على مكان اللقاء وكانت السماء مرصعة بالنجوم فى تلك الليلة كما كان السكون شاملا .. أما النهر العظيم فكان يبدو كمحيط هادىء فى تلك اللحظة . . وأصاخ « توم » السمع لحظة ولكنه لم يسمع شيئا يعكر صفو السكون ، وعندئذ أطلق صفيراً معينا ، وفى التو سمع صفيرا مماثلا صادراً من أسفل الربوة التى كان يقف فوقها . . وصفر « توم » مرتين ، فأجيب على هذه الإشارة بمثلها .. وبعد ئذ قال صوتاً بحذر :

من هناك ؟

— « توم سوير » المنتقم الأسود .. ومن أنتما ؟

— « هاك فين » المشهور باسم « رد — هاندد » ، و « جو هاربر » المشهور باسم « فزع البحار » !! كان « توم » هو الذى أطلق عليهما هذين الاسمين المستمدين من الكتب التى طالعها وأحبها قال : هذا حسن .. ما هى كلمة السر ؟

ونطق الغلامان بعين الكلمة المخيفة فى وقت واحد بلهجة جوفاء .. قالا : الدم

وعندئذ قذف لهما « توم » ماجابه معه ، ثم وثب فى إثر ما ألقاه ، فتمزقت ثيابه ، وتسلخ جلده ولكنه لم يبال .. وانضم إلى زميليه فى ذلك الطريق السهل الذى يمتد بطول الشاطىء أسفل المرتفع الذى وثب منه .

كان « فزع البحار » قد أحضر معه كتلة ضخمة من لحم الخنزير المملح ، أما « فين رد — هاندد » فقد سرق مقلاة ، وكمية من التبغ ، وعددا قليلا من سيقان أشجار الحبوب ليتخذ منها غلايين . بيد أن أحداً من زميليه القرصانين لم يكن يدخن أو « يمضغ » التبغ ، ومن ثم فقد كان استهلاك هذا التبغ مقصوراً عليه . . وقال « المنتقم الأسود » : لا جدوى من البدء بالمغامرة بغير إشعال نار . . وكانت فكرته حكيمة لأن الثقاب لم تكن معروفة فى تلك الأيام كما هى الحال الآن . . ولقد رأوا ناراً مشتعلة فوق عائمة على مبعدة مائة ياردة ، فقرروا الحصول على جانب منها . وجعلوا من ذلك مغامرتهم الأولى ، وأخذوا يقتربون من العائمة المثبتة إلى الشاطىء بحذر ، وهم يهمسون بكلمة : صه ! بين حين وآخر . ثم لم يلبثوا أن توقفوا عن السير ، وقد وضع كل منهم أصبعه فوق شفتيه محذرا زميليه ، وهو يحرك يده فى اتجاه مقبض خنجر وهمى ، ويصدر أوامره إلى زميليه بصوت هامس . فقال توم « إذا تحرك العدو أغمدا خنجريكما فى صدره إلى نصليهما ، لأن « الأموات لا يتكلمون » !! . ولما كانوا يعلمون يقينا أن أصحاب العائمة ذهبوا إلى القرية لشراء مئونتهم أو لقضاء بعض الوقت ، فقد عمدوا على الفور إلى الاستيلاء على العائمة ، وأطلقوها فى النهر تحت قيادة « توم » بينما تولى « جو » أمر المجداف الأمامى « وهاك » أمر المجداف الخلفى . ووقف « توم » فى منتصف العائمة ، وعقد ذراعيه فوق صدره ، ثم بدأ يصدر أوامره إلى زميليه بصوت هامس .

وتجاوزت العائمة منتصف النهر ، ووجه الغلمان مقدمها ناحية اليمين .

ثم ألقيا مجدافيهما جانباً .. ولما كان المد منخفضاً فى تلك الليلة ، فإن سرعة التيار لم تكن تزيد على ميلين أو ثلاثة أميال .. ومضت ثلاثة أرباع الساعة بغير أن ينطق أحدهم بكلمة ، وكانت العائمة تمر فى تلك الأثناء بالمدينة البعيدة التى نام أهلها بسلام بغير أن يفطنوا إلى ذلك الحدث الضخم الذى كان يجرى فى تلك اللحظة . . . ووقف « المنتقم الأسود » ثابتا فى مكانه ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره وهو يلقى نظرة أخيرة على مسرح مباهجه السابقة وآلامه الأخيرة ، ويتمنى لو « أنها » تستطيع أن تراه فى تلك اللحظة ، وهو يركب البحر العاتى ، ويواجه الخطر والموت بقلب لا يهاب ، فى طريقه إلى مصرعه وعلى شفتيه ابتسامة .. كذلك كان القرصانان الآخران يلقيان بدورهما نظرة أخيرة على القرية .. وظلت العائمة منطلقة فى سبيلها ، وتصادف أن دفعها التيار خارج نطاق الجزيرة ، ولكن الصبيان اكتشفوا الخطر فى الوقت الملائم ، واستطاعوا أن يتجنبوه ويوجهوا العائمة إلى نقطة آمنة عند رأس الجزيرة . . ولما شدوها إلى الشاطىء ، بدأوا يفحصون محتوياتها .. فعثروا على شراع قديم ، حملوه معهم ونشروه فوق كهف بين الحشائش ليتخذوا منه مخبأ لطعامهم . أما هم ، فقد قرروا أن يناموا فى العراء ما دام الجو معتدلا ، شأنهم فى ذلك شأن القراصنة والخارجين على القانون !!.

وأوقدوا ناراً بجانب كتلة ضخمة من الخشب تبعد حوالى ثلاثين خطوة عن حافة الغابة ، وطهوا قطعة من لحم الخنزير فى المقلاة ، ثم تناولوا عشاءهم ، وهم ينعمون بأعظم قسط من السعادة ، اعتقاداً منهم أنهم تحرروا من كل قيد .. واحتلوا الجزيرة العذراء غير المأهولة التى لا يفكر أحد من البشر فى المجىء إليها . . وتعاهد ثلاثتهم على ألا يعودوا إلى « المدينة » مطلقاً .

وإذ فرغوا من تناول الطعام ، تمددوا فوق الحشائش ، وهم يشعرون بأشد الارتياح .

وقال « توم » : أليست هذه حياة مرحة ؟

فقال « جو » : إنها لرائعة . . ماذا عسى الصبيان يقولون لو استطاعوا رؤيتنا ؟

— يقولون ! ؟ لا شك في أنهم سيتلهفون على المجيء إلى هنا . . أليس كذلك يا « هاك » ؟

فأجاب « ها كابرى » : أظن ذلك . . مهما يكن من أمر ، فإن هـــذه الحياة تلائمنى ، فأنا لا أتوق إلى شيء أفضل من ذلك . . لأننى لم أحصل على كفايتى من الطعام فى يوم من الأيام — ثم إنهم لن يستطيعوا المجيء إلى هنا لمطاردتى .

فقال « توم » : إن هذا هو لون الحياة الذى يعجبنى ويعجبك ، فإنك لا تضطر إلى النهوض من الفراش مبكراً فى الصباح ، ولا تضطر إلى الذهاب للمدرسة ، وإلى الاغتسال ، وإلى كل تلك السخافات التى كنا نلام عليها . أما « جو » فإننى حزين من أجله ، لأنه عندما يصبح ناسكا ، سوف يضطر إلى الإكثار من العبادة ، وبذلك سيُحرم من كثير من المتعة والمرح .

فقال « جو » : آه . . هذا صحيح ، ولكنى لم أفكر كثيراً فى هـــذا الموضوع كما تعلم . وعلى كل حال ، لقد أصبحت أفضّل الآن أن أكون قرصاناً بعد أن جرّبت القرصنة ! !

فقال « توم » : إن الناس لا يهتمون بالدين كثيراً فى هذه الأيام مثلما كانوا يفعلون فى سابق العصر والأوان . ثم إن من ضرورات حياة الناسك أن ينام فوق أصلب مكان يستطيع العثور عليه ، وأن يضع قماش الجوالات والرماد فوق رأسه ، وأن يقف فى العراء أثناء هطول المطر . . .

فسأل « هاك » : ولماذا يضع قماش الأجولة والرماد فوق رأسه ؟

— لست أدرى ، ولكنهم مضطرون إلى أن يفعلوا ذلك ... هذا هو ما يفعله الناسكون دائماً ، ومن ثم فإنك ستزغم على أن تحذو حذوهم إذا أصبحت ناسكا مثلهم !!.

فصاح « هاك » هذا ما لا يمكن أن أقبله !!.

ولاذ الغلامان بالصمت ، وراح « هاكلبرى » يحشو غليونه بالتبغ ، ثم أخذ قطعة من الفحم المشتعل ، وأدناها من الغليون حتى أشعل التبغ ، وراح ينفث الدخان زكى الرائحة فى حلقات متتابعة — وهو يشعر بأشد الارتياح . أما القرصانان الآخران ، فكانا يحسدانه على هذه الرذيلة المستحبة ، وهما يفكران فى مزاولتها فى المستقبل !

وأخيراً سأل « هاك » : ما الذى ينبغى على القراصنة أن يفعلوه ؟

فاجاب « توم » : أوه إنهم يقضون وقتهم عادة فى العربدة — يستولون على السفن ويحرقونها ، ويستولون على المال ويدفنونه فى أماكن مخيفة فى جزيرتهم ، حيث تسهر الأشباح والقوى الغامضة على ملاحظته ، ويقتلون كل شخص فى السفن و ...

فقاطعه « جو » قائلا ولكنهم ينقلون النساء إلى الجزيرة لأنهـــم لا يقتلون النساء .

فقال « توم » : نعم ، إنهم لا يقتلونهن — لأنهم نبلاء أشد ما يكون النبل . لأن النساء يكن دائماً جميلات أيضاً !!

فأردف « جو » بحماس : ثم ، ألا يرتدون أفخر الثياب ، ويتحلون بالذهب والفضة والماس ؟

فسأل « هاك » : من هم ؟

ـ القراصنة .

فتطلع « هاك » إلى ثيابه باشمئزاز ، وقال بلهجة تشف عن الحزن والأسى : ــ أكبر الظن أننى لا أرتدى ثياباً تليق بقرصان ، ولكننى لا أملك غيرها .

فقال له الغلامان إنه سوف يحصل على ثياب جميلة فى المستقبل بعد أن يبدأوا مغامراتهم ، وجعلوه يفهم أن أسماله البالية تصلح للبدء فى المغامرات ، رغم أن العادة جرت على أن يبدأ القراصنة الأثرياء عملهم وقد ارتدوا أفخر ثيابهم !!

وأخذ حديث الغلمان الثلاثة يخفت شيئاً فشيئاً ، بعد أن بدأ النوم يداعب جفونهم . . وسقط الغليون من بين أصابع « ها كابرى فين » ، واستسلم للنوم ، شأنه فى ذلك شأن أى شخص نقى الضمير أضناه التعب . أما « فزع البحــار » و « المنتقم الأسود » فقد لاقيا صعوبة أكثر فى النوم . . فبعد أن أديا صلاتهما سراً ، تمددا فوق الأعشاب ــ والواقع ، أنهما كانا يفكران فى التخلى عن الصلاة تماماً ، ولكنهما خشيا الذهاب إلى مثل هذا المدى البعيد ، لئلا يؤدى ذلك إلى انقضاض صاعقة مفــاجئة من السماء !! . وبعدئذ ، بدأ النعاس يتسرب إلى جفونهما ــ ولكن دخيلا أقحم نفسه عليهما فى تلك اللحظة ، ولم يرض هذا الدخيل « بالخذلان » . . وكان هذا الدخيل هو الضمير . . فقد بدأ الغلامان يكابدان خوفاً مبهماً من أن يكونا قد ارتكبا إثماً كبيراً بفرارهما من أهلهما . ثم انتقل بهما التفكير بعد ذلك إلى اللحم الذى سرقاه ، وهنا بدأ عذابهما الفعلى . . حاولا أن يبررا فعلتهما بتذكير هذا الضمير بأنهما طالما سرقا الحلوى والتفاح عشرات المرات ، ولكن الضمير رفض أن يقتنع بمثل هذه المبررات الواهية . وفى النهاية خيل إليهما ألا سبيل أمامهما للتخلص من

الحقيقة الصامدة الصارخة ، ألا وهى أن الاستيلاء على الحلوى كان مجرد « خطف » ، فى حين أن الاستيلاء على اللحم وما يماثله من الأشياء الثمينة إن هو إلا سرقة !! — وهو أمر ينهى الإنجيل عن إتيانه . ومن ثم ، فقد عاهد كل منهما الآخر على أن يبذلا كل ما فى وسعهما من جهد لجعل القرصنة مهنة شريفة لا تفسد السرقة جلالها . . وهنا هجع الضمير . واستسلم القرصانان الناشئان للنوم العميق !

الفصل الرابع عشر

معسكر القراصنة السعيد

عندما استيقظ « توم » فى صباح اليوم التالى ، تملكه العجب ، و تساءل أين هو .. ثم استوى جالساً ، ومسح عينيه بيديه ، وتلفت حوله، وسرعان ما تذكر كل شىء . . كان ضوء الفجر لا يزال باهتا ، وكان هناك إحساس جميل بالهدوء والسلام فى ذلك السكون المريح الذى شمل الغابة كلهـــا . ولم يكن يعكر هدوء الطبيعة العظيم شىء ، فلا صوت ورقة شجر تهتز ، ولا أية جلبة أو صخب من ذلك اللون الذى يسود المدن عندما يستيقظ الأحياء . أما الندى ، فكان متجمعا على شكل قطرات من الماء فوق أوراق الأشجار والحشائش . . بينما تكونت طبقة من الرماد فوق النار التى كان ينبعث منها خيط رفيع من الدخان لا يلبث أن يبدده الهواء . . وكان « جو » و « هاك » لا يزالان يغطان فى نومهما .

وفى تلك اللحظة أطلق طائر بعيد نداءه المعتاد ، وفى التو أجابه طائر آخر على ندائه ، ثم لم يلبث « توم » أن سمع صوت طائر ينقر الخشب . وشيئاً فشيئاً أخذ ضوء الشمس المبكرة يتغلب على ضوء الفجر الداكن ،كما بدأت الأصوات تزداد وضوحاً ، وبذلك دبت الحياة فى الكون..ونفضت أعجوبة الطبيعة النوم عن نفسها ، وبدأت تؤدى عملها كاشفةً عن عظمتها للغلام الذى كان لا يزال مستغرقا فى التفكير ! . وأقبلت دودة صغيرة خضراء اللون تتلوى فوق ورقة شجرة مبللة بقطرات الندى ، وهى ترفع ثلثى جسمها فى الهواء من حين لآخر لتشم ما حولها ، ثم عادت فاستأنفت زحفها الحثيث . وعندما اقتربت الدودة من الغلام جمد هذا فى جلسته كالصخر ، وأخـــذت آماله تتألق وتخبو كلما تقدمت الحشرة منـــه أو

أبدت رغبة فى الابتعاد عنه — وأخيراً جاءت اللحظة الحرجة ، إذ راحت الدودة تفكر ، وقد انثنى جسمها فى الهواء ؛ ثم لم تلبث أن هبطت باصرار فوق قدم الغلام « توم » . وشعر الغلام بفيض من السعادة ، لأن الأساطير التى قرأها وسمعها كانت تقول إن الديدان فأل حسن ، وأن مَنْ تقترب منه دودة ، لابد أن يحصل على ملابس جديدة . وخيل إليـــه عندئذ أن هذه المـــلابس سوف تكون ولا شك ثياب قرصان فاخرة — وفى تلك اللحظة برز موكب من النمل من مكان مجهول ، ومضى فى عمله . وكانت نملة منها تكافح بقوة لتحمل عنكبوتا ميتا يزيد جرمه خمس مرات على جرمها . . كانت تحمله بين ذراعيها وتتسلق به جذع شجرة . وتسلقت خنفسة غامقة اللون نصل عود طويل من الحشائش ، فمال « توم » فوقها وقال لها : « أيتها الخنفسة . . أيتها الخنفسة . . امضِ إلى منزلك لأن النار مشتعلة فيه وأطفالك وحدهم » وانصاعت الخنفسة للنصيحة ومضت بعيدة عنه ! — ولم يدهش ذلك الغلام ، لأنه كان يؤمن منذ أمد بعيد أن هذه الحشرة تصدق كل شيء يقال عن الحرائق ، وكثيراً ما استغل الناس هذه البساطة فيها . . وبعد ذلك بدأت الحشرات والهوام تخرج من مكامنها وجحورها سعيا وراء رزقها ، وامتلأ الجو بزقزقة الطيور وتغريدها ، وفى تلك اللحظة رفرف أبو زريق بجناحيه فى الجو ، ثم هبط بحركة خاطفة واستقر فوق غصن قريب من « توم » ، وأدار وجهه ليتطلع إلى هؤلاء الغرباء باهتمام شديد . كما أقبل قرفدان ضخم سنجابى اللون أشبه بالثعلب ، كان يجلس بين الحين والحين ليتأمل الفتيان ويحدّق فيهم . ويبدو أن هذه الطيور والحيوانات لم تكن قد رأت إنسانا من قبل فى هذه الجزيرة الموحشة . . ومن ثم لم تكن تدرى أتخشى الناس أم تألفهم !! . . .

وفى تلك الأثناء كانت الطبيعة قد استيقظت تماماً ودبت فيها الحركة ، وبدأت أشعة طويلة من الشمس تتسلل من خلال أوراق الأشجار الكثيفة ، وحطت الفراشات فوق الزهور وراحت ترفرف بأجنحتها فى الهواء .

وأيقظ « توم » القرصانين الآخرين ، ثم انطلق ثلاثتهم مبتعدين وهم يهللون ، وبعد دقيقة أو اثنتين بدأوا ينزعون ثيابهم وهم يطاردون أحدهم الآخر ويتعثرون فى ركضهم حتى بلغوا الماء الضحل فوق الحاجز الرملى الأبيض .. لم يكن أحداً منهم يشعر بالحنين إلى القرية الصغيرة النائمة بعيداً وراء ذلك الفراغ المائى الكبير . ولاحظ الفتيان أن العائمة قد اختفت فرجحوا أن تياراً قوياً ، أو مداً بسيطاً ، حملها بعيداً ، وسرهم ذلك لأن اختفاءها كان بمثابة تحطيم القنطرة التى تصلهم بالمدينة .

وعادوا إلى معسكرهم وهم أشد ما يكونون نشاطا ، ومرحا ، وجوعا ، وسرعان ما أشعلوا ناراً .. وعثر « هاك » على نبع ماء بارد صاف قريب ، واستخدم الصبية أوراق شجر البلوط كأكواب يحصلون بها على الماء العذب . ولقد جعلتهم عذوبة الماء وجمال الطبيعة من حولهم لا يشعرون برغبة فى احتساء القهوة ، وبينما كان « جو » يعد شرائح اللحم لوجبة الإفطار طلب « هاك » و « توم » منه أن يتريث قليلا ثم التقطا سنارتيهما ، وتقدما نحو زاوية فى النهر ، غمرا فيها خيط السنانير ، وفى التو حصلا على نصيبهما من السمك . . وفرح الغلمان بصيدهم الثمين الذى هبط عليهم من السماء .

وما أن فرغوا من تناول طعام الإفطار ، حتى تمدد « توم » و « جو » فى الظل ، بينما انصرف « هاك » إلى التدخين ، وبعدئذ انطلقوا لاستكشاف الغابة ، فراحوا يطأون كتل الخشب (المتعفنة) ويتعثرون فى الحشائش المتشابكة وهم يضحكون ويمرحون .

وعثروا على أشياء كثيرة أثارت بهجتهم ، ولكنها لم تثر دهشتهم ، فقد اكتشفوا مثلا أن طول الجزيرة قرابة ثلاثة أميال ، وعرضها حوالى ربع ميل ، وأن القناة الضيقة التى تفصلها عن الساحل أشبه بحوض سباحة صغير !!

وعندما بدأت الشمس تنحدر نحو المغيب عادوا إلى معسكرهم وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث . بيد أنهم لم يلبثوا أن ضاقوا بالحديث فقللوا منه ثم لم يلبثوا أن كفوا عنه . ذلك أن السكون ، والهدوء والإحساس بالوحدة والوحشة ملأ نفوسهم بالقلق .. وسرعان ما أحسوا بالحنين إلى الوطن . ولكنهم خجلوا جميعا من إبداء ضعفهم ، ولم يجد أحدهم من الجرأة ما يسمح له بالحديث عن الحنين إلى الأهل والمدينة .

كان الفتيان قد بدأوا يسمعون صوتا غريبا مبهما صادراً من بعيد فترة من الوقت مثلما يسمع الإنسان أحيانا صوت الساعة فلا يلقى له بالا . ولكن هذا الصوت الغامض لم يلبث أن أصبح من القوة والشدة بحيث لم يعد فى استطاعتهم أن يتجاهلوه . وأجفل الصبية ، وتطلع كل منهم إلى الآخر ثم أصاخوا السمع .. كان الصمت شاملا فى تلك اللحظة ، ثم لم يلبث أن مزقه صوت مدفع قوى أطلق فى تلك اللحظة .

وصاح « جو » مبهوتا : ما هذا ؟

فاجاب « توم » هامسا : شد ما أعجب ماذا يكون هذا الصوت ؟

وقال « هاكلبرى » بلهجة تدل على الاضطراب : إنه ليس رعدا ، لأن للرعد ..

فقاطعه « توم » قائلا : صه ، أصيخا السمع وكفا عن الكلام .

وانتظروا بعض الوقت ، وخيل إليهم أن دهرا قد انقضى قبل أن يمزق السكون صوت المدفع مرة أخرى .

قال « توم » : هلموا بنا نذهب لنجلوا حقيقة الأمر .

ووثبوا واقفين ، وأسرعوا إلى الشاطىء المواجه للمدينة ، وأزاحوا الأعشاب النامية فوق الشاطىء جانبا وتطلعوا من بينها عبر الماء ، فرأوا العائمة الصغيرة على مبعدة ميل تقريبا من القرية وهى تتأرجح مع التيار ،

وبدا كأن ظهرها العريض غاص بالناس ، وكان هناك عدد كبير من القوارب على مقربة من العائمة ، ولكن الفتيان لم يستطيعوا أن يتبينوا ما يفعله أولئك الأشخاص الذين احتشدوا فوق القوارب ، وبعد لحظات انبعث من العائمة صوت مخيف أعقبته سحابة كثيفة من الدخان لم تلبث ان انتشرت فى الجو فصاح « توم » :

— لقد عرفت الحقيقة الآن .. إن شخصاً ما قد غرق !

فقال « هاك » : أصبت ، فقد رأيتهم يفعلون ذلك عندما غرق « بيل تيرنر » فى الصيف المنصرم . . إنهم يطلقون مدفعاً فوق سطح الماء حتى يجعلوا الغريق يطفو فوق صفحته . . كما أنهم يجلبون عدداً من أرغفة الخبز ويحشونها بالزئبق ويلقون بها فى الماء فتطفو ، إذ أنهم يعتقدون أن هذه الأرغفة لا تلبث أن تمضى إلى المنطقة التى غرق فيها الشخص وتثبت هناك ! !

فقال « جو » : لقد سمعت مثل هذا القول ، ولكن شد ما أعجب ما الذى يجعل الخبز يفعل ذلك .

فقال « توم » : ليس الخبز هو الذى يفعل ذلك ، وإنما يرجع الفضل إلى ما يقوله الناس وهم يلقون بالخبز فى اليم ! !

فقال « هاك » : ولكنهم لا يقولون شيئاً فى هذه المناسبات ، فقد شهدت بعضها بنفسى .

فقال « توم » : هذا أمر عجيب .. لعلهم يقولون تعاويذهم سراً !

ووافق الغلامان الآخران على أن ما قاله « توم » معقول ، لأن رغيف الخبز « الجاهل » الذى لا توجهه تعويذة ، لا يمكن أن يتصرف بمثل هذا الذكاء عندما يعهد إليه بمثل هذه المهمة الخطيرة ! !

قال « جو » : يا للشيطان ! ليتنى كنت معهم !

فأردف « هاك » : وأنا أيضا . . إنى على استعداد لأن أدفع الشىء الكثير مقابل معرفة شخصية الغريق .

واستمر الفتيان فى الإصغاء والمراقبة . وبعد قليل طرأت على « توم » فكرة فصاح :

— لقد علمت من الغريق أيها الفتيان . . إنه نحن !

وفى التو ، طغى عليهم شعور بالبطولة . ها هم قد حققوا نصرا مؤزرا . فقد افتقدهم الجميع فحزنوا عليهم . . إن قلوب أهل القرية جزعة من أجلهم والدموع تنهمر بسببهم . . لا شك فى أن من أساءوا إلى هؤلاء الفتيان المساكين، بدأوا يتعذبون ، بعد أن تذكروا كيف كانوا يعاملونهم بلا شفقة أو رحمة ؛ ويأسفون على ما جنت أياديهم . وأحس الغلمان الثلاثة أنهم أصبحوا حديث أهل المدينة جميعاً ، فشعروا بالفخار ، وأيقنوا أن القرصنة عمل رائع !

وعندما انتشر الظلام ، عاد القراصنة إلى معسكرهم ، وهم يشعرون بالزهو والغرور لما اتصفوا به من عظمة وما سببوه من متاعب !! واصطادوا سمكا طهوه وأطعموا به ، ثم راحوا يتخيلون ما يقوله أهل المدينة عنهم ! ولقد شعروا بارتياح شديد ، حينما أخذوا يرسمون صوراً للجزع العام الذى سببه اختفاؤهم لأهل القرية — من وجهة نظرهم ! .. ولكن عندما شملتهم ظلمة الليل كفوا عن الكلام ، وظلوا يحـــدقون فى النار ، وقد شرد تفكيرهم !! ولم يستطع « جو » و « توم » أن يطردا عنهما شبح الحنين إلى الوطن ! ولم يلبث الحنين أن تحول إلى اضطراب وشقاء ، فانفلتت التنهدات من بين شفتيهما بدون أن يفطنا إليها . . وشيئا فشيئاً بدأ « جو » يحوم فى حديثه بحذر حول ما عسى أن « يشعر » به الآخرون عندما يرونهم عائدين إلى الوطن بعد مغامرتهم الباسلة .

وانكمش « توم » نافراً من الفكرة » . . . وانضم « هاك » سريعاً إلى

« توم » فى معارضة الفكرة ، فأسرع « جو » يوضح لهما موقفه ، ويؤكد لهما أنه لم يشعر إطلاقا بالحنين إلى الوطن . . وهكذا قمع العصيان فى مهده .

وعندما مضى بعض الليل ، بدأ النعاس يداعب جفنى « هاك » ، ولم يلبث أن ارتفع غطيط الغلام . وسرعان ما حذا « جو » حذوه . . . أما « توم » فقد ظل ممدداً فوق بطنه ، وقد اعتمد ذقنه بيديه ، وراح يراقب زميليه باهتمام وأخيراً نهض واقفاً بحذر ، وأخذ يبحث بين الحشائش — على ضوء النار المشتعلة — حتى عثر على عدد من لفافات اب الشجر الرفيعة ، ففحصها بعناية ، ثم اختار منها اثنتين ، خيل له إنهما يلائمان الغرض الذى يسعى إليه . . وركع بجوار النار ، واستعان بأداة حادة ليكتب شيئا على كل من اللفافتين بعد أن نشرهما أمامه . ثم لف إحداهما ووضعها فى جيب سترته ؛ أما الأخرى فقد وضعها فى قبعة « جو » بعد أن أبعدها قليلا عن صاحبها ، كما وضع فى القبعة بعض كنوزه المدرسية التى يعتز بها أشد الاعتزاز — وكان من بين هذه الكنوز قطعة من الطباشير ، وممحاة على شكل كرة ، وثلاث سنانير ، و « بلية » من الرخام . . ثم سار فوق أصابع قدميه مبتعدا بحذر بين الأشجار حتى تأكد من أنه أصبح بعيدا عن نطاق السمع ، وعندئذ انطلق يركض فى اتجاه الحاجز الرملى . .

الفصل الخامس عشر

« توم » يزور المنزل خلسة !

بعد دقائق قليلة ، كان « توم » يخوض فى ماء الحاجز الضحل فى طريقه إلى شاطىء « النيوى » ، وقبل أن يبلغ منتصف الحاجز ، أخذ التيار يعاكسه . ومن ثم طفق يسبح بثقة وقوة حتى قطع المائة الياردة التى تفصله عن الشاطىء المقابل ، فلما بلغه وضع يده فى جيب سترته ، فعثر على لفة لباب الشجر سليمة ، وعندئذ دلف إلى الغابة وهو يتتبع الشاطىء ، والماء يتقاطر من ثيابه . وقبل أن تبلغ الساعة العاشرة بقليل ، خرج إلى منطقة مكشوفة مواجهة للقرية ، فرأى عائمة بخارية راسية فى ظل الأشجار والساحل المرتفع . كان كل شىء هادئاً تحت النجوم المتألقة ، وزحف الغلام حتى بلغ الشاطىء وهو يتطلع فى كل اتجاه بحذر شديد ، ثم تسلل إلى الماء ، وسبح قليلا حتى وصل إلى العائمة فتسلقها . . وانكمش أسفل عوارضها وانتظر بصبر .

وبعد قليل دق ناقوس العائمة ، وأصدر شخص أمرا « بالإبحار » ، وإن هى إلا دقيقة أو نحوها حتى تحركت العائمة وبدأت رحلتها . وشعر « توم » بسعادة غامرة لما حققه من نجاح ، لأنه كان يعلم أن هذه هى آخر رحلة للعائمة فى تلك الليلة . وبعد قرابة ربع ساعة ، توقفت العائمة عن الحركة ، فتسلل « توم » من مكانه ، وهبط إلى الماء ، ثم سبح إلى الشاطىء فى الظلام . وخرج عند نقطة تبعد عن العائمة حوالى خمسين ياردة ليكون بمأمن من عيون الرقباء .

وانطلق فى الطرقات غير المطروقة ، وبعد دقائق ألفى نفسه أمام السياج الخلفى لمنزل عمته ، فتسلقه ، وتقدم من البناء الملحق بالمنزل ، وتطلع من

نافذة غرفة الجلوس ؛ فقد كان الضوء ينبعث منها ، وعندئذ رأى العمة « بولى » و « سيدنى » و « مارى » وأم « جو هاربر » جالسين فى الحجرة. وهم يتحدثون . . كانوا يجلسون بجوار الفراش . وكان الفراش يفصلهم عن الباب . ومن ثم فقد تقدم « توم » من الباب ، وبدأ يرفع مزلاجه برفق ، ثم ضغط الباب بلطف ، ففتح قليلاً ، واستمر الغلام يدفع الباب بحذر وينتفض كلما صدر عنــــه صرير ، حتى اطمأن إلى أن فى إمكانه أن يسترق السمع !

قالت العمة « بولى » : ما الذى يجعل لهب الشموع يهتز هكذا . ؟

وأسرع « توم » بالدخول . . واستطردت عمته تقول : ما هذا ؟ إن الباب مفتوح . . نعم ، إنه مفتوح . . لست أدرى إلى متى ستحدث هذه الأشياء الغريبة . . هيا اذهب واغلقه يا « سيدنى » !

واختفى « توم » أسفل الفراش فى الوقت المناسب . وقبع فى مكانه بعض الوقت ريثما تهدأ أنفاسه ، ثم زحف حتى كاد يلمس قدمى عمته .

قالت العمة « بولى » : كنت أقول إنه لم يكن شريراً . . كان (شقياً) فقط . . نعم ، كان طائشاً فحسب . . إنه لم يكن يقصد تحطيم قلبى ، كما أنه كان أطيب الصبيان قلباً . . ويجب علينا ألا نحمّله من المسئولية أكثر مما ينبغى .

وبدأت العمة « بولى » تنتحب . . فقالت « مسز هاربر » :

— كذلك كان الأمر بالنسبة لابنى « جو » . . . كان (شقياً) أبعــد ما تكون الشقاوة ، ولكنه لم يكن أنانياً . وكان عطوفاً — فليغفرلى الله ما عاملته به من قسوة ، فقد ضربته بالسوط لأنه شرب القشدة (الكريمة). وكنت قد نسيت أن أتخلص منها لأنهــــا فسدت . ولكنى لن أراه مرة أخرى فى هذا العالم . . لن . . لن . . مسكين هذا الغلام !

وبدأت « مسز هاربر » تبكى بحرقة خيل لتوم أن قلبها يوشك أن ينفجر .

فقال « سيدنى » : أرجو أن يكون « توم » سعيداً حيث هو الآن . . ولكن كان ينبغى . . .

فقالت العمة « بولى » بلهجة جعلت « توم » يعتقد أن عمته تتطلع شذراً إلى « سيدنى » :

— « سيدنى » ! لا تنطق بكلمة واحدة ضد « توم » ، ما دام قد رحل عنا ! إن عناية الرحمن ترعاه . . ولا تزعج نفسك من أجله يا سيدنى ! أوه . . يا « مسز هاربر » ، لست أدرى كيف أنساه وأستسلم للقدر ! لست أدرى ! لقد كان مصدر الراحة لقلبى ، رغم ما كان يبديه من عبث يعذبنى .

ثم قالت والدة « جو » :

— « الرب أعطى . . الرب أخذ — فليكن اسم الرب مباركا ! »(١) لكن الموقف عصيب مؤلم — أواه ! إنه موقف شديد الإيلام ! ففى يوم السبت الماضى فقط « فرقع » ابنى « جو » كبسولة أمامى فلطمته بعنف فسقط على الأرض . . إننى لم أكن أعلم أننى سأفقده عما قريب . . أواه ! لو أن الأيام عادت القهقرى ثانية ، لاحتويته بين أحضانى وباركته على ما فعل !

— نعم . . نعم . . نعم . . إنى أقدر إحساسك حق قدره يا « مسز هاربر » . . فعند ظهر أمس ، أمسك « توم » بالقطة وملأ جوفها بالدواء (قاتل الألم) حتى خيل إلىّ أن القطة سوف تحطم المنزل تحطيما . . فليرحمنى الله . . فقد (قرصت) أذن « توم » المسكين بعنف . . « توم »

---

(١) منقولة عن آية وردت فى الإنجيل استخدمها المؤلف بنصها .

المسكين الميت .. ولكنه تخلص من جميع متاعبه الآن .. لقد كانت آخر كلمات سمعتها منه تأنيباً .. .

ولم تحتمل أعصاب المرأة العجوز هذه الذكرى ، فانخرطت فى بكاء شديد . . أما « توم » فقد أحس فى تلك اللحظة بالأسف من أجل نفسه أكثر من إحساسه به من أجل أى شخص آخر . . وكان فى استطاعته أن يسمع « مارى » وهى تنتحب وتنطق بكلمة تكشف عن عطفها عليه بين حين وآخر . وعندئذ بدأ يعتبر نفسه أنبل مما كان يظن فى أى يوم من الأيام . . ولقد طغى عليه التأثر لما أبدته عمته من حزن مفرط ، حتى لقد كان يتمنى لو أنه اندفع خارجاً من تحت الفراش ليشبعها لثماً وتقبيلا . . ولكنه دفع عن نفسه هذا الخاطر على الفور !

ومضى « توم » يصغى ، فاستطاع أن يعلم من الحديث الذى دار بين السيدتين أن أهل القرية ظنوا بادىء الأمر أن الغلامين — « توم » و « جو » — ذهبا ليستحما فى النهر فغرقا ، ولكن ما أن اكتشف اختفاء العائمة ، وما أن ذكر بعض الغلمان أن الصبيين المفقودين كانا قد قالا أن القرية سوف « تسمع أنباء هامة عما قريب » ، حتى أدرك الجميع أن الغلامين هربا بالعائمة وأنهما لن يلبثا أن يظهرا فى المدينة المجاورة عما قريب . ولكن العائمة وُجدت عند الظهر مرتطمة بشاطىء المسيسبى على مبعدة قرابة خمسة أو ستة أميال جنوب القرية — وعندئذ ضاع الأمل . وأيقن الجميع أن الغلامين لا بد قد غرقا ، وإلا فإن الجوع كان خليقاً بأن يحملهما على العودة إلى المنزل عند حلول الظلام ، إن لم يكن قبل ذلك . . وكان المعتقد أن البحث عن جثتيهما يعتبر مجهوداً ضائعاً ، لأنهما إذا كانا قد غرقا فلا بد أنهما غرقا فى قلب التيار ، كما أنهما كانا يجيدان السباحة ، وبذلك كان بوسعهما أن يصلا سالمين إلى الشاطىء ما لم يجرفهما التيار . . وإذا كان ذلك فى ليلة الأربعاء ، قدَّر سكان القرية أنه اذا ظل الغلامان غائبين حتى يوم

الأحــــد ، فلن يكون هناك ثمة أمل فى العثور عليهما ، ومن ثم تقام لهما صلاة الموتى فى صباح ذلك اليوم .

وانتفض « توم » . . .

ونهضت « مسز هاربر » متثاقلة ، وتعانقت المرأتان وهما تنتحبان ، ثم حاولت كل منهما أن تهدىء من روع الأخرى . . وأخيراً افترقتا . . ولقد كانت العمة « بولى » رقيقة بشكل لم يسبق له مثيل عند ما حيت « سيدنى » و « مارى » قبل ذهابها إلى مخدعها ولاحظ « توم » أن « سيدنى » كان شامخاً بأنفه ، بينما كانت « مارى » تبكى بحرقة .

وركعت العمة « بولى » على ركبتيها وراحت تصلى من أجل « توم » بحرارة ، وكانت كلماتها تكشف عن حب عميق ، كما كان صوتها مؤثراً حتى لقد انهمرت الدموع بشدة من عينى الغلام قبل أن تفرغ عمته من صلاتها .

واضطر « توم » إلى التزام السكون فترة طويلة بعد أن صعدت عمته إلى فراشها لأنها كانت لا تفتأ تتنهد بقوة ، وتتقلب من جنب إلى آخر ، وتنطق بكلمات مفعمة باللوعة والحزن ولكن النوم لم يلبث أن غلبها على أمرها فاستسلمت له . . وعندئذ تسلل الغلام من مخبأه ، ونهض ببطء حتى وقف بجوار الفراش ، وظلل الشمعدان بيده ، وراح يتأمل عمته وقد أفعم قلبه بالعطف عليها ، ثم أخرج اللفافة المكتوبة من جيبه ووضعها بجوار الشمعدان ، ولكن خاطراً طرأ على باله ، جعله يتريث طويلا ، ثم أسرع فأعاد اللفافة إلى جيبه على عجل ، وتهلل وجهه فى تلك اللحظة ، فقد استقر رأيه على أمر . وفى اللحظة التالية انحنى وقبل شفتى عمتـــه النائمة بحذر ، وبعدئذ تسلل من الباب بهدوء وأغلقه خلفه بالمزلاج .

وعاد أدراجه إلى مرسى العائمة ، وإذ لم يجد بها أحداً ، صعد إلى سطحها بشجاعة ، لأنه كان يعلم أن حارسها الهرم اعتاد أن ينتهز كل فرصة تسنح له

الاستمتاع بإغفاءة طويلة يود لو أنها استمرت إلى الأبد!! . وفك السلسلة التى تشد العائمة إلى الشاطىء ، وبعد لحظات كان يجدف بحذر مبتعداً بالعائمة عن القرية ، فلما أصبحت المسافة بينه وبين القرية ميلا ، بدأ يعمل بكل نشاط حتى استطاع أن يصل إلى البر الثانى ، بسهولة فقد كان مثل هذا العمل مألوفاً لديه ، وأحس برغبة ملحة تدعوه إلى الاستيلاء على العائمة ، وراح يجادل نفسه قائلا أنه يمكن اعتبارها سفينة ، ومن ثم فإنها تكون غنيمة مشروعة للقرصان ، ولكنه كان يعلم أن أصحابها لن يلبثوا أن يقلبوا الأرض بحثاً عنها ، وقد يؤدى ذلك إلى افتضاح أمره وأمر زميليه ، ومن ثم فقد هبط منها إلى الشاطىء ، وتركها وشأنها ، ثم سار مسرعاً نحو الغابة .

وجلس فترة طويلة ريثما يستريح ، وبذل مجهوداً جباراً حتى يظل مستيقظاً ، وبعدئذ بدأ رحلته إلى المعسكر ، وكان الليل قد أوشك على الانتهاء . وعندما وصل إلى الحاجز كان النهار قد طلع ، فاستراح ثانية حتى ارتفعت الشمس فى كبد السماء ، ثم عبر النهر سباحة ، وبعد قليل وقف على أبواب المعسكر وثيابه تقطر ماء ..

وسمع « جو » يقول : كلا يا « هاك » .. إن « توم » غلام شريف ، سوف يعود ثانية .. إنه لن يهرب ، لأنه يعلم أن الفرار عمل شائن بالنسبة للقرصان ، و « توم » شديد الكبرياء من هذه الناحية . . لا أشك فى أنه ذهب ليأتى لنا بشىء ما .. ترى ما هذا الشىء ؟

— على أية حال ، اعتقد ان هذه الأمتعة أصبحت ملكاً لنا . أليس كذلك ؟

— تقريباً ولكن ليس بصفة نهائية .. فإن الرسالة تقول إن هذه الأشياء تصبح ملكاً لنا إذا لم يعد فى موعد تناول الإفطار .

وصاح « توم » وهو يبرز من خلف إحدى الأشجار ، ويتقدم بعظمة وخيلاء نحو المعسكر :

— ولقد اوفيت بوعدى

وتناول الفتيان طعاماً شهيا مكونا من السمك واللحم المقدد ، وراح « توم » يقص على زميليه أنباء مغامرته بكثير من التنميق ، وعندما انتهت قصته كانوا جميعا يشعرون بأنهم أبطال ، وبعدئذ اختفى « توم » فى ركن ظليل لينام حتى الظهر ، أما القرصانان الآخران فقد استعدا لصيد السمك والاستكشاف .

الفصل السادس عشر

الصبية يدخنون !

بعد أن تناولت الجماعة طعام الغذاء ، انطلقت تبحث عن بيض السلحفاة البحرية .. واستخدم الغلمان الثلاثة العصى فى البحث عن هذا البيض المدفون فى الرمل وكانوا كلما عثروا على بقعة لينة جثوا فوق ركبهم وحفروا بأيديهم ، وفى بعض الأحايين كانوا يخرجون عددا يتراوح بين خمسين وستين بيضة من حفرة واحدة ، وكان هذا البيض أشبه بكرات صغيرة بيضاء أصغر حجماً من الجوز الإنجليزى ، وفى تلك الليلة تناول الفتيان عشاء شهياً مكونا من البيض المقلى . كما تناولوا وجبة إفطار رائعة منه أيضا فى صباح يوم الجمعة .

وبعد أن فرغوا من تناول طعام الإفطار انطلقوا يتصايحون ويتواثبون فوق الحاجز الرملى ، يطارد أحدهم الآخر فى دوائر واسعة وهم يخلعون ثيابهم أثناء عدوهم حتى أصبحوا عرايا ، واستمروا فى هذه المطاردة وهم يخوضون فى الماء الضحل ، ثم فى قلب التيار القوى الذى لم يلبث أن أفقدهم توازنهم ، فكانوا يسقطون على وجوههم فى الماء فيزدادون مرحا وصخبا . . وكانوا يتجمعون معا من آن لآخر ، فيقذف كل منهم وجه صاحبيه بالماء ، ويحاول كل منهم أن يخل بتوازن زميليه فيسقطون جميعاً فى الماء وقد تشابكت سيقانهم وأياديهم البيضاء ، ثم يصعدون إلى سطح الماء وهم يضحكون ويشهقون فى وقت واحد !

وعندما كان الإعياء يستولى عليهم ، كانوا يخرجون من الماء ويركضون على الشاطىء ، ثم يتمددون فوق الرمل الجاف الدفىء ، ويغطون أجسامهم بطبقة من هذا الرمل ، وما يكادوا يستريحون حتى يستأنفوا السباحة والعبث

سيكون شعوركما عندما تعثران على صندوق عتيق مملوء بالذهب والفضة ؟

ولكن ذلك لم يثر فى الغلامين إلا قدرا ضئيلا من الحماس لم يلبث أن اختفى . كما أن أحدا منهما لم يجب على سؤال « توم » . . وحاول « توم » أن يثير حماس الغلامين بشتى الوسائل ، ولكنه أخفق ، فقد راح « جو » يعبث بالرمل بعصاه القصيرة . وقد بدت على وجهه علامات الاكتئاب الشديد ، وأخيرا قال « جو » :

— كفى مغامرة ، ولنعد إلى المنزل فإن .. فإن العزلة هنا لا تطاق

فقال « توم » : أوه كلا يا « جو » سوف تتحسن حالتك ألا تفكر فى صيد السمك هنا ؟

— لست أعبأ بصيد السمك . . إننى أريد العودة إلى المنزل

— لكنك لن تجد مكانا يصلح للسباحة كهذا المكان .

— إننى لا أهتم كثيرا بالسباحة .. وما كنت لأمارسها لولا أننى أرغمت على ذلك ، ومهما يكن الأمر ، فإننى مصمم على العودة إلى المنزل .

— كفى هذيانا أيها الطفل ! أكبر الظن أنك تريد أن ترى أمك !

— نعم اريد أن أرى أمى — إنك لا تشعر بقوة الحنين إلى الأم . لأنك لا أم لك !!

وشمخ « جو » بأنفه قليلا ، فقال « توم » ساخرا :

— حسنا ، فلندع الطفل الباكى يرجع إلى أمه أليس كذلك يا « هاك » مسكين هذا الطفل — إنه يريد أن يرى أمه ! ليكن ما يريد . . إنك تحب هذا المكان يا « هاك » .. أليس كذلك ؟ سنبقى إذن .. ألا توافقنى؟

فقال « هاك » بلهجة يشوبها التردد : نعم .. نعم ..

وقال « جو » وهو ينبعث واقفا : لن أخاطبك يا « توم » ما حييت ، إننى ذاهب .

وابتعد عن زميله وشرع يرتدى ثيابه

فقال « توم » . لست آبه لذلك ! إن أحداً لا يريد منك أن تخاطبه . . عد إلى القرية لكى يسخر الجميع منك . يا لك من قرصان جرىء شجاع !! أما « هاك » . . وأنا فلسنا طفلين باكيين . دعه يذهب إذا أراد يا « هاك »... فأ كبر ظنى أننا نستطيع أن نمضى فى حياتنا هنا بدونه .

ورغم ذلك كان « توم » يشعر بالقلق ، وقد أفزعه أن يرى « جو » يمضى فى ارتداء ثيابه بغير اكتراث .. وزاد قلقه حينما لاحظ أن « هاك » يتأمل استعداد « جو » للرحيل بحسد ، لا تنذأ بصمت لا يبشر بالخير ، وأخيراً وبغير كلمة وداع ، بدأ « جو » سيره ، نحو شاطىء « الينوى » فغاص قلب « توم » بين جنبيه ، وتطلع إلى « هاك » . ولم يستطع « هاك » احتمال نظرته ، فغض من بصره .. ثم قال :

— أنا أيضاً أريد أن أمضى . . كانت الوحدة هنا لا تطاق منذ بادىء الأمر ؛ وأحسب أننا لن نطيقها بعد اليوم . . دعنا نذهب أيضاً يا « توم » .

— كلا . . لن أذهب . . يمكنكما أن تذهبا إن شئتما . أما أنا ، فلن أغادر هذا المكان .

— « توم » . . يحسن بى أن أمضى .

— حسناً . . اذهب . . مَنْ الذى يمنعك ؟

وبدأت « هاك » يلتقط ثيابه المبعثرة . . وقال :

— لكم أتمنى أن تأتى معنا يا « توم » .. وعلى أية حال سوف ننتظرك عند الشاطىء !

فقال « توم » : يمكننى أن أقول لك إنكما ستنتظران طويلا !

وابتعد « هاك » آسفا .. وبقى « توم » يتبعه بنظره ، وقد طغت عليه

رغبة جارفة فى التخلى عن كبريائه والانضمام إلى زميليه .. وكان يأمل أن يتوقف الغلامان عن سيرهما ، ولكنهما مضيا لا يلويان على شىء. وفجأة خيل لتوم أن وحشة المكان وهدوءه أصبحا لا يطاقان . ولكنه ناضل كبرياءه نضالا جبارا ، وأخيراً انطلق فى إثر صديقيه وهو يصيح :

وانتظرا ! انتظرا ! فإنى أريد أن أقول لكما شيئاً !

وتوقف الغلامان عن السير ، وتحولا إليه . وعندما لحق بهما ، بدأ يكشف لهما عن السر ، فأصغيا إليه بهدوء ، حتى إذا ما فطنا إلى الهدف الذى كان يرمى ، راحا يطلقان صيحات الحرب ، ويصفقان فى مرح قائلين إن الفكرة « رائعة » ! ثم أضافا أنه لو كان قد حدثهما بجلية الأمر منذ البداية ، لما فكرا فى الرحيل . وفى الحق أن « توم » لم يُفْضِ إليهما بالسر الحقيق خشية ألا يجعلهما هذا السر يبقيان معه طويلا . . ومن ثم حرص على إبقاء سره الدفين طى الكتمان ليستعمله كوسيلة إغراء نهائية !

وعاد الغلامان أدراجهما إلى معسكرهما وقد استبد بهما الفرح . واستأنفا رياضتهما : وراحوا جميعا يتجاذبون أطراف الحديث فى خطة « توم » الرائعة ، ويبدون إعجابهم بما انطوت عليه من عبقرية . وبعد أن تناولوا عشاء مكونا من البيض والسمك قال « توم » إنه يريد أن يتعلم التدخين وأعجبت الفكرة « جو » فقال إنه يرغب أيضاً فى تجربة التدخين . وفى التو أعد « هاك » لهما غليونين حشاهما بالتبغ . ولم يكن الغلامان قد مارسا التدخين من قبل .. فتمددا على الأرض ، وارتكزا على مرفقيهما وراحا يدخنان . . وكان للدخان طعم غير مستساغ ، ومن ثم فقد زمّا شفتيهما قليلا ، ولكن « توم » قال :

— إن التدخين أمر سهل جداً ! لو أننى كنت أعرف أن ذلك هو كل ما فى الأمر لتعلمته منذ أمد طويل .

وقال « جو » : وأنا كذلك .. إنه عمل بسيط جداً .

فقال « توم » : لطالما تأملت القوم الذين يدخنون وتمنيت أن أحذو حذوهم ، ولكن لم يخطر ببالى مطلقا أننى أستطيع مجاراتهم .

فقال « جو » : ذلك هو شأنى أيضاً .. أليس كذلك يا « هاك » ؟ ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ !

فقال « هاك » : نعم لقد قلت لى ذلك مرارا وتكراراً .

فقال « توم » : وأنا أيضاً قلته لك مئات من المرات . . وقلته لك مرة ونحن عند الجزر . . ألا تذكر ذلك يا « هاك » ؟ لقد كان « بوب تانر » و « جونى ميلر » و « جيف تاتشر » موجودين عندما قلت ذلك . . هل تذكر ذلك يا « هاك » ؟

فأجاب « هاك » : نعم هذا صحيح . لقد كان ذلك فى اليوم اللاحق لليوم الذى فقدتُ فيه المدية البيضاء . . كلا . بل كان ذلك فى اليوم السابق له .

فقال « توم » ها هو « هاك » يذكر المناسبة .

وقال « جو » : أعتقد أن فى استطاعتى أن أدخّن الغليون طوال النهار . فإننى لا أشعر بأى دوار .

فقال « توم » : ولا أنا أيضاً . . إننى أستطيع أن أمضى فى التدخين .. طوال اليوم ، ولكنى أراهن على أن « جيف تاتشر » لا يستطيع ذلك .

— « جيف تاتشر » ! لا شك فى أنه سيسقط إعياء إذا حاول التدخين !

دعه يجرب وسوف يرى !

— نعم .. سوف يرى .. وكذلك « جونى ميلر » كم أود أن أرى « جونى ميلر » يدخن الغليون !

فقال « جو » : إننى أراهن على أن « جونى ميلر » لا يستطيع أن يدخن الغليون .. إن نفساً واحداً كفيل بأن يطرحه أرضا !

— بالطبع يا «جو» ... بودى لو استطاع الصِبية أن يشاهدوا ما نفعل الآن !

— وأنا أيضاً بودى ذلك .

وهنا تدخل «هاكلبرى» فى الحديث قائلا :

— هل أدلكم على طريقة تجعلكم أبطالا فى نظر هؤلاء الصبية ؟ .. عندما نعود إلى «الوطن» ، سوف أسألك أمامهم : هل معك غليون ياه جو» ؟ . إننى أريد أن أدخن ، فتقولَ بلهجة تشف عن عدم المبالاة كما لو كان الأمر تافهاً .. تقول «نعم . إن معى غليونى القديم ، وغليونا آخر ، ولكن التبغ الذى معى ليس جيداً» .. فأقول : «أوه .. حسناً يكفى أن يكون قوياً بدرجة كافية» .. وعندئذ تخرج الغليونين ، ويشعل كل منا غليونا ، ثم نراقب النظارة !

— يا إلهى ! سوف يكون ذلك متعة مدهشة ... بودى لو حدث ذلك الآن !

وقال «توم» :

— وأنا أيضاً أود ذلك .. ثم ألا تظن أنهم سوف يتمنون لو أنهم كانوا معنا عندما نقول لهم إننا تعلمنا التدخين حينما كنا نلعب دور القراصنة ؟

— أراهن على أنهم سوف يتمنون ذلك !

وعلى هذا النحو سار الحديث ، ولم يلبث أن فتر بعد قليل ، ثم تقطع ، وطالت فترات الصمت ، وكثر بصاق الغلامين «توم» و «جو» ، وأصبحت جميع مسام خديهما أشبه بينبوع ماء متدفق ، ولم يستطيعا السيطرة على اللعاب الغزير الذى بدأ ينساب من أسفل لسانيهما ، ويجرى فى حلقيهما ، واصفر وجهاهما ، وبدت عليهما علامات الضيق والتعاسة . ولم يلبث

غليون « جو » أن سقط من بين أصابعه التى فقدت إحساسها العصبى ، وأعقبه غليون « توم » . . وما لبث « جو » أن قال بإعياء :

— لقد فقدت مديتى ، وأظن أنه يحسن بى أن أذهب للبحث عنها

فقال « توم » بشفتين مرتعشتين وفى كلمات متقطعة :

— سأعاونك فى البحث عنها . . إمض أنت فى هذا الطريق وسأمضى أنا فى ذاك .. أما أنت « يا هاك » فابق حيث أنت !

وهكذا لزم « هاك » مكانه .. ومضت ساعة ، ولم يعد الغلامان . وعندما أحس « هاكلبرى » بشدة وطأة الوحدة ، مضى يبحث عن زميليه . . . ووجدهما فى مكانين متباعدين فى الغابة ، وكان كل منهما مصفر الوجه وهما مستغرقان فى نوم عميق .

ولم يكثر الغلامان من الحديث فى تلك الليلة . وكانت نظراتهما تدل على الضيق ، وعندما أعد « هاك » غليونه بعد العشاء ، وشرع يعد لهما غليونيهما ، رفضا ذلك قائلين إن حالتهما الصحية ليست على ما يرام — وأضافا أنهما يعتقدان أن شيئا ما فى الطعام الذى تناولاه لم يلائم معدتيهما.

واستيقظ « جو » حوالى منتصف الليل ونادى زميليه . . . كان الجو شديد الركود ، مقبضاً ينذر بالشر . . وتجمع الصبية معاً ، واقتربوا من النار ، رغم أن الجو كان حاراً يكتم الأنفاس . . وجلسوا جامدين ، وهم يصيخون السمع ويترقبون .. واستمر الصمت الكئيب . وفيما وراء نطاق النار المشتعلة كان الظلام دامساً . وفجأة ، ومض ضوء أنار الغابة كلها ، ثم اختفى . . وبعد لحظة ، ومض الضوء مرة أخرى ، وكان أقوى قليلا فى هذه المرة ، وأعقبته ومضة ثالثة ، وعلى أثر ذلك سمع الفتيان صوتا أشبه بتأوه ضعيف يتردد بين أغصان الأشجار ، وأحسوا كأن أنفاسا عابرة تلفح وجوههم ، فانتفضوا جزعاً .. فقد توهموا أن روحا خفية مرت بهم . ثم سادت فترة من الصمت . ولكن لم تلبث ومضات الضوء أن تتابعت جاعلة

من الليل نهاراً ، فصاروا يميزون أعواد الحشائش التى حولهم بوضوح ..
أما الفتيان أنفسهم ، فقد اصفرت وجوههم . وفى اللحظة التالية اهتزت
الأرض إثر هزيم رعد شديد أخذ يتحرك بطول السماء وعرضها ليتلاشى
على البعد السحيق . . وهبت ريح باردة محملة بالبرد الصغير الذى غطى
أوراق الأشجار وتناثر فوق النار المشتعلة . . ثم ومض البرق بشدة ، وأعقبه
صوت انفجار مخيف جعل الفتيان يعتقدون أن الأشجار سوف تقتلع
من جذورها وتسقط فوق رؤوسهم ، فتشبث كل منهم بالآخر بقوة
وفزع ، ثم أظلمت الدنيا مرة أخرى ، وبدأت قطرات كبيرة من المطر
تتساقط فوق الأشجار !

صاح « توم » : هلموا بنا إلى المعسكر سريعا !

ووثبوا مبتعدين وهم يتعثرون فى الحشائش المتشابكة . . ودوى هزيم
الرعد بعنف بالغ مرة أخرى ، فجعل كل شىء فوق الأرض يترنح ويتأرجح ،
واشتدت قوة الريح ، وومض البرق متتابعاً متلاحقاً ، وتحول المطر إلى
سيل جارف ، وراح الفتيان ينادون أحدهم الآخر ، ولكن هزيم الرعد
وشدة تساقط المطر أغرقت أصواتهم تماماً . بيد أنهم استطاعوا فى النهاية
أن يلوذوا بالمعسكر ، وهم ينتفضون من شدة البرد ومن الفزع ، بينما كانت
ثيابهم تقطر ماء .. إلا أن تجمعهم معاً أشاع الطمأنينة فى قلوبهم . . وتعذر
عليهم أن يسمع أحدهم الآخر لأن الشراع العتيق كان يرفرف بقوة ، محدثاً
ضوضاء عالية .. واشتدت العاصفة عنفاً ، وسرعان ما انفصل الشراع من
مكانه وطار مع العاصفة ، فأمسك الفتيان كل منهم بيدى زميله ، وركضوا
هاربين ، فأصيبوا بجروح وخدوش كثيرة وهم يتعثرون ، إلى أن استطاعوا
الوصول إلى شجرة بللوط ضخمة عند شاطىء النهر فاحتموا بها . . وكانت
العاصفة قد بلغت ذروتها فى تلك الأثناء ، وظل وميض البرق يضىء السماء .

بينما ثار ماء النهر وهدر ، وراح رذاذه يتطاير إلى مسافات بعيدة . . . . ولاحظ الفتيان أن أشجاراً كثيرة لم تحتمل وطأة العاصفة ، فاستسلمت وانهارت من جذورها ساقطة على الأشجار الصغيرة . . وازداد قصف الرعد عنفاً حتى صم الآذان . . وتآزرت جميع عناصر الطبيعة الغاضبة كأنما تريد أن تحشد قواها لتمزق الجزيرة ، وتحرقها ، وتغرقها ، وتصم أذنى كل كائن حى على ظهرها . . كانت ليلة مروعة للفتيان الصغار الذين لا مأوى لهم .

وأخيراً ، خفت وطأة العاصفة . . وأخذت قوى الطبيعة الغاضبة تنكمش رويدا رويدا . . وبدأ السلام والهدوء يعودان إلى الجزيرة مرة أخرى . . وعاد الفتيان إلى معسكرهم ، وهم ينتفضون من فرط الخوف ، ولكنهم لم يلبثوا أن حمدوا الله حين تبين لهم أن الشجرة الضخمة التى ينامون تحتها قد سقطت أثناء غيابهم !!

كان كل شىء فى المعسكر غارقاً فى الماء ، كما انطفأت النار .

ولقد أثارهم انطفاء النار ، لأنهم كانوا يرتعدون من شدة البرد والبلل ، ولكنهم سرعان ما سرى عنهم ، عندما اكتشفوا أن هناك نارا خافتة ما زالت مشتعلة تحت كتلة الخشب الهائلة ، التى كانوا قد أوقدوا نارهم بجوارها . وفى التو ، شمروا عن سواعدهم ومضوا يجمعون بعض قطع الخشب والأغصان الجافة ، وبدأوا يحيون النار حتى اشتد لهيبها ، فملأ الفرح قلوبهم ، وراحوا يصطلون ويجففون ثيابهم المبللة . كما جففوا ما لديهم من اللحم المسلوق ، وتناولوا طعام العشاء وهم جالسون حول النار ، وظلوا فى يقظة إلى أن طلع النهار ، لأنهم لم يعثروا على مكان جاف يستطيعون النوم فيه !

وعندما أشرقت الشمس ، أحس الفتيان بالنعاس يداعب أجفانهم .

فمضوا إلى الحاجز الرملى وتمددوا فوقه ثم استسلموا للنوم . ولكنهم لم يلبثوا أن أفاقوا بعد فترة من الوقت ، وبدأوا يعدون طعام إفطارهم باكتئاب ... وبعد أن فرغوا من تناول الطعام أحسوا بتصلب فى مفاصلهم ، كما عاودهم الحنين إلى « الوطن » مرة أخرى ! ولم تخف علامات الحنين إلى « الوطن » على « توم » رغم أنه حاول إشاعة الابتهاج فى قلبى القرصانين بقدر استطاعته . وإذ وجد زميليه راغبين عن البقاء فى الجزيرة ، ذكرهما بالسر الدفين ؛ واستطاع بذلك أن يثير اهتمامهما ثم لم يلبث أن لجأ إلى حيلة أخرى للاستئثار تماما باهتمامها . . قال لهما إنه يحسن بهم أن يتخلوا عن القرصنة ويلعبوا دور الهنود الحمر على سبيل التغيير . وراقت الفكرة للغلامين الآخرين . وتجرد الجميع من ثيابهم ، وخططوا أجسامهم بالطين حتى أصبحوا أشبه بحمير الوحش ، ثم انطلقوا عبر الغابات ليهاجموا المستعمرات الإنجليزية ! . . . فقد كانوا جميعاً يلعبون دور رؤساء القبائل !

وفيما بعد ، انقسموا إلى ثلاث قبائل متعادية ، وراحوا ينقضون على بعضهم البعض من مكامنهم ، وهم يطلقون صيحات الحرب المدوية .

وهكذا مضى اليوم فى مرح وسعادة واجتمعوا فى المعسكر عندما حان موعد تناول طعام العشاء ، وقد عضهم الجوع بنابه ، ولكنهم كانوا سعداء — وهنا صادفتهم مشكلة ، فإن الهنود المتعادين لا يتناولون الطعام معا إلا بعد أن يعقدوا صلحاً ، وكان ذلك مستحيلا ما لم يدخنوا غليونا رمزاً للسلام . ولم تكن هناك وسيلة أخرى للتغلب على هذه العقبة ، ومن ثم فقد تمنى اثنان من الهنود فى تلك اللحظة لو أنهما ظلا قرصانين . إلا أنهما لم يستطيعا الإفلات من هذا القيد . وبعد لحظات أشعل الغليون وراحوا يتبادلونه وهم يتظاهرون بالمرح .

ولقد سرهم أن لعبوا دور الهنود الحمر بعد أن تبين لهم أن تأثير

التدخين لم يرغمهم هـذه المرة على الذهاب للبحث عن المدينة المفقودة !!
أو بعبارة أخرى ، لأن التدخين لم يسبب لهم فى هـذه المرة غثيانا خطيرا
كما حدث فى المرة السابقة . . ولكنهم — رغم ذلك — تحفظوا فى التدخين
بعد العشاء ، فقضوا أمسية رائعة . . والآن فلندع هؤلاء الصغار فى سعادتهم
ومرحهم وتدخينهم وثرثرتهم ، لأننا لن نفيد منهم شيئا فى اللحظة الراهنة .

الفصل السابع عشر

القراصنة يشهدون جنازة أنفسهم !

لم يكن أحد من أهل القرية الصغيرة يشعر بأى مرح أو ارتياح بعد ظهر يوم السبت التالى . . ولقد اتشحت أسرتا « هاربر » والعمة « بولى » بالسواد ، وشملهما حزن عميق بينما انهمرت الدموع بغزارة من عيون جميع أفراد أسرتيهما . . أما القرية نفسها ، فقد عمها سكون غير عادى . وراح القرويون يزاولون أعمالهم العادية وهم ذاهلون ، ومقلون فى الكلام ، ومكثرون فى الآهات . . وبدت عطلة يوم الأحد عبئاً ثقيلا على عاتق الأطفال ، فلم يشعروا بأية بهجة من ألعابهم الرياضية ، ومن ثم انصرفوا عنها.

وبعد الظهر ، وجدت « بيكى تاتشر » نفسها تتجول فى ساحة المدرسة المهجورة ، وقد استولى عليها حزن رهيب ، ولكنها لم تجد شيئا يخفف من لوعتها ، فراحت تناجى نفسها قائلة :

— أواه ! ليتنى أستطيع أن أستعيد المقبض النحاسى ثانية ! . . إننى لا أملك الآن شيئا يذكرنى به « توم ! » .

وخنقتها العبرات . . ثم سرعان ما توقفت عن السير وقالت تناجى نفسها :

— حدث ذلك هنا . ! أواه . . لو أمكن أن يعود ذلك اليوم — لما قلت له كلمة واحدة تغضبه حتى ولو أعطيت العالم كله ! . ولكنه ذهب الآن . . ولن أراه ثانية .

وتمزق قلبها عندما ساورها هذا الخاطر ، فابتعدت عن ذلك المكان والدموع تنهال من عينيها وتنحدر فوق خديها وفى تلك اللحظه ، أقبلت

جماعة من الفتيان والفتيات — كانوا زملاء « توم » و « جو » فى اللعب .. ووقفوا يتأملون سياج الملعب ويتكلمون بأصوات خافتة قائلين إن « توم » كان يفعل « كذا وكيت » عندما رأوه لآخر مرة ، وكيف أن « جو » قال هذا أو ذاك — وراح كل متكلم يشير بالدقة إلى المكان الذى كان الغلامان يقفان عنده فى ذاك الوقت .. أو يضيف شيئاً مثل : وأما أنا فكنت أقف هنا — كما أقف الآن ، وأما هو فكان واقفاً حيث تقف أنت . لقد كنت قريباً منه جداً . . هكذا — ولقد ابتسم لى بهذه الطريقة — وعندئذ تملكنى إحساس غريب — إحساس مقبض ولكنى لم أدرك معناه بالطبع بيد أننى أستطيع أن أفهم هذا المعنى الآن !

وهنا احتدم الجدل بين بعض الفتيان ، وكان مداره : من كان آخر من رأى الغلامين الغائبين على قيد الحياة ؟ وأصر كثيرون على أن يكون الانفراد بهذا الشرف من نصيبهم ، وقدموا الأدلة على ذلك . وعندما بت فى النهاية فيمن كانوا آخر من رآوهما فعلا ، وتبادلوا معهما آخر كلمات ، راح الباقون يتطلعون إليهم بحسد ، أما الذين ظفروا بهذا الشرف ، فقد اعتبروا أنفسهم أشخاصاً على أعظم قدر من الأهمية !!

وكان بين الجماعة غلام مسكين لم يجد شيئاً عظيما يستطيع أن يفخر به ، فقال وكأنه يشعر بالفخر من جراء الذكرى :

— مسكين « توم » .. لقد ضربنى ذات يوم ضرباً مبرحاً لا أزال أذكره !

ولكنه أخفق فى انتزاع إعجاب زملائه : لأن أغلبهم كان يستطيع أن يقول مثلما قال ، ومن ثم فقد قلل ذلك من قيمة المجد الذى كان الغلام يهفو إلى الفوز به .. وبعدئذ بدأت الجماعة تتسكع هنا وهناك وهى تستعيد ذكريات البطلين المفقودين بلهجة حزينة .

وعندما انتهت فترة نشاط مدرسة الأحد فى صباح اليوم التالى ، بدأ ناقوس الكنيسة يدق دقاته الحزينة بدلا من دقاته العادية . كان يوما صامتا حزينا ، وبدا كأن دقات الناقوس الحزينة تتلاءم تماما مع ذلك الجو الرهيب الذى ساد القرية . . وبدأ القرويون يتجمعون ، وهم يتلكأون لحظات فى المشى ليتبادلوا بعض الكلمات الهامسة تعقيبا على تلك المأساة الأليمة ، ولكنهم مايكادون يدخلون إلى قاعة الصلاة حتى يلوذوا بالصمت فلا يسمع غير حفيف أثواب النساء وهن يأخذن مقاعدهن فى القاعة . . ولم يكن أحد من الحاضرين يتذكر مناسبة سابقة امتـــلأت قاعة الكنيسة على النحو الذى امتلأت به فى ذلك اليوم . . وأخيراً أقبلت العمة « بولى » يتبعها « سيدنى » و « مارى » ثم أسرة « هاربر » . وجميعهم يتشحون بالسواد وفى التو وقف المصلون جميعا ، كما وقف الواعظ الكهل ، وظل واقفا إلى أن جلس أفراد الأسرتين المنكوبتين فى الصف الأول من المقاعد .. وعاد الصمت يساد القاعة مرة أخرى ، ولم يكن يعكره إلا صوت البكاء المكتوم . وفى تلك اللحظة نهض الواعظ ، وبسط يديه أمامه وبدأ يصلى . ثم رتل « الشمامسة » ترتيلة حزينة أعقبها قول الواعظ : « أنا البعث والحياة » .

وأثناء الصلاة ، راح الكهنة يرسمون صوراً لشمائل الغلامين المفقودين والأمل العظيم الذى كان يرتجى منهما . وكانت الصور واضحة رائعة إلى درجة جعلت جميع الحاضرين يشعرون بأشد الألم كلما تذكروا أنهم كانوا يصرون على ملاحظة أخطاء الغلامين دون حسناتهما .. وذكر الواعظ كثيرا من المناسبات المؤثرة فى حياة الراحلين ، فكشف بذلك عن طبيعتهما الحلوة الكريمة . . وكلما أفاض الواعظ فى حديثه المؤثر ، ازداد المصلون ألماً وعجزوا عن حبس دموعهم ، فانفجروا جميعا باكين ، ولم يستطع الواعظ نفسه أن يتمالك رباطة جأشه فانخرط فى البكاء وهو واقف فوق المنبر .

وانبعثت ضوضاء خفيفة من ممر الكنيسة ، ولكن أحداً لم ينتبه إليها ، وبعد لحظة فتح الباب فرفع الواعظ عينيه ، المبللتين بالدموع فوق منديله . .

وفى الثو جمد فى مكانه مستمراً . . وبدأت العيون تتبع نظرة الواعظ على الفور ، وسرعان مانهض المصلون جميعا وراحوا يحدقون ، بينما دخل الفتيان الثلاثة (الأموات) وأخذوا يتقدمون فى ممشى الكنيسة . .

كان « توم » يسير فى المقدمة يتبعه « جو » ثم « هاك » . وكان الأخير يسير منكمشا ذليلا يتعثر فى ثيابه المهلهلة ! وكانوا قد اختبأوا فى ممر الكنيسة غير المطروق ليصغوا إلى الصلاة التى أقيمت على أزواحهم !

وألقت العمة « بولى » و « مارى » وآل « هاربر » بأنفسهم فوق طفليهما اللذين بعثا من الموت ، وغمروهما بالقبلات ، كما ارتفعت أصواتهم بالشكر لله..أما « هاك » المسكين ، فقد وقف وحيدا قلقا لا يعرف ماذا يفعل أو أين يختبىء ليتجنب نظرات الاستنكار التى كانت تسدد إليه . . وهمّ « هاك » بالتراجع ، ولكن « توم » أمسك به من ذراعه وقال :

— إن ذلك ليس عدلا ياعمتى « بولى » . . يجب أن يكون هنا من يفرح بعودة « هاك » .

فقالت العمة « بولى » : نعم . إننى جد سعيدة برؤية هـــذا المخلوق المسكين يتيم الأم !

وأشبعته تقبيلا حتى لقد شعر الغلام التعس بالاضطراب أكثر من ذى قبل .

وفجأة صاح الواعظ بأعلى صوته :

— مبارك اسم الرب الذى يمنحنا جميع البركات — انشدوا — وانشدوا من أعماق قلوبكم .

وأنشد الحاضرون بصوت متهلل ، بينما راح « توم سوير » القرصان يتطلع حوله ناظرا إلى الفتيان الذين كانوا يتطلعون إليه بحسد جعله يشعر بأن تلك اللحظة هى أسعد لحظات حياته .

وبينما كان المصلون ينصرفون من الكنيسة قالوا إنهم على استعداد لأن يصبحوا موضع السخرية مرة أخرى لكى يسمعوا هذا الإنشاد ثانية !

وفاز « توم » بقدر كبير من القبل فى ذلك اليوم — وكان ذلك متوقعا من العمة « بولى » وهى فى حالتها النفسية تلك — يزيد على ما فاز به منها فى عام كامل ، ولكنه لم يكن يدرى هل كانت تلك القبل للتعبير عن الشكر لله أم حبا لشخصه .

الفصل الثامن عشر

« توم » يذيع سر حلمه !

كان ذلك هو سر توم العظيم – خطة العودة إلى « الوطـن » مع زميليه القرصانين وحضور صلاة الجنازة !! . وكان الفتيان الثلاثة قد عبروا النهر فوق كتلة ضخمة من الخشب عند الغسق يوم السبت، وهبطوا الى الشاطىء على مبعدة خمسة أو ستة أميال جنوب القرية ، وناموا فى الغابة عند حافة المدينة حتى طلع الفجر ، ثم سلكوا الطرقات والأزقة الخلفية حتى وصلوا الى ممر الكنيسة الجانبي فاستأنفوا نومهم فيه بين « المقاعد » المحطمة .

وبينما كانت الأسرة تتناول طعام الإفطار فى يوم الاثنين ،أضفت العمة « بولى » و « مارى » من حبهما الشىء الكثير على « توم » ، وكانتا تلبيان جميع رغباته . . ولقد أفاض الجميع فى الحديث ، وقالت العمة « بولى » فى خبث مرح :

– حسناً . . لست أعتقد أنها كانت دعابة لطيفة « يا توم » ، أن تجعلوا الجميع هنا يتعذبون أسبوعا كاملا ، بينما تقضون أنتم وقتا طيباً ، ولكن مما يؤسف له حقاً أن قلبك الغليظ سمح لك بأن تجعلنى أتعذب على هذا النحو المؤلم . . فما دمتم قد استطعتم العودة فوق كتلة من الخشب لتشاهدوا جنازتكم فقد كان فى استطاعتك أن تأتى و تلمح لى بطريقة ما ، أنك لست ميتا ، وأنك هارب فقط .

فقالت « مارى » : نعم كان فى استطاعتك أن تفعل ذلك يا « توم » . وأكبر ظنى أنه كان ينبغى عليك أن تفعل ذلك لو أن الأمر خطر ببالك . .

وتهلل وجه العمة « بولى » وسألت بلهفة : هل كنت تفعل يا « توم » ؟ أخبرنى ، هل كنت تفعل ذلك لو أنه خطر ببالك ؟

— إننى . . . إننى . . . لست أدرى . . لقد كان ذلك خليقا بأن يفسد كل شىء .

فقالت العمة « بولى » بصوت يدل على الألم مما جعل الغلام يضطرب :
— « توم » . . . كنت آمل أن تحبنى أكثر من ذلك . . ولا شك فى أنك كنت تدخل برد الراحة على قلبى ، لو أنك عنيت بالتفكير فى الأمر حتى ولو لم تنفذه !

فقالت « مارى » مناشدة : كفى بالله عليك يا عمتى . . إنه طيش « توم » كما تعلمين — فهو دائما مندفع هكذا ، حتى ليتعذر عليه أن يفكر فى أى شىء .

— هذا أمر يؤسف له . . . لو كان « سيدنى » فى مكانه لفكر فى هذا الأمر ، ولجاء وفعل ذلك أيضا . . . « توم » سوف يأتى اليوم الذى تتطلع فيه إلى الوراء — ولكن بعد فوات الأوان — وتتمنى لو أنك بذلت لى اهتماما أكثر ، ما كان ليكلفك إلا القليل !

فقال « توم » : أنت تعرفين ولا ريب أننى أهتم بأمرك يا عمتى .
— كان خليقاً بهذه المعرفة أن تصبح أتم ، لو أنك سلكت سلوكاً لائقاً .

فقال « توم » بلهجة النادم : بودى لو أننى فكرت فى الأمر . ولكنى كنت أحلم بك على كل حال . وأظن أن ذلك أمر له أهميته . أليس كذلك ؟ .

— ليس لهذا أهمية كبرى — فإن القطة تفعل ذلك — ولكنه خير من لاشىء على كل حال . . لكن ماذا حلمت ؟ .

— حلمت ليلة الأربعاء الماضى أنك كنت جالسة بجوار الفراش ،

و« سيدنى » بجانب الصندوق الخشبي ، بينما كانت « مارى » تجلس بجواره

— حسنا . . لقد كنا فعلا نجلس كذلك — فهذه جلستنا المعتادة دائما ، ولكنى مسرورة لأنك تذكرتنا فى الحلم !!

— وحلمت أيضاً أن أم « جوهاربر » كانت معكم .

— يا إلهى : لقد كانت هنا ! هل حلمت بأكثر من ذلك ؟ .

— أوه . . كثيرا . ولكن التفاصيل أو شكت أن تنمحى الآن .

— حاول أن تتذكر . . ألا تستطيع ؟ .

وقد خيل إلى أن الريح . . . أن الريح كانت تعبث . . .

— فكر أكثر « ياتوم » . لقد عبثت الريح بشىء . . هيا تكلم .

فضغط الغلام جبهته بيده كأنما ليتذكر . وأخيرا قال :

— آه . . لقد تذكرت . كانت تعبث بلهب الشمعة .

— ياللسماوات ، استمر يا « توم » . . استمر !

— ويخيل إلى أنك قلت إن الباب . . .

— استمر يا « توم » .

— دعينى أفكر لحظة .. لحظة واحدة .. آه . نعم .. قلت إنك تعتقدين أن الباب مفتوح .

— لقد قلت ذلك بكل تأكيد . . أليس كذلك يا « مارى » ؟ استمر ! .

— وبعدئذ . . وبعدئذ . . حسناً . . لست متأكدا ، ولكن يخيل إلى أنك طلبت من « سيدنى » أن يذهب و . . . و ..

— استمر . . استمر . . . ماذا طلبت منه أن يفعل « توم » ؟ ماذا ؟

— طلبت إليه أن يغلق الباب .

— ياللسماوات! إنى لم أسمع عن مثل هذه المعجزة طوال حياتى ألا تقولوا؟ إن الأحلام مجرد خزعبلات . . سوف أفضى إلى « مسز هاربر » بكل ذلك قبل أن تنقضى ساعة واحدة . . . فإننى أريد أن أعلم كيف يمكنها أن تفسر ذلك ببدعها السخيفة . . . استمر يا « توم » .

— آه : لقد تذكرت الآن كل شىء بوضوح . . بعد ذلك قلت إننى لم أكن شريراً ، ولكنى كنت (شقيا) وطائشا فقط ، وأنه لا ينبغى أن يحملنى الناس من المسئولية فوق طاقتى .

— هكذا قلت فعلا . . ياللسماء . استمر يا « توم » .

— ثم بدأت تبكين

— نعم .. هذا صحيح.ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى بكيت فيها ... ثم ماذا ؟

— ثم انخرطت « مسز هاربر » فى البكاء أيضا ، وقالت إن « جو » كان مثلى ، وأنها كانت تتمنى لو أنها لم تضربه بالسوط لأنه شرب القشدة (الكريمة) الفاسدة .

— « توم » ! لقد كانت « الروح » تتقمصك ! لقد كنت تتنبأ .. نعم ، هذا ما كنت تفعله ! امض فى حديثك . .

— عندئذ قال « سيدنى » . . قال « سيدنى » . . .

فقاطعه « سيدنى » قائلا : لا أظن أنى قلت شيئا

فقالت « مارى » : بل تكلمت يا « سيدنى » .

وصاحت عمتهما : اصمتا ، ودعا « توم » يتكلم ! ماذا قال « سيدنى » يا توم » ؟

من أجل ذلك . ثم ضمت الغلام إلى صدرها بعنف جعله يشعر بأنه أكثر الأشرار إثما فى العالم .

فتمتم «سيدنى» ! بصوت مسموع : كان ذلك عملا رحيما رغم أنه حدث فى . . الحلم !

فصاحت عمته : صه يا « سيدنى » إن الجسم يأتى فى الحلم ما قد يفعله فى اليقظة .. خذ هذه التفاحة الكبيرة التى احتفظت لك بها لأقدمها لك يوم يعثرون عليك يا « توم » . . والآن ، اذهب إلى المدرسة .. إننى عاجزة عن شكر الله الرحمن الرحيم ، أبينا جميعاً ، لأنك عدت إلىّ ، ولو أنى لا أستحق عفوه ورضاه . . اذهبوا جميعاً إلى المدرسة فقد أضعتم منى وقتا طويلا .

وانصرف الصغار إلى المدرسة ، بينما مضت العمة العجوز لزيارة « مسز هاربر » والإفضاء إليها بحلم « توم » العجيب ! !

وهكذا أصبح « توم » بطلا عظيما الآن .. لم يعد يعبث ويصخب كما كان يفعل من قبل ليجتذب الأنظار ، وإنما راح يمشى مختالاً مثلما يفعل القرصان الذى يشعر بأن عيون الجماهير تلاحقه ! ! ولقد كانت العيون تلاحقه فعلا . ومن ثم حاول أن يتجاهل نظرات الجميع وتعليقاتهم أثناء مروره بهم ، وإن كانت هذه النظرات والتعليقات قد أصبحت عنده بمثابة الطعام والشراب ! ! وكان يسير فى أعقابه جمع من الفتيان الذين يصغرونه سنا ، وهم يشعرون بالزهو كلما رآهم زملاؤهم معه بغير أن يضيق بهم ! وهكذا أصبح « توم » مثل قارع الطبول الذى يسير على رأس الموكب ، أو الفيل الذى يقود عرضا للوحوش الغريبة على خشبة مسرح ! . أما الغلمان الذين كانوا يبلغون من الأعمار مثلما يبلغ ، فقد تظاهروا بأنهم لم يعلموا بغيبته إطلاقا ، ولكن الغيرة كانت تنهش قلوبهم ! ولاشك فى أنهم كانوا على استعداد لأن يدفعوا أى ثمن مقابل أن تكون لهم بشرته السمراء التى لفحتها الشمس ، وتلك

النظرات اللامعة التى تدل على (الشقاوة) . ولكن « توم » ما كان ليتنازل عن إحداهما مهما كان الثمن !

وفى المدرسة ، لقى « توم » و « جو » تقديراً عظيما من زملائهما ، وأصبحا موضع الإعجاب والتقدير . . وبدأ الغلامان يسردان مغامراتهما على السامعين المتعطشين — ولكنها كانت مجرد بداية فقط ، إذ لم يكن من المتوقع أن تكون للقصة نهاية ، فقدكان البطلان يتمتعان بخيال خصب يستطيع أن يجد دائما المادة المشوقة ! . وأخيراً أخرج الغلامان غليونيهما ، وراحا ينفثان الدخان من فيهما ، فاستطاعا بذلك أن يبلغا قمة المجد فى أعين الزملاء الصغار !

ورأى « توم » أنه من الخير أن يهمل شأن « بيكى تاتشر » فى ذلك الوقت ، مكتفيا بالمجد الذى بلغه ، بعد عودته المظافرة . . . لقد أصبح «توم» بطلا لامعاً ، ولعلها تريد الآن أن تعيد العلاقة التى كانت بينهما — ولم تلبث أن انقطعت — إلى ما كانت عليه من قبل ! . حسناً . . دعها تحاول ، فلسوف تدرك أن فى استطاعته أن يصطنع من الدلال ما يصطنعه بعض الكبار !! وبعد قليل وصلت « بيكى » فتظاهر « توم » بأنه لم يرها . ومشى مبتعداً إلى حيث انضم إلى جماعة من الفتيان والفتيات ، وبدأ يتكلم . . وسرعان ما لاحظ أن الفتاة كانت تخطر بمرح جيئة وذهابا وقد تورد وجهها ، والتمعت عيناها ، وهى تتظاهر بأنها منهمكة فى مطاردة زملائها وزميلاتها ، وتضحك بطريقة تشبه الصراخ كلما استطاعت أن تمسك واحد أو واحدة منهم ، ولكن « توم » لاحظ أن « بيكى » تتعمد ألا تمسك بزملائها وزميلاتها إلا على مقربة منه ، وأنها لاتفتأ تختلس النظر إليه كلما فعلت ذلك ، فأرضى مسلكها غروره الشرير ، وبدلا من أن يجعله ذلك يسعى إلى إصلاح ذات البين بينهما ، تمادى فى غيه وكبريائه ، وازداد إمعاناً فى تجاهل وجودها ، وسرعان ماتخلت الفتاة عن حركاتها المسرحية وأخذت

تسير بخطى وئيدة على مقربة منه، وهى تتنهد مرة أو اثنتين، وتتطلع خلسة إلى حيث وقف «توم». وما لبثت أن لاحظت أن «توم» كان يؤثر «آمى لورنس» بحديثه، فأحست بألم عميق، وانتابها القلق فى الحال. وحاولت أن تبتعد، ولكن ساقيها خذلتاها وحملتاها نحو الجماعة التى كان «توم» يتصدرها.. ثم قالت لفتاة كانت تقف بجوار «توم» بلهجة مرحة مفتعلة:

— أهذا أنت يا «مارى أوستن»! يالك من فتاة شريرة ... لماذا لم تأت إلى مدرسة الأحد؟

— لقد أتيت. ألم ترينى؟

— كلا. ! ولكن هل أتيت حقاً؟ أين كنت تجلسين؟

— كنت فى فصل الآنسة «بيترز» الذى اعتدت أن أذهب إليه... ولقد رأيتك هناك.

— أحقاً؟ من العجيب أننى لم أرك، فقد كنت أريد أن أتحدث إليك عن «الرحلة» التى سوف تقوم بها

— أوه! هذا بديع. لكن من الذى سيعدها؟

— والدتى

— مدهش! أرجو أن تسمح لى بالحضور

— نعم!... فقد أعدت هذه «الرحلة» من أجلى، ومن ثم فإنها ستسمح بحضور كل من أريد حضوره، وأنا أريد حضورك.

— أشكرك على جميل شعورك.. ومتى ستتم هذه «الرحلة»؟

— قريباً، ربما فى العطلة

— لاشك فى أنها ستكون نزهة رائعة! هل ستدعين جميع الفتيان والفتيات؟

— نعم . كل من تربطني به رابطة الصداقة — أو يريد أن يصبح صديقي !!

وتطلعت خلسة إلى «توم» لكنه استمر في حديثه مع «آمي لورنس» عن العاصفة العاتية التي هبت على الجزيرة ، وكيف أنها اقتلعت الشجرة الضخمة من جذورها ، بينما كان يقف على مبعدة ثلاثة أقدام منها !!

وسألت «جراسي ميلر» : أوه هل آتي أنا أيضاً ؟

— نعم

وقالت «سالي روجرز» : وأنا ؟

— نعم

وسألت «سوزي هاربر» : وأنا أيضاً . ؟ و «جو» ؟

— نعم

واستمر الصخب بين تصفيق الجميع وتهليلهم ، حتى لقد طالب الجميع بدعوتهم إلى هذه النزهة ، فيما عدا «توم» و «آمي لورنس» !!

وفي تلك اللحظة ، استدار «توم» وهو يتكلم ، ومضى مبتعداً ومعه «آمي» . . فارتعشت شفتا «بيكي» ، واغرورقت عيناها بالدموع ، ولكنها بادرت بإخفاء هذه الانفعالات وهي تتظاهر بالمرح . ومضت تثرثر ، ولكن (النزهة) فقدت كل جاذبيتها في تلك اللحظة ، وانتهزت «بيكي» أول فرصة سنحت لها ، وانسحبت بعيداً ، إلى حيث احتجبت عن العيون وانفجرت تبكي بحرقة . وحينما تمالكت روعها ، راحت تفكر في كبريائها الجريحة حتى دق الناقوس ، فنهضت ، وقد ارتسمت في عينيها نظرة أشبه بنظرة شخص حزم أمره على الانتقام من شخص آخر أساء إليه . .

وفي المؤخرة ، ظل «توم» يغازل «آمي لورنس» ، وقد بدا عليه الارتياح الشديد ، وراح يتنقل معها من مكان إلى آخر باحثاً عن «بيكي»

ليمعن فى إغاظتها ، وأخيراً رآها . ولـكنه لم يلبث أن أحس بعقارب الغيرة تلدغه ، فقد كانت تجلس فوق مقعد خلف بناء المدرسة ، وبجوارها « الفريد تمبل » وهما منصرفان إلى مشاهدة كتاب مصور ، وكانا مستغرقين فى مشاهدة الصور وقد تقارب رأساهما ، وكأنهمـا يعيشان فى عالم آخر ! وبدأ « توم » يلوم نفسه لأنه أضاع الفرصة التى عرضتها « بيكى » عليه للصلح .

وأخذ يؤنب نفسه على جهالته وحماقته ، وقد أحس بالرغبة فى البـكاء من فرط الغيظ .. أما « آمى » فقد مضت تحدثه بمرح وهما يسيران جنبا إلى جنب ، لأن قلبها كان يرقص طربا ، ولـكن لسان « توم » فقد قدرته على الحركة كأنما أصابه شلل مفاجىء ، ولم يسمع الغلام ما كانت « آمى » تقوله وظل « توم » يتجول مع « آمى » وهو يحرص أشد الحرص على أن يكثر من الذهاب إلى حيث جلست « بيكى » مع « الفريد » ، وكان كلما وقعت عيناه عليهما فى جلستهما الهادئة ، يحس بأن رأسه توشك أن تنفجر ، ولقد زاده ضيقا ما كان يبدو على « بيـكى » من علامات الاستخفاف بأمره ، وكأنها كانت تريد أن توحى إليه أنها لم تعد تدرك أنه لا يزال حياً يرزق ويدب على ظهر الأرض !! . ولـكن الواقع كان غير ذلك . فقـد كانت « بيكى » تراه ، كما كانت تعلم أنها ربحت المعركة ، وقد سرها أن تراه يتعذب ويتألم مثلما تعذبت وتألمت !!

وضاق « توم » بثرثرة « آمى » ، فاعتذر بأن لديه أعمالا هامة عاجلة ، وبأن الوقت يمضى سريعاً !! ولـكن الفتاة تجاهلت اعتـذاره فقال « توم » لنفسه « لعنة الله عليها . . ألا أستطيع التخلص منها ؟ » . . ثم قال لها إنه مضطر إلى الانصراف لأن هـذه الأعمـال لا تحتمل الإرجاء . فقالت بلا كياسة أنها سوف « تنتظره » عندما تنتهى الدراسة ، وعندئذ أسرع بالابتعاد عنها وهو يستشعر أشد الـكراهية لها .

وعض « توم » شفتيه وهو يقول لنفسه : ألم تجد غير هـذا الغلام ؟ لو أنها صادقت أحداً غير هذا الغلام الذى يعتبر نفسه أكثر فتيان المدينة

أناقة وأرستقراطية ، لما آبهت له ! أوه ! حسنا . . لقد ضربتك يوم أن وفدت على هذه المدينة يا سيدى . ولسوف أضربك ثانية ! انتظر حتى أظفر بك ! سوف أتحرش بك و . . .

وظل « توم » نهباً لعواطفه الثائرة وهو يتهدد الغلام ، ويأتى بحركات من يديه ورجليه كما لو كان يضرب غلاما أمامه ويقول : انتظر ... انتظر .. إنك تصرخ كثيراً ، أليس كذلك ؟ خذ من ذلك عبرة ودرساً !

وعند الظهر عجل « توم » بالذهاب إلى المنزل . . ولم يستطع ضميره أن يحتمل مزيداً من سعادة « أمى » وثرثرتها ، بينما الغيرة تنهش قلبه . . أما « بيكى » فقد استأنفت مشاهدة الكتاب المصور مع « الفريد » ، ولكنها كانت — كلما مرت الدقائق متثاقلة غير منبئة بعودة « توم » — تشعر بتضاؤل نشوة انتصارها ، وسرعان ما فقدت الرغبة فى مشاهدة الصور . ولقد أصاخت السمع مرتين أو ثلاثا عندما تناهى إلى أذنيها صوت وقع أقدام مقبلة ، ولكنه كان أملا زائفاً ، لأن « توم » لم يأت . . وأخيراً بدأت تحس بالتعاسة ، وتمنت لو أنها لم تتماد فى انتقامها إلى هذا الحد . وعندما أدرك « الفريد » التعس أنه يوشك أن يفقد الفتاة ، راح يحاول إثارة اهتمامها ، فكان لا يفتأ يصيح بين الحين والحين : أوه ! ها هى صورة رائعة ! أنظرى إلى هذه ! » . ولكنها فقدت صبرها فى النهاية ، فقالت له « لا تضايقنى ! إننى لا آبه لها » ... وانفجرت باكية ، ونهضت ، ثم سارت مبتعدة عنه .

وبادر « الفريد » باللحاق بها ، وكان يهم بمحـــاولة تهدئتها عندما قالت له :

— اذهب ودعنى وحدى .. اذهب ... ألا تسمع ؟! إننى أكرهك !

وكف الغلام عن متابعتها ، وهو يتساءل عما عساه يكون قد فعله فأثارها إلى هذا الحد — ذلك أنها كانت قد قالت له أنها ستتصفح معه جميع الصور

خلال فترة الظهر — ولكنها تركته وابتعدت عنه باكية . . . واضطر « الفريد » إلى تركها ، وذهب إلى الفصل الشاغر وهو مستغرق فى التفكير . . كان يشعر بالامتهان والغضب ، ولم يصعب عليه الوصول إلى الحقيقة — لقد اتخذت الفتاة منه أداة لإظهار حقدها على « توم سوير » . . . وعندما وصل إلى هذا الحد من تفكيره ، كانت كراهيته لتوم قد تضاعفت مرات ومرات ، وكان يتمنى لو استطاع أن يعرف طريقة تمكنه من إثارة المتاعب لهذا الغلام بغير أن يجازف بتعريض نفسه لنقمته . . . وفجأة ، وقع بصره على كتاب الإملاء الخاص بتوم ، فأيقن أن الفرصة قد واتته للانتقام منه ، وفتح الكتاب عند الدرس الذى سيقرأونه بعد الظهر ، وسكب المداد فوق الصفحة ! !

وتصادف أن كانت « بيكى » تتطلع من النافذة التى خلفه فى تلك اللحظة ، ورأت ما فعل ، فأسرعت تبتعد عن النافذة بغير أن تدع « الفريد » يلمحها ، ثم كرت عائدة إلى المنزل وهى تعتزم لقاء « توم » واطلاعه على الحقيقة ، فليس من شك فى أن « توم » سوف يشكرها على حسن صنيعها ، وبذلك ينتهى ما بينهما من سوء تفاهم ! ولكنها عادت فعدلت عن رأيها فى الطريق ، فقد تذكرت سوء معاملة « توم » لها حينما كانت تتحدث مع زميلاتها عن « النزهة » المرتقبة ، وكيف أنه تعمد إذلالها وتحقيرها . . ومن ثم قررت أن تدعه يضرب بالسوط لما انسكب على كتاب الإملاء من مداد ، وأن تكرهه إلى الأبد جزاء وفاقا له على ما نالها من سوء معاملته !

الفصل التاسع عشر

« لم يخطر ببالى ! »

عندما وصل « توم » إلى المنزل ، كان فى حالة نفسية تعسة ، وقد دله أول حديث دار بينه وبين عمته على أن أحزانه لن تلقى أى عطف أو تقدير ، قالت له : إننى أفكر فى أن أسلخ جلدك حياً يا « توم » .

— ماذا فعلت ياعمتى ؟

— فعلت ما فيه الكفاية ، فقد ذهبت إلى « مسز هاربر » وأنا أتوقع أننى سأجعلها تصدق كل السخافات التى قلتها لى عن ذلك الحلم ، ولكنى لم ألبث أن فوجئت بأنها عرفت من « جو » أنك جئت إلى هنا خلسة واسترقت السمع إلى حديثنا فى تلك الليلة . . « توم » لست أدرى ماذا يحيق بغلام يرتكب مثل هذا الإثم .. إننى أقشعر كلما فكرت فى أنك سمحت لنفسك بأن تجعلنى أذهب إلى « مسز هاربر » وأقف مثل هذا الموقف المخجل بغير أن تنطق بكلمة واحدة .

كان هذا وجهاً جديداً للموقف ، فقد كان « توم » يعتقد أن ما أبداه من مهارة فى الصباح ، كان دعابة طيبة تدل على عبقرية فذة ، أما الآن فقد بدأ يعتبر ذلك نذالة وضعة .. فخفض رأسه ، واستعصى عليه التفكير ، ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ..

وأخيراً قال :

— ليتنى لم أفعل ذلك يا عمتى .. بيد أنه لم يخطر ببالى .. !

— أواه أيها الطفل . . لم يخطر ببالك .. إنك لا تفكر فى أى شىء غير أنانيتك . . إنك تستطيع أن تفكر فى القيام بهذه الرحلة الطويلة

إلى جزيرة « جاكسون » فى جوف الليل لنسخر من متاعبنا ، وتستطيع أن تفكر فى السخرية منى بأكذوبة كبيرة عن ذلك الحلم ، ولكن لم يخطر ببالك مطلقاً أن ترأف بنا وتجنبنا كل ما تكبدناه من ألم !

— لقد تبين لى الآن أن ذلك كان عملا وضيعاً يا عمتى ، ولكننى لم أكن فى الواقع أتعمد ذلك .. نعم ياعمتى ! لم أكن أتعمد ذلك ، ثم أننى لم آت إلى هنا فى تلك الليلة لأسخر منكم .

— إذن لماذا جئت ؟

— جئت لأقول لك ألا تقلقى علينا ، وإننا لم نغرق !

— « توم » .. « توم » .. أؤكد لك أننى أصبح أسعد امرأة ، لو أننى استطعت أن أصدق أن مثل هذه الفكرة النبيلة خطرت ببالك ، ولكن الواقع هو أن الأمر لم يكن كذلك . . إننى واثقة من أنه لم يكن كذلك يا « توم » .

— أؤكد لك ياعمتى أن هذا هو ما جئت من أجله ..

— أوه ! لا تكذب يا « توم » .. كلا ، لا تكذب ، لأن ذلك يزيد الموقف سوءا .

— إننى لا أكذب ياعمتى ، فتلك هى الحقيقة . لقد كنت أبغى دفع شبح الخوف عنك . ولهذا زرت المنزل سراً لأترك لك رسالة أشرح فيها حقيقة الأمر

— إننى على استعداد لأن أدفع أى ثمن لأصدقك — لأن ذلك كفيل باصلاح كل ما ارتكبته من آثام ، لكن الأمر لا يبدو معقولا ، وإلا فلماذا لم تقل لى ذلك أيها الطفل ؟

— عندما سمعتكم تتكلمون عن الجنازة سيطرت على فكرة واحدة ، ألا وهى الاختفاء داخل الكنيسة لنرى جنازتنا بأنفسنا . . ومن ثم أعدت

— قال .. أظن أنه يأمل أن أكون سعيداً حيث كنت . ولكن كان ينبغى ..

— هل تسمعان ؟ أن هــــذه هى عـــين الكلمات التى نطق « سيدنى » بها !

— ولكنكِ نهرته وطلبتِ إليه أن يصمت .

— هكذا فعلت ! لاشك أن ملاكا كان هناك .. لقد كان هناك ملاك فعلا !

فأردف « توم » : وقالت « مسز هاربر » إن « جو » أفزعها حين (فرقع) كبسولة أمامها ، وذكرتِ أنت قصة القطة والدواء الذى يقتل الألم !

— هذا صحيح على « طول الخط » !

— ثم تحدثتم بعد ذلك عن البحث عنا فى النهر ، وعن إقامة الجنازة فى يوم السبت ، وبعدئذ تعانقتما — أنتِ « ومسز هاربر » — وبكيتما . ثم انصرفت هى .

هذا ماحدث بالضبط ! إنك ما كنت لتستطيع أن تصف ما حدث بمثل هذه الدقة ، لو أنك كنت موجودا معنا يا « توم » ! ثم ماذا بعد ذلك ؟ . استمر .

— وبعدئذ خيّل إلىّ أنك صليت من أجلى — وكان فى استطاعتى أن أراك وأن أسمع كل كلمة تنطقين بها . ولقد أسفتُ من أجلكِ ، حتى لقد أخرجت لفافة من لب الشجرة وكتبت لك رسالة عليها قلت فيها : « إننا لم نمت — ولكننا اختفينا لنزاول القرصنة ، ووضعتُ هذه الرسالة بجانب الشمعدان فوق المنضدة ، وتطلعت إليكِ وأنتِ نائمة ، فأخذتنى الشفقة عليك وأظن أنى ملت عليك وقبّلت شفتيك .

— أحقا يا « توم » ؟ هل فعلت ذلك ؟ إننى أغتفر لك كل ما بدر منك

الرسالة إلى جيبى ولزمت الصمت ..

— أية رسالة ؟

— رسالة كنت قد كتبتها لك على لفافة من لب الشجر ، ذكرت فيها أننا ذهبنا للقرصنة .. بودى لو أنك استيقظت عندما قبلتك .. نعم ، بودى لو أنك فعلت ذلك .

فانفرجت أسارير السيدة العجوز ، وتجسمت فى عينيها نظرة تنطوى على الحنان ؟

— هل قبلتنى يا « توم » ؟

— نعم . . .

— هل أنت واثق من ذلك يا « توم » ؟

— نعم يا عمتى .. إننى واثق من ذلك تماماً !

— ولماذا قبلتنى يا « توم » ؟

— لأننى أحبك . . وقد انفطر قلبى حزناً من أجلك ، عندما سمعتك تتأوهين ..

كان الغلام يتكلم بلهجة صادقة ، ولم تستطع السيدة أن تغالب عاطفتها فقالت بصوت مرتعش :

— قبلنى مرة أخرى يا « توم » ثم انصرف إلى المدرسة ولا تضايقنى أكثر من ذلك .

وما كاد الغلام ينصرف ، حتى أسرعت عمته الى المطبخ ، وخرجت تحمل بقايا السترة (الجاكتة) التى ارتداها « توم » عندما ذهب للقرصنة ثم توقفت وقالت لنفسها :

— الآن سوف أطمئن . . مسكين هذا الغلام . . أعتقد أنه كذب علىّ

فى هذا الشأن أيضاً — ولكنها كذبة محمودة .. محمودة لأنها تجلب لى راحة عظيمة ... وإنى لأحمد الله — وليرحمنى الله — لأن الغلام كان طيب القلب جداً حين أفضى إلىّ بهذا القول .. ولكننى لا أريد أن أكتشف أنها كانت أكذوبة !!

وأعادت الستره إلى مكانها ، ووقفت تفكر قليلا .. ثم مدت يدها مرتين لتلتقط الستره ، وهى تجفل .. وبعدئذ استجمعت شجاعتها وهى تقول مناجية نفسها : « إنها أكذوبة حسنة — أكذوبة حسنة — لن أدعها تحزننى ، وتحسست جيب الستره ، وبعد لحظة كانت تقرأ رسالة « توم » والدموع تطفر من عينيها ، ثم قالت فى استطاعتى أن أصفح الآن عن هذا الغلام حتى ولو كان قد ارتكب مليوناً من الآثام » !

الفصل العشرون

« توم » يتلقى عقوبة « بيكى »

أدرك « توم » أن شعوراً غير عادى كان يسيطر على عمته « بولى » حينما قبلته ، لأن ذلك الشعور اكتسح انهيار روحه المعنوية وجعله يستشعر السعادة مرة أخرى .. كان الحظ قد جعله يلتقى ببيكى تاتشر عند « ميدولين » وهو فى طريقه إلى المدرسة . . ولما كانت حالته النفسية هى دائماً التى تملى عليه تصرفاته ، فقد ركض نحوها بلا تردد وقال لها :

— لقد تصرفت تصرفا وضيعاً اليوم يا « بيكى » ، وإنى لآسف على ما بدر منى ، وأؤكد لك أننى لن أفعل ذلك ثانية طالما حييت — فأرجو الصفح . .

فتوقفت الفتاة عن السير وتطلعت إليه فى سخرية .. وقالت :

— أكون شاكرة لو أنك احتفظت باعتذارك لنفسك يامستر « توماس سوير » ، فإننى لن أخاطبك ثانية . . وشمخت بأنفها ، ومضت فى سيرها . فجمد فى مكانه مسمراً ، ولم يسعفه تفكيره حتى ليقول لها « ومنذا الذى يأبه لقولك هذا يا آنسة ؟ » وبذلك أفلتت منه الفرصة . ومن ثم فقد صمت ، ولكنه كان يهدر من الغضب كالبركان وانطلق إلى المدرسة وهو يكظم غيظه . وعندما رآها أمام المدرسة ، توجه إليها بملاحظة لاذعة . فقابلته بملاحظة أشد لذعاً وعندئذ انفجر غضبه . . وخيل لبيكى ، فى ثورة غضبها ، إنها لن تستطيع أن تنتظر حتى تبدأ الدراسة لتثأر لنفسها . . كانت تشعر بنفاد صبر شديد ، إذ كانت ترغب فى أن ترى « توم » يضرب ضربا مبرحا بسبب المداد الذى انسكب على كتاب الإملاء .. ومع أنها كانت قد

راودتها فكرة كشف أمر «الفريد تمبل» إلا أن هذه الفكرة لم تلبث أن تلاشت تماما من رأسها بعد أن سخر «توم» منها .

مسكينة هذه الفتاة ! لقد كانت تجهل ما يخبئه القدر لها من متاعب .. ذلك أن المدرس ، « مستر دوبينز » كان قد بلغ منتصف العمر ولما يحقق طموحه ، فقد كان كل أمله فى الحياة أن يصبح طبيباً ، ولكن الفقر قرر ألا يجعله أكثر من مدرس فى قرية .. وفى كل يوم كان يخرج كتابا غامضاً من مكتبه ، يستغرق فى مطالعته عندما يكون تلاميذه منصرفين إلى استذكار درسهم . ولقد حرص « مستر دوبينز » على الاحتفاظ بسرية هذا الكتاب ، فكان يغلق درج مكتبه بالمفتاح . ولهذا كان جميع من فى المدرسة يتحرقون شوقا إلى إلقاء نظرة واحدة على محتوياته ، ولكن الفرصة لم تسنح لأحد منهم . وكان لكل غلام وفتاة رأى خاص فى طبيعة هذا الكتاب . ولكن رأيين من هذه الآراء لم يكونا متشابهتين ، ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة الحقيقة .. وقد اتفق أن كانت « بيكى » تمر بالمكتب فى هذا اليوم ، فلاحظت أن المفتاح موجود فى القفل ! كانت فرصة ذهبية .. فتلفتت حولها ، وحينما وجدت نفسها وحيـــدة ، فتحت درج المكتب وأخرجت الكتاب منه .. كان عنوان الكتاب « كتاب الأستاذ فلان فى التشريح » ، ولم تفهم الفتاة معنى كلمة «تشريح» ، ومن ثم بدأت تقلب صفحات الكتاب ، وسرعان ما وقعت عيناها على لوحة جـــذابة ملونة لجسم الإنسان — عاريا .. وفى تلك اللحظة سقط ظل على الصفحة ، ودخل « توم سوير » من الباب ولمح الصورة . فارتبكت الفتاة ، وحينما همت بغلق الكتاب ، شاء سوء حظها أن تتمزق صفحة الرسم من منتصفها . ودفعت « بيكى » بالكتاب فى درج المكتب ، وأدارت المفتاح فى القفل ، ثم انفجرت باكية وهى تشعر بأشد الخزى .

وصاحت : «توم سوير» .. إنك وضيع أشد الضعة . كيف تجرؤ

على اختلاس النظر إلى ما يتطلع إليه الآخرون !

— وكيف كان يمكنني أن أعرف أنك تتطلعين إلى شيء كهذا ! ؟

— يجب عليك أن تخجل من نفسك يا « توم سوير » . . لاشك في أنك ستشي بي . . أواه يا ربي ! ماذا عساي أفعل . . ماذا عساي أفعل ؟ سوف أضرب بالسوط ، أنا التي لم أضرب في المدرسة من قبل إطلاقا .

ضربت الأرض بقدمها الصغيرة في عنف واستطردت :

— كن وضيعاً إن شئت ! إنني أعرف أن شيئاً ما سيحدث لك : انتظر فسوف ترى ! إنني أكرهك . . أكرهك . . أكرهك !

ثم انطلقت من الغرفة وهي تنشج بشدة . .

وجمد « توم » في مكانه وقد أذهلته المفاجأة . . ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه :

— يالها من فتاة حمقاء غريبة الأطوار . لم يسبق لها أن ضربت في المدرسة . ! هذا سخف ، إذ لماذا يخجل الإنسان من الضرب ؟ هكذا شأن الفتيات — إن جلدهن رقيق للغاية وقلوبهن ضعيفة أيضاً . . حسنا .. بالطبع أنا لن أقول لمستر « دوبينز » شيئا عما ارتكبته هذه الحمقاء الصغيرة ، لأن هناك وسائل أخرى ليست على هذا القدر من الضعة للثأر منها .. لكن ماذا سيحدث ؟ سوف يسأل « مستر دوبينز » من الذي مزق الكتاب؟ ولن يجيب أحد على هذا السؤال ، وعندئذ سيلجأ إلى الطريقة التي يتبعها دائما — فيسأل أول تلميذ أمامه ، ثم ينتقل إلى غيره وهلم جرا ... وعندما يصل إلى الفتاة المذنبة سيعرف الحقيقة بغير أن يحدثه أحد عنها ، لأن وجوه الفتيات تفضحهن دائما .. وعندئذ سوف يضربها بقسوة . . مهما يكن ، سيكون موقف الفتاة حرجا غاية الحرج !

وأطال « توم » التفكير فى الموقف . ثم قال : حسناً . . إنها تتمنى لو استطاعت أن ترانى فى مثل هذا المأزق . فلتنل إذن جزاءها !

وانضم « توم » إلى زملائه الذين كانوا يلعبون فى ساحة المدرسة . . وبعد دقائق قليلة وصل المدرس وانتظم التلاميذ والتلميذات فى الفصل . . ولم يشعر « توم » بأية رغبة فى متابعة دروس « مستر دوبينز » . وكان كلما ألقى نظرة فى اتجاه مقاعد البنات ووقع بصره على وجه « بيكى » ، انتابه قلق شديد . . صحيح أنه كان حانقاً عليها أشد الحنق ، ولكنه كان — رغم ذلك — لا يتمالك نفسه من العطف عليها . . وبعد قليل اكتشف المسكين حادث الكتاب الملوث بالمداد . وعندئذ انصرف تفكير « توم » كله إلى متاعبه الخاصة .

أما « بيكى » فقد نفضت الجمود عنها ، وراحت تراقب ما يحدث باهتمام شديد .. فقد كانت لا تتوقع أن يتمكن « توم » من التخلص من متاعبه بمجرد إنكار أنه سكب المداد على الكتاب ! ولقد صح ما توقعته ، إذ يبدو أن الإنكار جعل الموقف يزداد سوءاً بالنسبة للغلام . ولقد افترضت « بيكى » أن متاعب « توم » ستسرها ، وحاولت أن تجعل نفسها تؤمن بأنها مسرورة ؛ ولكنها لم تلبث أن اكتشفت أنها ليست واثقة من ذلك . . فعندما تحرج الموقف ، أحست برغبة ملحة تدفعها إلى كشف الحقيقة ، ولكنها بذلت مجهوداً جباراً كيلا تفعل ذلك ، وأرغمت نفسها على السكوت لأنه — كما قالت لنفسها — « سوف يشى بى ويقول أننى مزقت الصورة . . لن أقول كلمة واحدة ولو كانت هذه الكلمة هى التى ستنقذ روحه ! »

وتلقى « توم » جزاءه ضرباً مبرحاً ، ثم عاد إلى مكانه بغير أن يشعر بأنه مظلوم ، لأنه ظن أن من الجائز أن يكون قد قلب المحبرة على صفحات الكتاب بغير أن يفطن للأمر — صحيح أنه أنكر أنه فعل ذلك ، ولكن ما قاله لم يكن عن إيمان وإنما بدافع من العادة . .

ومرت ساعة ثم جلس المدرس فوق (عرشه)، وأحس بثقل أجفانه ، فقد انصرف تلاميذه وتلميذاته إلى استذكار دروسهم . . ولكنه سرعان ما اعتدل فى جلسته ، وتثاءب ، ثم فتح درج مكتبه ، ومد يده فأخرج الكتاب ، فرفع معظم التلاميذ رؤوسهم وتطلعوا إليه بفتور ، بيد أن اثنين منهم كانا يراقبان حركاته باهتمام شديد .. وأخذ « مستر دوبينز » يقلب صفحات الكتاب بتراخ ، ثم هز رأسه واستعد للقراءة ! وفى تلك اللحظة ألقى « توم » نظرة خاطفة على « بيكى » ، وعندئذ رق قلبه لمنظرها ونسى مشاجرته معها . . كان لابد من أن يفعل شيئا سريعا ! ولكن خطورة الموقف شلت تفكيره تماما . . وحدثته نفسه بأن يثب من مكانه ، ويخطف الكتاب من يد المدرس ويهرب به ، ولكن تفكيره هذا استغرق لحظة أضاعت منه الفرصة — فقد فتح المدرس الكتاب ..وبذلك ضاعت الفرصة نهائياً . . لم يعد فى استطاعته أن يساعد « بيكى » . . وفى اللحظة التالية واجه المدرس الفصل فغض التلاميذ والتلميذات من أبصارهم أمام نظرته الصارمة . . وساد صمت رهيب . ثم قال المدرس بصوت مخيف ..

— من الذى مزق هذا الكتاب ؟

ولم يجب أحد .. وظل الصمت شاملا .. وراح « مستر دوبينز » يتأمل الوجوه باحثا عن أية علامة تكشف عن المجرم الآثيم !

صاح فجأة : هل مزقت هذا الكتاب يا « بنيامين روجرز » ؟

ونفى الغلام ذلك ...وساد الصمت مرة أخرى .

— هل مزقته يا « جوزيف هاربر »

ونفى الغلام ذلك أيضا . . .

وبعد أن استعرض المدرس وجوه التلاميذ فكر لحظة ، ثم انثنى نحو مقاعد البنات . وسأل :

— « آمى لورنس » . . هل مزقتِ هذا الكتاب ؟

وهزت الفتاة رأسها سلباً .

— « جراسى ميلر » ؟

وأنكرت الفتاة أنها مزقت الكتاب .

— « سوزان هاربر » . . هل فعلتِ ذلك ؟

ونفت الفتاة ارتكابها هذا الوزر . .

وكانت الفتاة التالية هى « بيكى تاتشر » . . وكان « توم » ينتفض من قمة رأسه إلى أخمص قدميه من فرط الانفعال ، كما سيطر عليه إحساس بأن الموقف قد أصبح ميئوساً منه .

— وبيكا تاتشر [وتطلع « توم » إلى وجهها — كان الفزع مجسما عليه] هل مزقتِ الكتاب ؟ — . . أنظرى إلى عينى هل مزقتِ هذا الكتاب ؟

وخطرت ببال « توم » فكرة أشبه بالبرق . . فوثب واقفاً وصاح :

— أنا الذى فعلت ذلك !

وحملق الجميع فى وجهه ، وقد انتابتهم الحيرة إزاء هذه الجهالة غير المعقولة . . أما « توم » فقد لزم مكانه لحظة ريثما يستجمع أفكاره المشتتة ، وعندما تقدم نحو المدرس ليلقى جزاءه ، أحس بأن الدهشة ، والشكر ، والحب التى كانت نظرات « بيكى » المسكينة تشف عنها ، تعتبر أحسن مكافأة له عما سيناله من أذى . . ورغم أن الضرب الذى تعرض له كان مبرحاً جداً ، إلا أنه تقبله بهدوء وبغير أن تفلت من شفتيه آهة واحدة ، حتى لقد جعل ذلك « مستر دوبينز » محنقاً غاية الحنق ، فلم يكتف بما أنزله بالغلام من عقاب ، وإنما أمره بالبقاء فى المدرسة ساعتين بعد انصراف التلاميذ — وكان « توم » يعلم أن هناك مَن سينتظره بالخارج ، حتى يفرج عنه كربه ، ولهذا لم يعبأ كثيرا بهذه العقوبة .

وعندما آوى « توم » إلى فراشه فى تلك الليلة كان يدبر خطته للانتقام من « الفريد تمبل » ؛ فقد أفضت إليه « بيكى » بالحقيقة فى ذلة وندم ، ولكنها لم تحاول إخفاء خيانتها . . .

وحينما غلبه النعاس ، كانت كلمات « بيكى » الحلوة لاتزال ترن فى أذنه : —

« توم . . إنك نبيل غاية النبل » !

الفصل الحادى والعشرون

ياللبلاغة !

اقترب موعد العطلة ، فازدادت غلاظة « مستر دوبينز » وقسوته لأنه كان يسعى إلى إظهار تلاميذه وتلميذاته بمظهر يشرّفه فى يوم الامتحان .. ومن ثم فإن عصاه لم تكف عن الضرب والإيذاء . وكان أكثر التلاميذ تعرضا للأذى صغارهم . أما كبار التلاميذ والفتيات اللائى بلغن الثامنة عشرة فلم يمسسهم أذى .. وكان ضرب « مستر دوبينز » للتلاميذ مبرحاً فى هذه الفترة ، إذ رغم أنه كان أصلع الرأس يخفى صلعه أسفل شعر مستعار ، فإنه كان لا يزال فى منتصف العمر ، ولم تكن هناك أية علامة تدل على ضعف عضلاته .. وعندما اقترب اليوم العظيم خيل إليه أنه يشعر بمتعة عظيمة كلما عاقب أحد تلاميذه لأقل هفوة . وكانت نتيجة ذلك ، أن كان صغار التلاميذ يقضون يومهم فى فزع شديد وعذاب أليم ، وليلهم فى رسم الخطط للانتقام من المدرس القاسى .. ولم يكونوا يضيعون أية فرصة تعرض لهم للإساءة إلى المدرس ، ولكنه ظل مسيطرا عليهم تماماً .

وأخيراً جاءت المناسبة الكبرى .. فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت المدرسة تتألق بالأضواء الباهرة ، وقد انتشرت فى أرجائها باقات الزهور ، وجلس المدرس فوق عرشه المرتفع بعظمة ، وخلفه السبورة . وكان يبدو مهيباً فى جلسته ، وعلى كل جانب من جانبيه ثلاثة صفوف من المقاعد وأمامه ستة ، وكانت جميعاً مشغولة بالتلاميذ والتلميذات وأولياء أمورهم . وعن يساره ، وخلف صفوف المواطنين كانت هناك منصة عريضة أعدت مؤقتاً وجلس فوقها التلاميذ والتلميذات الذين كان من المقرر أن يشتركوا فى تمارين هذه الليلة .. صفوف من صغار الفتيان يرتدون ثياباً

نظيفة وإن بدا عليهم الضيق ، وصفوف من كبار الفتيان (والأشقياء) ، ثم صفوف من الفتيات الصغيرات والآنسات ، يرتدين ثياباً من الموسلين ، وأذرعهن عارية ، وقد تزين بحلى جداتهن العتيقة ، وحلين صدورهن بأشرطة حمر وزرق ، وشعورهن بالزهور !

وبدأت الاختبارات . . فنهض تلميذ صغير جداً ، قال فى خجل : « لاشك فى أنكم لاتتوقعون من شخص فى مثل سنى أن يقف فوق المنبر ليتكلم » .. الخ . وهو يحرص على أن يقرن كلماته بإشارات تعبيرية مدروسة من الممكن أن تؤديها أية آلة — بفرض أن الآلة مصابة بعطل بسيط ! . . ولكن الغلام استطاع أن يؤدى دوره إلى النهاية ، فقوبل بعاصفة من التصفيق . ثم انحنى للحاضرين واختفى .

ونهضت فتاة صغيرة خجول ، رددت أسطورة « مارى تملك حملاً صغيراً » . وبعد أن نالت حظها من التصفيق المتواصل ، تراجعت إلى مكانها .

وبرز « توم سوير » فوق المنبر وقد بدا عليه الغرور وألقى حديثاً استهله بقوله « امنحونى حرية أو دعونى أهلك » وكان يلوح بيديه فى عنف ، ولكنه لم يلبث أن توقف فى منتصف الحديث ، فقد ارتبك وتبخرت بقية الحديث من ذاكرته ، وركبه الفزع وخيل اليه أن ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله ، وأنه يوشك أن يختنق . . صحيح أن جميع الحاضرين أحسوا بالعطف عليه — ولكن صمتهم ادى إلى مزيد من التوتر أيضاً ، وقد أساء ذلك إلى الغلام أبلغ إساءة ، وزاد من حرج موقفه وقطب المدرس حاجبيه وبذلك اكتملت عناصر الكارثة . . وراح « توم » يجاهد لعله يتذكر بقية الحديث ، ولكنه فشل ، فتراجع ثم انسحب . ورغم أن النظارة حاولوا أن يصفقوا له ، إلا أن تصفيقهم انتهى سريعاً .

ومثلت بعد ذلك رواية تمثيلية كما ألقيت بعض الخطب الرنانة ، وبعدئذ

أجرينت اختبارات فى القراءة والهجاء ، أما فريق اللغة اللاتينية فقد أبدع وأجاد . وعلى أثر ذلك حل دور الجزء الرئيسى فى الحفل ... « الإنشاء » وهو يتضمن قيام التلميذات كبيرات السن بقراءة الموضوعات الإنشـــائية التى أعدتها خصيصاً لهذه المناسبة ، فكانت كل واحدة منهن تتقدم من المنصة ، وهى تحمل فى يدها كراسة أنيقة مربوطة بشريط أحمر جميل ، وتقرأ منها الموضوع الإنشائى الذى أعدته لهذه المناسبة بلهجة خطابية رائعة . ولقد كانت جميع الموضوعات من ذلك الطراز المألوف الذى عالجته أمهات هؤلاء الفتيات وجداتهن ، بل وجميع أسلافهن من النساء إلى عهد الحروب الصليبية !! . فكانت هناك موضوعات عن « الصداقة » و « ذكريات الأيام الغابرة » و « الدين فى التاريخ » و « أرض الأحلام » و « مزايا الثقافة » و « أشكال الحكومات — أبحاث مقارنة » و « الأحزان » و « أشواق القلوب » .. الخ

ولقد كان الطابع الغالب فى هذه الموضوعات هو الطابع الحزين ، كما كانت جميعها تتصف بالإسراف فى استعمال المحسنات اللفظية والعبارات المنمقة والأسلوب الخلاب والكلمات الطنانة التى ألفتها الأذن وارتاحت إليها .

وقامت فتاة تتلو موضوعها ، فاستولت على مشاعر السامعين ، الذين سرت بينهم همهمة تعبر عن التقدير ، وكانت تلك الهمهمة مصحوبة بين الحين والحين بهمسات تقول « ما أجمله موضوع ! » — « يا للبلاغة » — « ما أصدق ما تقول ! » ... الخ . وإذ فرغت الفتاة من تلاوة موضوعها بعد أن سردت موعظة مؤثرة ، كان التصفيق ينم عن حماسة بالغة !!

ثم وقفت بعد ذلك فتاة نحيفة يبدو عليها الحزن ويرتسم على وجهها ذلك النوع المثير من الإعياء الذى يأتى نتيجة لسوء الهضم وتناول العقاقير !! وراحت تقرأ قصيدة شعرية قوبلت بعاصفة من التصفيق .

ولم يكن هناك من بين الكثيرين الذين استمعوا إلى تلك القصيدة سوى عدد ضئيل جداً منهم فهم معنى الكلمات الغريبة التى ضمنتها الفتاة مقطوعتها الشعرية . ولكنهم جميعاً أعربوا مع ذلك عن استحسانهم لما سمعوا ! !

ثم وقفت بعد ذلك فتاة سمراء الملامح ، سوداء العينين ، فاحمة الشعر . وبعد فترة مؤثرة من الصمت ، خلعت على وجهها طابعاً تمثيليا ، وراحت تتلو بلهجة جدية رزينة مقالا إنشائيا عنوانه « رؤيا » !

وتعاقب التلاميذ والتلميذات ، فقرأ كل منهم ما أعده من موضوعات إنشائية ! !

ويحسن بنا قبل اختتام هذا الفصل أن نوجه أنظار القراء إلى أن جميع هذه الموضوعات كانت منقولة حرفيا من كتاب « الشعر والنثر » وأن جميع أولئك الذين استمعوا إليها لم يفطنوا إلى تلك الحقيقة !!

الفصل الثاني والعشرون

« هاك فين » يتلو آيات من الكتاب المقدس

انضم « توم » إلى جماعة « الأنصار الأطهار » بعد أن تأثر بمبادئها السامية ، فوعد بالإقلاع عن التدخين ، ومضغ التبغ ، وارتكاب أية رذيلة طالما هو عضو بالجماعة . ولم يلبث أن اكتشف شيئا جديدا . . ذلك أن تعهد الإنسان بالامتناع عن أداء شيء معين هو الطريق المحقق للاندفاع نحو هذا الشيء بالذات . ومن ثم ، فسرعان ما ألفى « توم » نفسه أشد ما يكون شوقا إلى تلك الرذائل ، ولم تلبث هذه الرغبة أن اشتدت . ولم يحل بينه وبين إرضائها غير أمله في أن تتاح له فرصة الظهور أمام الناس وهو يتحلى بشريط الجماعة الأحمر الذي يميز أفراد تلك الجماعة في المناسبات القومية والحفلات العامة والجنائز .

وركز « توم » آماله في القاضي الكهل « فريزر » — قاضي السلام — الذي كان يعالج سكرات الموت ، فهو — حين يموت — ستقام له جنازة ، يستطيع « توم » ان يسير في مقدمتها مرتديا الشريط الأحمر !

ومضت ثلاثة أيام كان « توم » خلالها يتتبع أنباء مرض القاضي بلهفة شديدة ، وفي بعض الأحيان كانت آمال « توم » تنتعش إلى درجة أنه كان يخرج شريط الجماعة ويقف أمام المرآة ليتدرب على ارتدائه ، ولكن القاضي رفض أن يستسلم للموت ، وأخيراً أعلن أنه تجاوز مرحلة الخطر — وأصبح في دور النقاهة ، فاغتاظ « توم » أيما غيظ ، وانتابه ضيق شديد . . وبادر فقدم استقالة من الجماعة — وفي الليلة ذاتها انتكس القاضي ومات ! . وعندئذ قرر « توم » ألا يثق بمثل هذا الرجل مرة أخرى !!

كانت الجنازة حدثاً فريداً ، فقد اصطف أعضاء جماعة (الأنصار الأطهار) بطريقة ابتكرت خصيصا لإغاظة « توم » العضو السابق وقتله من الحسد . ومع ذلك فقد شعر « توم » بأنه أصبح حراً . وكان فى ذلك بعض عزائه . . إذ أصبح فى استطاعته أن يشرب ويسب — ولكن شعوره بالتحرر لم يلبث أن تبدد عندما تبين له أنه لم يعد يشعر بالرغبة فى ارتكاب هذين الإثمين . . ولقد ازداد دهشة حينما تبين له أنه يستطيع أن يتخلص من هذه الرغبة بسهولة رغم مافيها من جاذبية وإغراء .

ولم يلبث « توم » أن تولاه العجب حينما لاحظ أن العطلة التى كان يترقبها بدأت تثقل على نفسه . .

حاول أن يعد دفتراً يسجل فيه الأحداث اليومية — ولكن حدثاً واحداً لم يقع خلال أيام ثلاثة ، فاضطر إلى صرف النظر عن هذه المحاولة .

وجاءت إلى المدينة أول جماعة من المنشدين الزنوج ، وأثار مجيئها ضجة . وأنشأ « توم » و « جو » فرقة تمثيلية وبذلك تحققت لهما السعـــادة مدة يومين .

وهطل مطر غزير فى تلك الأثناء ، فأفسد الترتيبات التى كانت قد وضعت لتأليف موكب لاستقبال أعظم رجل فى العالم (كما ظن « توم ») ، وهو « مستر بنتون » ، أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكى . كما أن شخصية الرجل نفسه جعلت « توم » يشعر بخيبة أمل — لأن طول مستر « بنتون » لم يكن خمسة وعشرين قدما كما كان « توم » يظن !

وجاء إلى المدينة سيرك . . وفيما بعد أعد الغلمان سيركا بداخل خيام مشيدة من بقايا سجاجيد عتيقة ممزقة ، واستمروا يلعبون فى هذا السيرك ثلاثة أيام ، وقد جعلوا دخوله مقابل ثلاثة دبابيس للصبيان ودبوسين للفتيات — ثم لم يلبثوا أن هجروا السيرك . .

وجاء عراف ومنوم مغناطيسى إلى المدينة ... ثم ذهبا عنها ، تاركين المدينة أشد كآبة وانقباضا من ذى قبل

وأقيمت للفتيان والفتيات حفلات شديدة البهجة ، ولكنها كانت قليلة جدا . ومن ثم كان انتهاء إحداها يترك أثراً مؤلما فى النفس .

أما « بيكى تاتشر » فقد رحلت إلى منزل الأسرة فى مدينة بعيدة لتقيم مع أبويها خلال العطلة — وهكذا لم يصبح فى الحياة جانب واحد يشيع السرور فى النفس .

وظل سر جريمة القتل الرهيبة مصدر تعاسة مزمنة لتوم · فقد كان « السر » الرهيب ينغص حياته دائماً ! .

ثم اكتسح المدينة وباء الحصبة . .

وبقى « توم » سجينا فى المنزل أسبوعين طويلين ، انقطعت خلالهما كل صلة بينه وبين أحداث العالم ، واشتدت عليه العلة فلم يعد يهتم بشىء ، وعندما استطاع أن يقف على قدميه مرة أخرى ، كان يشعر بضعف شديد . ولما غادر المنزل ، خيل إليه أن تغييرا كئيبا شمل كل شىء وكل مخلوق . . كان هناك « بعث » جديد ، فقد لاحظ الغلام أن « النعرة الدينية » تفشت ليس فقط بين الكبار ، وإنما أيضاً بين الفتيان والفتيات !! . وراح « توم » يتجول هنا وهناك ، وهو يأمل أن تقع عيناه على وجه واحد يتصف صاحبه بالرذيلة ، ولكن خاب فأله فى كل مكان . فقد التقى بجو هاربر ، فإذا به يستذكر فصلا من الإنجيل ، فسعى إلى « بن روجرز » فوجده يتردد على الفقراء وهو يحمل لهم سلة مملوءة بالهدايا . فبحث عن « جيم هوليس » ولكن هذا خيب رجاءه فيه . . إذ وجه نظره إلى أن إصابته بالحصبة تعتبر بركة إلهية شملته . . وهكذا كان كل غلام يصادفه يضيف ضيقاً آخر إلى ما كان يحس به من ضيق ، وعندما استولى عليه اليأس لجأ إلى آخر صديق له ، وهو « هاكلبرى فين » ، فاستقبله هذا الصديق بسرد بعض فقرات من

الإنجيل ! وعندئذ انفطر قلب « توم » جزعاً ، وتسلل إلى منزله حيث لزم الفراش ، وهو يدرك أنه الوحيد فى المدينة كلها الذى فقد ضميره إلى الأبد!!

وفى تلك الليلة ، هبت على المدينة عاصفة شديدة مصحوبة بمطر غزير وهزيم رعد يصم الآذان ، ووميض برق يعمي العيون . وغطى « توم » رأسه ، وانتظر الموت فى خوف وتوتر شديدين ، فلم يكن يساوره أدنى شك فى أن جميع آثامه تلاحقه . . كان يؤمن بأن القوى العلوية لم تستطع احتمال هذه الآثام بعد أن بلغت حدها الأقصى ، فكانت النتيجة تلك العاصفة الجبارة !! .

وبعد فترة من الزمن ، استنزفت العاصفة قواها ، ثم لم تلبث أن تلاشت بغير أن تحقق هدفها . . وكان أول خاطر طاف بذهن « توم » ، هو أن يشكر الله ويستقيم . أما الخاطر الثانى فكان يحفزه على التريث — فقد لا تثور عواصف أخرى !!

وفى اليوم التالى زاره الأطباء وأعلنوا أنه أصيب بنكسة . وقضى ثلاثة أسابيع وهو ممدد على ظهره . فخيل إليه أن الأسابيع الثلاثة دهر طويل ، وعندما استطاع أن يتغلب على المرض ويستأنف حياته ، لم يستشعر غبطة أو مرحا ، لأن الوحدة كانت تعذب روحه ! . وأخذ يسير فى الطريق بتثاقل ، ولم يلبث أن التقى بجيم هوليس ، فوجده يلعب دور القاضى فى فى محكمة مؤلفة من الغلمان لمحاكمة قط ارتكب جريمة قتل ! وكانت المحاكمة بحضور الضحية ، وهى طير . . والتقى « توم » بجو هاربر » وهاك فين » فى أحد الطرقات الجانبية ، وكانا يلتهمان بطيخة مسروقة .. مساكين هؤلاء الفتيان ! فإنهم — مثل « توم » — قد أصيبوا بنكسة !! .

الفصل الثالث والعشرون

خلاص « ماف بوثر »

وأخيراً دبت الحياة فى الجو الراكد — ودبت فيه بشدة . . فقد قدمت قضية جريمة القتل للمحكمة . وأصبح موضوعها هو مادة كل حدث فى القرية . . ولم يستطع « توم » أن يهرب من تأنيب الضمير ، إذ كانت كل إشارة إلى الجريمة تجعل قلبه يطرق بعنف شديد . وكاد ضميره ومخاوفه ينجحان فى إقناعه بأن هــذه الملاحظات إنما كانت تقال أمامه عمداً ، ولكنه لم يستطع أن يدرك كيف يعرف النـاس أنه يخفى شيئاً يعرفه عن الجريمة . ومــع ذلك ، فإنه لم يكن يشعر بأية راحة وسط هذه الأحاديث ، ولم يلبث أن تولاه الفزع . فانتحى بها مكاناً منعزلا ليتحدث إليه ، فقد كان يحس بأن إطلاق العنان قليلا للسانه ، مع شخص يشاطره احتمال عبء هذا السر ، خليق بأن يفرج كربه ثم إنه كان يريد أن يستوثق من أن « هاك » مازال أميناً على السر .

— أخبرنى يا « هاك » . . هل حدثت أحداً عن — ذلك ؟

— عن ماذا ؟ .

— إنك تعلم ماذا أقصد .

— أوه ! هل تقصد سر جريمة القتل ؟

— نعم . . أقصد ذلك ! هل قلت شيئا لأحد ؟

— لم أقل شيئا لأحد ! . ما الذى جعلك تسألنى عن ذلك ؟ .

— إنه الخوف .

— ثق أنك ما كنت لتعيش يومين متعاقبين يا « توم سوير » لو أن السّر ذاع وشاع . . إنك تعلم ذلك بغير شك ! وأحس « توم » براحة أكثر . وقال بعد فترة صمت قصيرة :

— أخبرني يا « هاك » ألا يستطيع أحد أن يرغمك على الكلام ؟

— يرغمني ؟! لو أنني رغبت في أن يفتك هذا الشرير بي ، لجعلتهم يرغمونني على الكلام . فليس هناك ثمة سبيل ثان .

— حسنا إذن . . اعتقد ألا خطر علينا طالما حرصنا على التزام الصمت .. لكن دعنا نعيد القسم على كل حال ، لأن في ذلك تأكيدا أقوى .

— لا بأس .

وكرر الغلامان قسمهما بلهجة جدية .

وسأل « توم » : إذن فيمَ كانت كل هذه الأحاديث يا « توم » ؟ فقد سمعت منها الشيء الكثير !

— أحاديث ؟ إنه « ماف بوتر » .. « ماف بوتر » .. « ماف بوتر » طول الوقت . والحق أن هذه الأحاديث تملأ قلبي فزعاً مستمراً مما يجعلني أود أن أختبىء في مكان ما .

— هذا هو أيضا ما كان يدور بخاطري كلما سمعت هذه الأحاديث . . . أكبر ظني أن « ماف بوتر » مقضي عليـــه بالهلاك . . ألا تشعر بالأسف من أجله أحياناً ؟ .

— بل يجب أن أشعر بهذا الأسف دائماً — دائماً .. إنه ليس شخصية هامة ، ولكنه لم يفعل ما يسيء إلى أي إنسان . إنه يصطاد السمك ليحصل على قليل من النقود يحتسي بها الخمر — كما أنه كثير التسكع ولكن ، يا إلهي إننا جميعاً أو معظمنا على الأقل ، نفعل ذلك . إن « ماف بوتر » رجل طيب — فقد أعطاني نصف سمكة ذات مرة « مع أنه لم يكن يملك سمكا يكفي

شخصين ، وفى كثير من المناسبات ، كان الرجل يشد أزرى عندما يتخلى الحظ عنى .

— هذا حق ... ولقد ساعدنى أنا الآخر كثيراً ..

— بودى لو استطعنا إنقاذه .

— إننا لا نستطيع ذلك يا « توم » . ثم إن ذلك لن ينفعه فى شىء لأنهم لن يلبثوا أن يقبضوا عليه ثانية

— نعم ... هذا صحيح .. ولكنى أكره أن يسيئوا معاملته هكذا رغم أنه لم يرتكب الجريمة .

— وأنا أيضاً يا « توم » ... لقد سمعتهم يقولون إنه أفظع الأشرار منظراً فى هذه البلاد ، وكثيرون يعجبون لماذا لم يشنق من قبل .

— نعم . إنهم يتحدثون على هذا النحو طوال الوقت ، وقد سمعتهم يقولون إنه إذا أفرج عنه فسوف يفتكون به .

— وأحسب أنهم سيفعلون ذلك .

وطال حديث الغلامين ، ولكن حديثهما لم يجلب لهما أى ارتياح ، وعندما بدأ الليل يرخى سدوله « وجدا نفسيهمـــا على مقربة من السجن المنعزل . ولعل أملا غير مفهوم كان يراودهما فى أن يحدث شىء ما ، يخلصهما من متاعبهما ولكن هذا الشىء لم يحدث ، إذ يبدو أنه لم يكن هناك ملائكة أو جنيات يهمهن أمر السجين سىء الحظ .

وعمل الغلامان ما عملاه كثيراً من قبل — تقدما من نافذة السجن وقدما لبوتر بعض التبغ وأعواد الثقاب ، فقد كان الرجل سجيناً فى الطابق الأرضى بغير أن يحرسه أحد !

وكان شكره لهما على هداياهما يعذب ضميرهما من قبل — أما اليوم فقد شعرا بقلبيهما يتمزقان . كما أحسا بأنهما نذلان خائنان إلى أقصى حد ..

قال « بوتر » لقد كنتما دائماً شديدى العطف علىّ — كنتما أكرم من أى شخص آخر فى المدينة . ولن أنسى لكما ذلك .. لن أنساه .. إننى كثيراً ما أقول لنفسى ، لقد اعتدت أن أصلح طائرات جميع الفتيان ، وأدلهم على أحسن الأماكن لصيد السمك ، وأصادقهم قدر طاقتى . ولكنهم جميعاً نسوا « بوتر » التعس الآن ، عندما أطاحت به الكوارث بيد أن « توم » و « هاك » لم ينسياه — إنهما لا ينسيانه ، وأنا لن أنساهما .. لا تحزنا أيها الغلامان ، فقد ارتكبت أمراً بشعاً — ثملت وجننت فى ذلك الوقت — ذلك هو تقديرى للموقف — وقد حق علىّ أن أعدم من أجل ذلك . وأظن أن هذا هو العدل . إنه الصواب ! وقد يكون أحسن علاج للموقف — أرجو ذلك على كل حال .. حسناً ، إننا لن نطرق هذا الموضوع ، لأننى لا أريد أن أسىء إلى شعوركما بعد أن صادقتمانى ، ولكن ما أريد قوله لكما هو : إياكما واحتساء الخمر — فإن ذلك هو وحده الكفيل بعدم مجيئكما إلى هنا .. قفا إلى الغرب قليلا — هكذا — فإنه لمما يجلب الراحة للإنسان ، أن يرى وجوهاً صديقة عندما تحيط به نكبة كهذه ، وينصرف الجميع عنه فلا يبالى أحد غيركما بمتاعبه .. إن وجهيكما وجهان طيبان صديقان . فليصعد أحدكما فوق ظهر الآخر ويحملنى ألمس وجهه .. هذا حسن .. فلنتصافح — إن أيديكما تستطيع الدخول من بين قضبان النافذة ، أما يدى فغليظة .. إن أيديكما صغيرة وضعيفة — ولكنها ساعدت « ماف بوتر » أجل مساعدة ، وليس من شك فى أنها ما كانت لتحجم عن تقديم مزيد من المساعدة لو كان ذلك فى طاقتها .

وعاد « توم » إلى المنزل وهو يشعر بأنه أصبح أشقى الناس جميعاً ... كانت أحلامه مفعمة بأسباب الفزع فى تلك الليلة . وفى اليوم التالى ، أخذ الغلام يتسكع حول قاعة المحكمة ، وهو يشعر بحافز قوى يدفعه إلى دخول القاعة ، ولكنه نجح فى مقاومته والبقاء خارجها .. ولقد عانى « هاك » من عذاب مماثل .. وحرص كل من الغلامين على تجنب لقاء الآخر .. كان كل

مهما يهيم على وجهه من حين لآخر ، ولكن سحر القاعة كان لا يفتأ يجتذبهما إليها . وكان « توم » يرهف السمع كلما خرج المتفرجون من قاعة المحكمة ، ولكنه كان يسمع دائماً أنباء تثير الجزع — كانت الحلقة تضيق بعنف حول عنق « بوتر » التعس شيئاً فشيئاً ، وعند نهاية اليوم الثانى كان حديث القرية كلها ، يدور حول شهادة « انجان جو » وكيف إنها محكمة حاسمة ، وأنه ليس هناك أدنى ريب فيما سيكون عليه الحكم الذى سيصدره المحلفون .

وظل « توم » خارج المنزل حتى ساعة متأخرة فى تلك الليلة ، وتسلل إلى فراشه من النافذة كعادته فى بعض الأحايين . كان فى حالة انفعال شديد. وانقضت ساعات طويلة ، قبل أن يتمكن من النوم . وفى صباح اليوم التالى انطلق سكان القرية جميعاً نحو قاعة المحكمة لأن ذلك اليوم كان يوم النطق بالحكم ، وقد مثل الجنسان بعدد متساو تقريباً من الحاضرين. وازدحمت القاعة بشكل لم يسبق له مثيل.. وبعد فترة انتظار طويلة اصطف المحلفون فى أماكنهم . ثم جىء « بپوتر » ، وكان بادى الإعياء والخوف والجزع ، وهو مكبل بالأغلال ، وأجلس فى مكان يتيح لجميع النظارة أن يحملقوا فيه ، ولم يكن « انجان جو » بمستثنى من هؤلاء النظارة ، ولكنه كان جامداً كعادته . ومرت فترة انتظار أخرى ، ثم وصل القاضى ، وأعلن العمدة بدء المحاكمة . فسرت فى التو الهمسات المعتادة بين المحامين الذين راحوا يقلبون أوراقهم استعداداً للنضال .. ولقد خلق هذا التريث جواً غامضاً مثيراً .

واستدعى شاهد قرر أنه رأى « ماف بوتر » يغتسل فى رافد النهر فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الذى اكتشفت فيه الجريمة ، وأنه بادر بالابتعاد وبعد أن نوقش الشاهد قليلا قال وكيل النيابة :

— هل يريد الدفاع سؤال الشاهد ؟

ورفع السجين حاجبيه لحظة ، ولكنه لم يلبث أن دهش حينما قال محاميه :

— لا أريد أن ألقى عليه أية أسئلة .

وقرر الشاهد الثانى أنه عثر على السكين بالقرب من جثة القتيل ، فقال وكيل النيابة :

— هل يريد الدفاع سؤال الشاهد ؟

فأجاب محامى « بوتر » : لا أريد أن ألقى عليه أية أسئلة .

وأقسم الشاهد الثالث على أنه كثيراً ما رأى هذه السكين فى حوزة « بوتر » .

— هل يريد الدفاع سؤال الشاهد ؟

ورفض محامى « بوتر » أن يسأل الشاهد . . . فبدا الغضب على وجوه النظارة ، وراحوا يتساءلون : هل يعتزم المحامى القضاء على حياة موكله بغير أن يبذل أى مجهود للدفاع عنه ؟

وشهد كثيرون بأن سلوك « بوتر » كان مريباً جداً عندما جىء به إلى مسرح الجريمة . ثم سمح لهم بمغادرة منصة الشهود : عندما أعلن المحامى أنه لا تريد إلقاء أية أسئلة عليهم .

وهكذا سرد الشهود بالتفصيل جميع الظروف التى أحاطت بمسرح الجريمة فى ذلك اليوم المشئوم ، ومع ذلك فإن محامى « بوتر » لم يحاول أن يستبقى أحداً منهم لسؤاله . وعندئذ سرت بين الحاضرين همهمة دلت على مدى ما يشعرون به من قلق وعدم ارتياح حيال تصرف المحامى ، كما أن القاضى والمحلفين أنفسهم كانوا يتطلعون إلى المحامى بعيون يتمثل فيها التأنيب .

وأخيراً قال وكيل النيابة :

— بحق قسم الشهود الذين تعلو كلمتهم الصادقة فوق كل ريبة ، لقد أثبتنا

هذه الجريمة المروعة بلا أدنى ريب على السجين التعس .. وإنا لنترك القضية عند هذا الحد .

وتأوه « بوتر » المسكين ، وأخفى وجهه بين راحتيه ، وراح يهتز بجسمه من جانب إلى آخر ، بينما شمل القاعة صمت عميق . . وبدا التأثر على أكثر الرجال ، أما النساء فقد غلبتهن عاطفتهن فبكين .. وعندئذ نهض الدفاع وقال :

— يا صاحب السعادة ، لقد حاولنا ، فى بدء هذه المحاكمة ، أن نبرهن على أن موكلنا ارتكب هذا الجرم البشع وهو واقع تحت تأثير الهذيان المخيف الذى أحدثته الخمر . . ولكننا لا نتمسك اليوم بهذا الدفاع ، ولن نتقدم إليكم مطالبين بالرأفة بالمتهم (وتحول إلى كاتب الجلسة وقال له :) ناد « توماس سوير » :

وبدت على وجوه جميع الحاضرين علامات الحيرة المقترنة بالدهشة ، وكان أشدها امتقاعاً وجه « بوتر » نفسه . وتركزت جميع العيون باهتمام لا يخلو من الدهشة فى « توم » وهو ينهض ويأخذ مكانه فوق المنصة . وكان الغلام يبدو شديد الانفعال ، والخوف . . وبعد أن حلف الشاهد اليمين سأله محامى المتهم :

— أين كنت « يا توماس سوير » حوالى منتصف ليلة ١٧ يونيو ؟

وتطلع « توم » إلى وجه « انجان جو » الجامد ، وفى التو خذله النطق . وحبس النظارة أنفاسهم ليسمعوا كلمات الغلام ، ولكن الكلمات رفضت أن تخرج من فم « توم » ، غير أنه استطاع فى النهاية أن يستجمع بعض شجاعته ، وقال بصوت خافت لم يسمعه سوى بعض الحاضرين :

— فى الجبانة !

— ارفع صوتك قليلا . . لا تخف . . كنت فى . . .

— الجبانة .

وانفرجت شفتا « انجان جو » عن ابتسامة غاضبة .

— هل كنت على مقربة من مقبرة « هورس ويليامز » ؟

— نعم يا سيدى .

— تكلم بصوت أكثر ارتفاعاً . . ماذا كانت المسافة بينك وبينها ؟

— كالمسافة التى بينى وبينك الآن ؟

— هل كنت مختبئاً أم ماذا ؟

— كنت مختبئاً .

— أين ؟

— خلف شجرة البلوط القائمة عند حافة القبر .

وأجفل « انجان جو » ، ولكن أحداً لم يفطن إلى اضطرابه .

— هل كان معك أحد ؟

— نعم يا سيدى . . ذهبت إلى هناك مع . . .

— انتظر . . انتظر لحظة . . لا ضرورة لذكر اسم زميلك ، فسوف نقدمه للمحكمة فى الوقت المناسب . هل كنت تحمل شيئاً عندما ذهبت إلى الجبانة ؟

فتردد « توم » وبدا عليه الاضطراب . فقال المحامى .

— تكلم يا بنى لا تتردد لأن الحق محترم دائماً .. ماذا أخذت معك ؟

— فقط . . فقط .. قطة ميتة ...

وكاد النظارة ينفجرون ضاحكين ، ولكن المحكمة طالبتهم بالتزام الصمت .

وقال المحامى : سنقدم جثة هذه القطة فيما بعد . والآن ، قل لنا كل ما حدث يابنى .. قله بطريقتك الخاصة — ولا تغفل شيئا ، كذلك لا تخف .

وبدأ توم يسرد قصته — بتردد أول الأمر ، ثم سرعان ما مضى في حديثه ، فأخذت الكلمات تتدفق بسهولة أكثر وأكثر . . وبعد قليل هدأت جميع الأصوات إلا صوت الغلام . وحدّقت جميع العيون فيه ، وراح النظارة يستمعون إليه وقد انفرجت شفاههم ، واحتبست أنفاسهم ، بغير أن يأبهوا لمرور الوقت ؛ فقد خلبت القصة المثيرة لبهم .. وبلغ التوتر ذروته حينما قال الغلام :

— وبينما كان الدكتور يلتقط قطعة الحديد من فوق شاهد القبر ويضرب « ماف بوتر » بها ليخمد أنفاسه ، وثب « انجان جو » والسكين في يده و ...

وعندئذ ارتفع صوت تحطيم زجاج في القاعة . ! وفي سرعة خاطفة وثب « انجان » من النافذة كالسهم المنطلق ، وشق طريقه بقوة وسط معارضيه . . ثم اختفى !

الفصل الرابع والعشرون

أيام رائعة وليال مخيفة

أصبح « توم » بطلا ونجماً متألقا مرة أخرى — يدلله الكبار ويحسده الصغار . . . بل لقد ظهر اسمه فى الصحف ، فأشادت به صحيفة القرية . وكان هناك أشخاص يعتقدون أنه سوف يصبح رئيسا للولايات المتحدة ، إذا نجا من الموت ! !

وكالعادة ، حنت الدنيا التى لا تفكر على « ماف بوتر » ، ودللته بسخاء مثلما أسرفت فى الاساءة إليه .. ولكن لما كان هذا اللون من السلوك فى مصلحة المجتمع ، يجدر بنا ألا نحاول النيل منه ! !

كانت أيام « توم » فترات مجد وطرب ، ولكن لياليه كانت مواسم رعب وفزع ، فقد كان شبح « انجان جو » يفسد عليه أحلامه ، إذ كان يتمثل له والغدر فى عينيه ، ولهذا كان من المستحيل إغراء الغلام بالخروج من المنزل بعد أن يسدل الليل ستاره على الدنيا . . وكان « هاك » التعس يعانى من حالة مماثلة من الرعب والفزع . . . كان « توم » قد أفضى بالقصة كلها إلى محامى « بوتر » فى الليلة السابقة على يوم النطق بالحكم فى القضية وكان « هاك » يرتعد خوفا خشية أن يعرف شيء عن دوره فى المأساة رغم أن فرار « انجان » أعفاه من الإدلاء بشهادته فى المحكمة .. كان الغلام التعس قد حصل على وعد من المحامى بالتزام السرية . لكن ما جدوى هذا الوعد ؟ لقد أفلح ضمير « توم » وما أنزله به من عذاب فى دفع الغلام إلى الذهاب لمنزل المحامى ليلا ، وسرد القصة كلها عليه ، رغم القسم الذى أقسمه مع « هاك » ! ! وهكذا تزعزعت ثقة « هاك » بالجنس البشرى قاطبة !

وكان « ماف بوتر » يعرب لتوم عن شكره كل يوم ، مما جعل الغلام يشعر بالسرور لأنه تكلم ، ولكن ما أن يجن الليل حتى يعود فيتمنى لو أنه ظل مطبقا شفتيه !

كان « توم » يخشى ألا يقبض على « انجان » ، كما كان يخشى القبض عليه بعد فوات الأوان . . وكان يشعر بأنه لن يستطيع أن يتنفس بحرية حتى يموت هذا الرجل ويرى جثته بعينيه .

وقدمت لتوم مكافأة ، لما أبداه من شجاعة فى تطهير المدينة ، ولكن أحداً لم يستطع العثور لانجان على أثر . وجيء من سانت لويس بمفتش بوليس سرى من أولئك الذين يفعلون الأعاجيب . . وراح المفتش يبحث هنا وهناك ، ثم لم يلبث أن هز رأسه سلباً ، وبدت عليه أمارات الجد ، وقال إنه لم يستطع أن « يعثر على دليل » . وما أن كاد مفتش البوليس السرى ينتهى من عمله ويعود إلى منزله حتى عاد « توم » إلى قلقه وخوفه .

ومضت الأيام متثاقلة . . وكان كل يوم منها يخلف وراءه حملا أثقل من الخوف .

الفصل الخامس والعشرون

البحث عن الكنز المدفون

فى حياة كل غلام قوى البنية ، وقت تعتمل خلاله فى نفسه رغبة جارفة تدفعه إلى الذهاب إلى مكان ما للبحث عن كنز مدفون . وقد أحس «توم» بهذه الرغبة فجأة فى أحد الأيام ، فانطلق يبحث عن «جو هاربر» ، ولكنه فشل فى إقناعه بمرافقته ، فمضى لمقابلة «بن روجرز» ، ولكنه علم أنه ذهب لصيد السمك .

وأخيراً التقى بصديقه «هاكلبرى» الذى وافق على مرافقته ، فأخذه «توم» إلى مكان منعزل وفاتحه فى الموضوع بثقة . ووافق «هاك» على الفكرة : فقد كان «هاك» على استعداد للاستجابة دائماً ، والاشتراك فى أى مشروع يبشر بمتعة بدون أن يستلزم أى رأسمال ، سوى الوقت ، الذى كان يملك منه رصيداً لا نهاية له .

وقال «هاك» : ولكن أين الكنز ؟

— فى أى مكان ؟

— لماذا ؟ هل الكنز مخبأ فى كل مكان ؟

— كلا بالطبع . . . إنه مخبأ فى أماكن معينة يا «هاك» . — فأحياناً يخفى فى جزر ، وأحياناً أخرى فى صناديق متآكلة تحت جذع شجرة عتيقة ميتة حيث يسقط الظل عند منتصف الليل !! ولكنه يخفى فى أكثر الأحايين أسفل (أرضية) المنازل المسكونة بالأشباح .

— ومن الذى يخبئه ؟

— من ؟ اللصوص بالطبع .. وإلا فمن الذين يخبئونه ؟ المشرفون على مدارس الأحد ؟

— لست أدرى .. لو كان الكنز كنزى لما أخفيته ، وإنما أنفقه وأستمتع بوقت طيب .

— كذلك أنا . ولكن اللصوص لا يفعلون ذلك . . إنهم يخبئون كنوزهم ، دائماً ويتركونها حيث هى .

— ألا يجيئون بعدئذ لاستعادتها ؟

— لا .. إنهم يظنون أنهم سيفعلون ذلك ، ولكنهم ينسون عادة العلامات . أو يموتون . . ومهما يكن ، فإن الكنز يظل مدفوناً حيث هو وقتا طويلا حتى يصدأ . وفى يوم ما ، يعثر شخص ما على ورقة كبيرة قديمة صفراء اللون تبين كيف يمكن العثور على العلامات — ورقة يجب أن ينقضى أسبوع قبل النجاح فى حل رموزها ، لأن هذه الرموز تكون غالبا عبارة عن علامات ومعالم !

— معالم ؟

— نعم معالم — صور وأشياء يبدو وكأنها لا تعنى شيئا :

— هل لديك ورقة منها يا « توم » ؟

— لا

— إذن . . كيف ستعثر على العلامات ؟

— لست بحاجة إلى أية علامات ، فإن اللصوص يدفنون الكنوز دائماً أسفل منزل مسكون بالأشباح ، أو فى جزيرة أو أسفل شجرة ميتة لها فرع واحد بارز .. على أية حال ، لقد ألفنا جزيرة جاكسون بعض الشىء ويمكننا أن نعود إليها ثانية فى وقت ما . . وهناك أيضا المنزل العتيق المسكون فى « ستيل — هاوس » كما أن هناك عدداً كبيرا من جذوع

الأشجار الميتة !

— وهل الكنز أسفلها جميعا ؟

— ما هذا الذى تقوله ! ؟ لا . .

— إذن كيف ستعرف أيها هو الذى يجب أن تذهب إليه ؟

— سأذهب إليها جميعا !

— ولكن ذلك سيستغرق الصيف كله

— فليكن .. وماذا فى ذلك ؟ انفرض أننا عثرنا على قدر نحاسى بداخله مائة دولار وجميعها يعلوها الصدأ .. أو على صندوق متآكل مملوء بالماس فما رأيك فى ذلك ؟

فتألقت عينا « هاك » وقال .

— هذه ثروة .. ثروة كبيرة بالنسبة إلىّ .. يكفى أن تعطينى المائة دولار ، فإننى لست بحاجة إلى الماس .

— حسنا ما تقول . . فإننى لن أتخلى عن المــــاس . فإن بعض قطعه تساوى عشرين دولارا لكل قطعة — وعلى كل حال ، لن يقل ثمن أية قطعة منها عن ستة بنسات أو دولار !!

— أحقـاً ؟

— بالتأكيد — فى استطاعة أى شخص أن يقول لك ذلك .. ألم تر قطعة ماس من قبل يا « هاك » ؟

— لست أذكر ذلك

— أوه .. إن الملوك يملكون كميات ضخمة منها .

— ولكننى لا أعرف ملوكا يا « توم » !

— هذا حق . . . ولكن إذا أتيح لك الذهاب إلى أوربا ، فستجد

عدداً كبيراً منهم يتبخترون بعظمة فى كل مكان .

— هل هم « يتبخترون » حقا ؟ !

— لا أيها الأبله ؟

— ... إذن لماذا قلت إنهم يفعلون ذلك ؟

— فقط أردت أن أقول إنك سوف تراهم — ولكنهم لا يتبخترون بالمعنى الذى يخيل إليك ... إننى أقصد أنك تراهم يتنقلون بعظمة وخيلاء فى كل مكان بصفة عامة .. مثل ذلك الملك الأحدب « ريتشارد » !

— « ريتشارد » ! ما اسمه الآخر ؟

— ليس له اسم آخر .. فليس للملوك غير اسم واحد

— أحقا ؟

— هذا صحيح

— ما دام ذلك يعجبهم يا « توم » فليكن لهم ما يريدون .. ولكننى لا أريد أن أصبح ملكا حتى لا أحمل اسما واحداً مثل الزنوج !! ... والآن دعنا من هذا كله ، أين سنبدأ البحث عن الكنز ؟

لست أدرى .. لكن ما رأيك فى أن نبحث عند تلك الشجرة العتيقة القائمة فوق التل على الجانب الثانى من « ستيل — هاس » ؟

— أوافق

وهكذا أحضرا معهما عتيقا ومجرفة ، وشرعا فى رحلة طولها ثلاثة أميال !! . وأخيراً وصلا إلى غايتهما وهما يلهثان . فتهالكا فوق الأرض فى ظل شجرة مجاورة ، ريثما يستريحان ويدخنان .

قال « توم » أنى أحب هذا المكان :

— وأنا كذلك

— أخبرنى يا « هاك » .. إذا عثرنا على كنز فماذا ستفعل بنصيبك منه ؟

— لست أدرى .. سأتناول فطيرة محشوة بالجبن ، وأشرب زجاجة من الصودا كل يوم ، وسأذهب إلى كل سيرك يأتى إلى المدينة . وأراهن على أننى سوف أقضى وقتا طيبا !

— ألا تقتصد شيئا منه ؟

— أقتصد ! ولماذا ؟

— حتى يكون لديك رصيد تعيش منه على مرور الزمن

— أوه لا فائدة من ذلك ، فإن أبى لن يلبث أن يعود إلى المدينة فى أحد الأيام وينشب أظفاره فيه ، إذا لم أنفقه ، وأؤكد لك أنه سوف يستنزف « الرصيد » سريعا .. وأنت ماذا ستفعل بنصيبك يا « توم » ؟

— سأشترى طبلة جديدة ، وحساما قاطعا ، ورباط عنق أحمر اللون ، وأتزوج ...

— تتزوج !

— نعم

— « توم » ... أنك — يبدو أنك لست متمالكا قواك العقلية .

— انتظر — وسوف ترى

— حسنا ... هذا أحمق شىء يمكنك أن تفعله ... اعتبر بأبى وأمى ... لقد كانا يتشاجران طوال الوقت .. إننى أتذكر ذلك جيداً .

— ليس ذلك بذى بال ، فإن الفتاة التى سأتزوجها لن تتشاجر .

— « توم » أعتقد أنهن جميعا سواء ... إنهن جميعا (ينحلن وبر الرجال) ؟ فيحسن بك أن تفكر فى الأمر مليا ... لكن ما اسم الفتاة ؟

— سأذكره فيما بعد ...

— لك ما تريد ، ففى هذا الكفاية .. ولكن إذا تزوجت فتاتك فسأشعر أنا بشدة وطأة الوحدة !!

— . . لن تشعر بشىء من ذلك .. فستأتى لتعيش معى ... والآن دعنا من ذلك ولنبدأ الحفر .

وشرعا فى الحفر ، والعرق ينسـال منهما ، واستمرا يحفران نصف ساعة ، ولكن بلا جدوى . . . فمضيا يحفران نصف ساعة أخرى بغير أن يصادفا نجاحاً . وأخيراً قال « هاك » :

— هل يدفنون كنوزهم على مثل هذا العمق دائماً ؟

— أحيانا — وليس دائما ! أكبر ظنى أننا لم نختر المكان الصحيح .

واختارا بقعة أخرى شرعا يحفران فيها ، ومع أنهما كانا يحفران بفتور نتيجة لما حلّ بهما من تعب ، فقد مضيا يحفران بإصرار .

وأخيراً اتكأ « هاك » فوق فأسه ، وجفف العرق الذى انسال فوق جبهته بكم قميصه . وقال :

— أين سنحفر بعد أن نفشل هنا ؟

— لعله يحسن بنا أن نحفر أسفل الشجرة القائمة فوق « كارديف هيل » خلف قصر الأرملة « دوجلاس » ؛

— أعتقد أنها فكرة حسنة ، ولكن ألا تعتقد أن الأرملة سوف تستولى على الكنز إذا وجدناه ، مادامت الأرض أرضها ؟

— تستولى عليه ؟ قد تحاول ذلك . . ولكن القاعدة هى أن الذى يعثر على كنز مخبوء ، هو صاحب الحق فى الاستيلاء عليه ، بصرف النظر عمن يكون صاحب الأرض !!

واقتنع « هاك » بهذا الرأى ، واستمر الغلامان فى العمل ، وبعد فترة قال « هاك » :

— لاريب أننا لم نوفق إلى المكان المنشود مرة أخرى ... ما رأيك ؟

إنه لأمر جد غريب يا هاك ، وإنى لعاجز عن فهم الموقف ، ومهما يكن ؛ فإن الساحرات يتدخلن أحيانا ، وأكبر ظنى أن هذا هو السبب فيما نواجهه الآن من فشل .

— حديث خرافة .. فإن الساحرات لا يملكن أية قوة فى النهار !

— هـذا صحيح . الحق أنى لم أفكر فى ذلك . . أوه ! لقد فهمت كل شىء ! يا لنا من غبيين ! إن علينا أن نحـدد بالضبط النقطة التى ينتهى عندها ظل فرع الشجرة فى منتصف الليل . وعند هـذه النقطة نشرع فى الحفر .

— يا للهول ! إذن فقد ذهبت جهودنا كلها أدراج الرياح . . وما دام الأمر كذلك ، فيجب علينا أن نعود إلى هنا ليلا . . ولكن الطريق طويل كما تعلم ثم هل تستطيع أن تخرج من المنزل ليلا ؟

— أراهن على أنى أستطيع ذلك . ثم إننا يجب أن ننهى العمل الليلة ، فقد يرى أحد هذه الحفر ، فيدرك لتوه حقيقة الأمر ، ويسعى لإخراج الكنز .

— ربما . . سآتى إلى منزلك الليلة ، فانتظرنى !

— ليكن . . . دعنا نخبىء الأدوات فى الأدغال .

وعاد الغلامان إلى هذه المنطقة فى الوقت المحدد تقريباً أثناء الليل وجلسا فى الظل ، فى انتظار انتصاف الليل . كان مكاناً منعزلاً ، فخيل إليهما أن الأرواح تهمس بين أوراق الأشجار ، وأن الأشباح تتربص فى الأماكن المعتمة . وفى تلك اللحظة ارتفع من بعيد نباح كلب ضال ، فأجابته بومة قريبة بصوتها المفزع . وأحس الغلامان بالفزع يسرى فى قلبيهما ، فعمدا إلى الكلام للتسرية عن نفسيهما ، وبعد قليل خُيِّل لهما أن الليل قد

انتصف ، فحددا المكان الذى انتهى عنده ظل فرع الشجرة ، وراحا يحفران . . وسرعان ما انتعش أملهما ، وازداد اهتمامهما ، وازداد تبعا لذلك انهماكهما فى العمل . وكان قلباهما يثبان من فرط الفرح الممزوج بالخوف، كلما ارتطم أحد فأسيهما بشيء فى باطن الحفرة ، ولكنهما سرعان ما كانا يصابان بخيبة الأمل ، عندما يتبين لهما أن ذلك الشيء لا يعدو أن يكون حجراً أو جذراً من جذور شجرة كانت قائمة فى هذا المكان فى غابر الأيام .

وأخيرا قال «توم» : لافائدة من الاستمرار يا «هاك» ، فإننا نحفر فى مكان لا يبشر بالخير مرة أخرى .

— ربما ، ولكنى أعتقد أننا لم نخطىء ، فقد حددنا المكان بالضبط .

— أعرف ذلك ، بيد أن هناك أمراً آخر .

— وما هو ؟

— لقد حددنا وقت «منتصف الليل» جزافا ، ومن المحتمل أن يكون تحديدنا له غير دقيق .

فألقى «هاك» بالمجرفة على الأرض وقال :

— أصبت .. تلك هى المشكلة ، ويجب علينا أن نتخلى عن هذه الحفرة . ولكننا لانستطيع أن نحدد الوقت بالدقة ، ولاتنس أن العمل يغيض فى جوف الليل ، والساحرات والأشباح تملأ الفضاء من حولنا . إنى لأشعر بأن الأشباح تطاردنا ، وأخشى التطلع خلفى ، إذ من الجائز أن تكون أشباح أخرى واقفة أمامى تتحين هذه الفرصة ! ! إن جسمى يقشعر منذ جئنا إلى هنا . .

— لا تخف . . هـذا هو شعورى أيضا يا «هاك» . . فى أغلب الأحوال يدفن اللصوص جثة ميت عندما يدفنون كنزا تحت شجرة ، حتى تحرس الجثة الكنز ! !

— يا إلهى !

— نعم ، إنهم يفعلون ذلك ، فقد سمعت ذلك من أشخاص كثيرين .

— « توم » . إنى لا أرتاح إلى العبث فى الأماكن التى يوجد بها أموات فإن ذلك خليق بأن يثير لنا أشد المتاعب .

— وأنا لا أحب أن أثير الموتى .. لنفرض أن الميت الموجود هنا رفع جمجمته وقال شيئا !

— كفى يا « توم » ! هذا مخيف !

— مهما يكن . إنها الحقيقة يا « هاك » ، وأنا لا أشعر بأى ارتياح

— إذن فلنغادر هذا المكان يا « توم » ، ولنحفر فى مكان آخر .

— حسناً ، أظن أن ذلك هو خير ما يمكننا أن نفعله .

— وأين سنحفر ؟

ففكر « توم » قليلا . ثم قال :

— فى المنزل المهجور .. نعم ، هذا المكان المناسب .

— إننى لا أحب المنازل المهجورة يا « توم » .. فإنها تثير الفزع أكثر مما تثيره جثث الموتى . صحيح أن جثث الموتى قد تتكلم ، ولكنها لا تبرز لك فى الظلماء وأنت جاهل بأمرها ، ثم تتطلع من فوق كتفك فجأة ، كما تفعل الأشباح . إننى لا أستطيع احتمال مثل هذه الحالة بل إننى لا أظن أن إنسانا يستطيع احتمالها يا « توم » .

— هذا صحيح ، ولكن الأشباح لا تظهر إلا فى الليل فقط ، ومن ثم فإنها لن تعوقنا عن الحفر هناك نهاراً

— إنك على حق .. بيد أنك تعلم ولا شك ، أن الناس لا يذهبون إلى هذا المنزل فقط نهاراً أو ليلاً .

— لعل السبب فى ذلك هو أن الناس لا يحبون الذهاب إلى أى مكان

وقعت فيه جريمة قتل — ومع ذلك ، فإن شيئاً ما لا يظهر حول هذا المنزل إلا أثناء الليل — إنها بعض أضواء زرقاء اللون تمر بالنوافذ — ولكن لا تظهر أشباح منتظمة على ما أظن !

— حسناً ، حينما ترى ضوءاً من هذه الأضواء الزرقاء ، كن على يقين من وجود شبح خلف هذا الضوء مباشرة ، وليس من شك فى أن ذلك هو التعليل الصحيح ، لأن الأشباح وحدها هى التى تستخدم مثل هذه الأضواء .

— أصبت . . . وعلى كل حال ، فإن الأشباح لا تظهر نهاراً ، فما الذى يحملنا على الخوف ؟ .

— الحق معك إذن . . سنحفر فى المنزل المهجور مادمت تريد ذلك ، ولكى أعتقد أنها مجازفة . . .

كانا قد بدءا ينحدران من التل فى تلك الأثناء ، ومالبثا أن رأيا ، المنزل المهجور ، فى قلب الوادى ، وقد سقطت عليه أشعة القمر ، فأبرزته فى شكل مخيف . . . فقد تهدم سياجه منذ أمد بعيد ، ونبتت الأعشاب الطويلة من حوله ، بل فوق عتبته ، والدرج المؤدى إلى بابه ، أما المدخنة فقد تحطمت ، بينما كانت النوافذ مجردة من الزجاج والخشب ، كما اختفى جزء من السقف . . . وحملق الغلامان لحظات فى المنزل وهما يتوقعان رؤية ضوء أزرق يمرق من أمام إحدى النوافذ . ثم أخذا يتحدثان بصوت هامس ، ولم يلبثا أن انحدرا ناحية اليمين فى طريقهما إلى المنزل ، عبر الغابات .

الفصل السادس والعشرون

اللصوص الحقيقيون يستولون على صندوق الذهب

حوالى ظهر اليوم الثانى ، وصل الغلامان إلى الشجرة الميتة التى كانا يخفيان تحتها أدواتهما . . وكان « توم » أشد ما يكون لهفة على الذهاب إلى المنزل المهجور ، ولم يكن « هاك » أقل منه لهفة على ذلك ، ولكنه قال بغتة :

— اصغ إلىّ يا « توم » .. ألا تعلم فى أى يوم من أيام الأسبوع نحن ؟

وفكر « توم » فى أيام الأسبوع ، ثم لم يلبث أن رفع رأسه وقد تبدت فى عينيه نظرة تدل على الفزع .

وقال : رباه ! إننى لم أفكر فى ذلك إطلاقا « يا هاك » !

— وأنا أيضا لم أفكر فيه . . ولكننى تذكرت فجأة أن اليوم هو يوم الجمعة .

— إن الإنسان لا يستطيع أن يكون حذراً دائما « يا هاك » .. لاشك فى أنه ربما كان من المحقق أن تصادفنا متاعب جمة ، لو أننا انصرفنا إلى العمل فى يوم الجمعة .

— هناك أيام تجلب الحظ ، ولكن يوم الجمعة ليس واحداً منها .

— إن أى أحمق يعرف ذلك . . ولست أعتقد أنك أول من اكتشف هذه الحقيقة يا « هاك » .

— حسناً . إننى لم أقل إننى مكتشفها ، أليس كذلك ؟ ثم إن ذلك ليس كل شىء ، فقد حلمت حلماً سيئا ليلة أمس — حلمت بالفئران .

— أحقا ؟ إنها عـــلامة محققة تنبيء بكثير من المشاكل . . هل كانت تتشاجر ؟

— لا

— هذا مخيف يا « هاك » . . فما دامت الفئران لم تتشاجر ، فمعنى ذلك أن هناك بعض المشكلات ، ومن ثم يجب علينا أن نلزم الحذر التام ، وأرى أن نتخلى عن محاولة البحث عن الكنز اليوم ونلعب .. هل تعرف « روبن هود » يا « هاك » ؟ .

— لا .. من هو « روبن هود » هذا ؟

— كان رجلا من أعظم رجال انجلترا — وأكرمهم .. كان لصا ..

— ليتنى كنت مثله .. لكن مَنْ الذين كان يسرقهم ؟ .

— العمد والأساقفة والأثرياء والملوك وما أشبههم فقط ، ولكنه لم يزعج الفقراء مطلقاً ، فقد كان يحبهم . ولهذا كان يقتسم الغنائم معهم بعدل .

— لا ريب أنه كان إنسانا عظيما .

— لقد كان كذلك يا « هاك » .. إنه من أنبل الرجال الذين عرفهم هذا العالم ، وما أظن أن فى الدنيا رجالا مثله الآن . . كان فى استطاعته أن يهزم أى رجل ، وإحدى يديه مربوطة خلف ظهره ، كما كان فى استطاعته أن يستعمل قوسه المصقول فى إصابة قطعة من ذات العشر بنسات على مبعدة ميل ونصف ميل ! .

— ما هو القوس المصقول يا « توم » ؟

— لا أعلم .. أنه نوع من الأقواس على كل حال ... وكان إذا أصاب حافة قطعـــة النقود دون قلبها ، يلقى بقوسه على الأرض وينخرط فى البكاء — والسب . مهما يكن ، هلم بنا نلعب « روبن هود » . . وسأعلمك كيف يكون اللعب .

— هلم بنا .

وهكذا قضيا فترة بعد الظهر كلها وهما يلعبان دور « روبن هود » وكانا لا يكفان عن التطلع بلهفة إلى المنزل المهجور ، وينطقان بملاحظة عما ينتظرهما فى غدهما من مفاجاءات فى هذا المنزل . وعندما بدأت الشمس تنحدر نحو المغيب ، كرا عائدين إلى المنزل ، ولم تلبث غابات « كارديف هيل » أن ابتلعتهما .

وعند ظهر يوم السبت ، كان الغلامان قد وصلا إلى الشجرة الميتة ، وبعد أن دخنا قليلا وتجاذبا أطراف الحديث وهما جالسان فى ظل شجرة شرعا يوسعان قليلا فى الحفرة التى سبق لهما أن حفراها ، لا لأنهما كانا يتوقعان أية نتيجة من وراء ذلك ، وإنما لأن « توم » قال إن هناك حالات كثيرة جداً تخلى فيها الباحثون عن الكنوز عن العمل وهم قاب قوسين أو أدنى من النجاح ، ثم جاء أشخاص آخرون استأنفوا الحفر حيثما تخلى عن الحفر من سبقوهم ، ففازوا بالغنيمة بغير كبير عناء . ومع ذلك ، فقد فشل الغلامان فى العثور على الكنز ، فوضعا أدواتهما فوق كتفيهما ، وانطلقا إلى المنزل المهجور ، وهما يشعران بأنهما لم يقصّرا فى العمل .

وعندما وصلا إلى المنزل المهجور ، لاحظا أن الجو المحيط به يبعث على الفزع ، وأن شيئاً ما فيه — عدا الصمت والعزلة — يبعث على الانقباض . فتملكهما الخوف لحظة ، وتهيبا الإقدام على دخول المنزل . ثم لم يلبثا أن زحفا نحو الباب واختلسا النظر إلى الداخل وهما ينتفضان . فرأيا غرفة لا أرضية لها ، نبتت فيها حشائش طويلة ، وبها مدفأة عتيقة ، أما النوافذ فكانت مجردة من الزجاج والخشب ، بينما انتشرت خيوط العنكبوت فى كل ركن من أركانها . . . وبعد قليل تقدما إلى الداخل ، بحذر شديد وهما يتحدثان همساً ، وقلباهما يطرقان بعنف ، وأذناهما مرهفتان لالتقاط أى صوت ، وعضلاتهما متوترة استعداداً للتراجع السريع .

وما أن مضت فترة أخرى حتى بدأت مخاوفهما تهجع ، فألقيا نظرة فاحصة على ماحولهما ، وهما فخوران بشجاعتهما ويعجبان لها أيضاً .
وبعدئذ أراد الصعود إلى الطابق العلوى ، وكان ذلك بمثابة قطع طريق النجاة على نفسيهما ، إلا أنهما راحا يتحديان أحـــدهما الآخر ، وأخيراً وضعا أدواتهما فى ركن من الغرفة ، وشرعا يرتقيان الدرج العتيق . وعندما وصلا إلى الطابق العلوى لم يصادفا الا آثار الخراب التى أحدثها الزمن فى المنزل كله — وعثرا فى أحد الأركان على صندوق عتيق فانتعش أملهما ، ولكن ذلك الأمل لم يلبث أن تبدد حينما تبين لهما أنه صندوق فارغ وكانا قد استجمعا ماتشتت من شجاعتهما عندما سمعا صوتاً خافتاً !

همس « توم » : صه !

فهمس « هاك » وقد اصفر لونه : ماذا حدث ؟

— صه ! . . هناك . ! هل تسمع ؟

— يا إلهى ! نعم . . هلم بنا نغادر هذا المكان !

— الزم مكانك ! إياك والحركة . فإنهم قادمون نحو الباب .

— وانبطح الغلامان فوق الأرض ، وراحا يتطلعان من خـــلال الفجوات التى خلفتها عُـقَـد الألواح الخشبية ، وقد تملكهما الفزع تماماً .

قال توم :

— لقد وقفوا . . لا . . إنهم قادمون . . هاهم . إياك أن تهمس بكلمة أخرى يا «هاك» . . يا إلهى ! ليتنى لم أزجّ بنفسى فى هذا المأزق ! .

ودخل رجلان إلى الغرفة السفلى . فقال كل غلام للآخر : إنه الاسبانى العجوز الأصم الأبكم الذى رأيناه يتجول فى المدينة أخيراً — اما الرجل الآخر فلم تسبق لنا رؤيته .

كان الرجل الثانى مهلهل الثياب ، أشعث الشعر ، مخيف المنظر . وكان

الإسبانى يلف وجهه بقطعة من القماش،وقد دب المشيب فى سالفيه غزيرى الشعر ، بينما تدلى شعر رأسه الطويل إلى أسفل حافة قبعته ،وكان يخفى عينيه خلف عوينات خضراء اللون . . وعندما دخلا إلى المنزل كانا يتكلمان معاً بصوت منخفض ، ثم لم يلبثا أن جلسا فوق الأرض ووجهاهما إلى الباب ، وظهراهما إلى الجدار .. واستمر المتكلم منهما فى لغوه ، ولم يلبث أن تخلى عن حذره ، فاستطاع الغلامان سماع كلامه .. قال :

— كلا . . لقد فكرت فى الأمر ملياً . وأصدقك القول إننى غير مرتاح إليه لخطورته .

فقال الأسبانى ، « الأصم الأبكم » — وهو أمر أدهش الغلامين أشد دهشة :

— خطر ! حديث خرافة !

وذعر الغلامان حينما سمعا صوت « الأبكم » الذى يتكلم ! . . لقد كان « انجان جو » ! وساد الصمت لحظات . وبعدئذ قال « جو » :

— هل هناك شىء أكثر خطورة من المهمة الأخرى ؟ — ومع ذلك فإنها انتهت بسلام .

— إن الأمر مختلف . . فإن المكان هناك منعزل تماما .. ، ولا يوجد حوله أو بالقرب منه أى منزل — مهما يكن ، فإن أحداً لن يعلم أننا حاولنا شيئاً ، طالما أننا لم ننجح !

— حسناً ، أن المجىء إلى هنا فى وضح النهار على جانب عظيم من الخطورة ! — فأى إنسان يرانا سوف يرتاب فى أمرنا .

— أعرف ذلك . بيد أنه لم يكن هناك مكان نلوذ به أقرب من هذا بعد أن فشلت مهمتنا . . إننى أريد مغادرة هذه المنطقة .. لقد أردت أن أفعل ذلك أمس ، إلا أنه كان من الحماقة أن أفعل ذلك ، بينما هذان الغلامان اللعينان يلعبان فوق التل ويستطيعان أن يريانى بسهولة .

— هذان الغلامان الشقيان ! وأحس الغلامان بالخطر يقترب منهما ! !

وأخرج الرجلان طعاما تناولاه . . وبعد فترة طويلة من الصمت قال « انجان جو »

— أصغ الىّ يافتى — عد أدراجك إلى النهر حيث مستقرك ، وانتظر حتى تسمع منى . أما أنا فسأجازف بالذهاب إلى المدينة مرة أخرى لألقى نظرة . وسوف ننفذ المهمة « الخطرة » بعد أن أتجسس قليلا ، وأتبين أن فرصة نجاحنا مضمونة . . وبعدئذ سوف نذهب إلى تكساس ، سنذهب معاً إلى هناك .

ولزم الرجلان الصمت مرة أخرى .. وبدأ النعاس يدب فى جفونهما .. وما لبث « جو » أن قال .

— إننى شديد الرغبة فى النوم ! لقد حانت نوبتك للمراقبة .

وتمدد « انجان جو » فوق الحشائش ، وإن هى إلا لحظات حتى ارتفع شخيره ، فهزه زميله مرة أو مرتين ، ولكنه لم يستيقظ . . وبعد قليل سقط رأس المراقب فوق صدره ، وارتفع شخيره بدوره .

وتنفس الغلامان الصعداء . . وهمس « توم » :

— لقد حانت فرصتنا — تعال !

فقال « هاك » لا أستطيع — فسوف أموت خوفا إذا استيقظا .

وحثه « توم » — ولكن « هاك » جمد فى مكانه ، وأخيراً نهض « توم » ، وتهيأ لهبوط الدرج الخشبى بمفرده ، ولكنه ما كاد يخطو الخطوة الأولى حتى أحدث سيره على خشب الدرج صوتاً مزعجاً جعل « توم » يتهالك فوق الأرض وهو ينتفض من فرط الرعب . . ولم يحاول النهوض مرة أخرى ، وبقى الغلامان ممددين فوق الأرض ، بينما الدقائق تمر بتثاقل

نحيف، حتى خيل إليهما أن الوقت لا يمر ، ولكنهما لم يلبثا أن شعرا بالارتياح ، حينما لاحظا أن الشمس أخذت تنحدر نحو المغيب .

وتوقف شخير أحد الرجلين بغتة . واستوى « انجان جو » جالساً ، ثم حملق فيما حوله — وابتسم باكتئاب حينما وقعت عيناه على زميله الذي كان رأسه قد استقر فوق ركبتيه — وهزه بقدمه قائلا :

— استيقظ ! ألست مراقباً ؟ حسناً — الحمد لله ، فإن شيئاً ما لم يحدث .

— يا إلهي : هل كنت نائماً ؟

— بعض الشيء . . لقد حان وقت الإنصراف . لكن ماذا سنفعل بالثروة التي بقيت لنا ؟

لست أدري — نتركها هنا مثلما نفعل دائماً . . لا جدوى من أخذها معنا قبل أن يحين موعد هروبنا غرباً إلى تكساس ، فإن ستمائة وخمسين دولاراً فضياً ليست مما يسهل حمله .

— حسناً . . حسناً . . لا أظن أن هناك ما يحول دون مجيئنا هنا مرة أخرى .

— كلا — ولكني أفضل المجيء ليلا كما اعتدنا — إن ذلك أفضل .

— نعم . . لكن اصغ إليّ : ربما انقضى وقت طويل قبل أن تتاح لي الفرصة المناسبة لأداء المهمة . وقد تقع حوادث في تلك الأثناء ، فإن هذا المكان ليس مأموناً تماماً . . فيحسن أن ندفن الثروة — على عمق كبير .

فقال زميله : إنها فكرة حسنة .

وأخذ الرجل الآخر يتمشى في أرجاء الغرفة . ثم توقف أمام المدفأة ، وانحنى ، ورفع حجراً من أحجارها ، التقط من أسفله كيساً أحدث رنيناً

يسر الأذن . . وأخذ من هذا الكيس عشرين أو ثلاثين دولاراً احتفظ بها لنفسه ، وقدم مثلها لجو ، الذى كان راكعاً فوق ركبتيه فى ركن الغرفة وهو يحفر الأرض بسكينة .

ونسى الغلامان كل مخاوفهما وحرج مركزهما فى تلك اللحظة . وراحا يراقبان كل حركة تحدث فى الغرفة السفلى باهتمام . . إنه الحظ ! — لقد واتاهما الحظ أخيراً بقدر لم يكونا يتوقعانه ! إن ستمائة دولار تكفى لإسباغ نعمة الثراء على ستة فتيان ! لم يعد هناك ما يدعوهما للبحث عن كنز . وراح كل منهما يلكز صاحبه بمرفقه — لكزات ذات مغزى مفهوم إذ كان معناها « أوه ! ألست مسروراً الآن لأننا بقينا هنا ؟ » .

وارتطم سكين « جو » بشىء ما ، فهتف : ما هذا ؟

فقال صاحبه : ماذا ؟

— لقد اصطدم السكين بقطعة من الخشب على ما أظن . . كلا . . إنه صندوق — أنظر — هلم عاونى لنعرف لماذا وُضع هذا الصندوق هنا . . فقد حفرت حفرة كبيرة كافية .

ومد « انجان جو » يده ، وجذب غطاء الصندوق . ولم يلبث أن هتف :

— إنها نقود !

وراح الرجلان يتأملان حفنتى النقود اللتين أخذاها من الصندوق . . كانت النقود من الذهب !! . ولم يكن الغلامان الخائفان أقل انفعالا وسروراً من الرجلين .

قال زميل جو :

سوف نُخرِج الصندوق بسرعة ، فقد رأيت فأساً ومجرفة قديمين بين الأعشاب فى ركن الغرفة المجاورة للمدفأة — لقد رأيتهما منذ لحظات فقط !

وتقدم « جو » نحو ركن الغرفة ، وأحضر الفأس والجرفة اللذين تركهما الغلامان هناك . وأخذ الجرفة وتأملها فاحصاً . ثم هز رأسه ، وتمتم بكلمات غير واضحة ، وراح يحفر بجوار الصندوق ، وسرعان ما أخرج الصندوق .. لم يكن الصندوق كبيراً ، وكان مشدوداً بأحزمة من الحديد ، ولكن الزمن كان قد أثر فيه أسوأ تأثير . . وراح الرجلان يتأملان الكنز فى صمت وهناء .

وأخيرا قال « انجان جو » : إن فى هذا الصندوق آلاف الدولارات أيها الزميل .

— لقد سمعت أن عصابة « موريل » اعتادت أن تأتى إلى هذه المنطقة فى صيف أحد الأعوام .

— أعرف ذلك . ويبدو أنها هى التى دفنت هذا الكنز .

— والآن . لم تعد ثمة حاجة بك إلى أداء المهمة الأخرى .

فقطّب « انجان جو » حاجبيه ، وقال :

— إنك لا تعرفنى .. ولا تعرف كل شىء عن هذه المهمة الأخرى . . إننى لا أريد أداءها للسرقة فقط — إنما للثأر !

وتألقت عيناه ببريق جهنمى . ثم أردف :

— سأحتاج إلى معونتك فى هذه المهمة . . وعندما نفرغ منها ، سنمضى إلى تكساس . . ستعود إلى وطنك حيث توجد زوجتك « نانسى » وأطفالك .. فالزم الصمت حتى تسمع منى .

— سمعاً وطاعة . . ليكن لك ما تريد . . لكن ماذا سنفعل بهذا — هل ندفنه ثانية ؟

— نعم (كاد الغلامان يطيران من فرط الفرح فى تلك اللحظة) . لا . . لا . . بحق الشيطان (استولى الجزع الشديد على الغلامين) . . لقد

كدت أنسى . . أن هذه المجرفة استعملت حديثا ! (هنا أحس الغلامان بأن قلبيهما يوشكان أن يكفا عن الحركة) . . ما السبب فى وجود الفأس والمجرفة هنا ؟ وما هو السبب فى وجود آثار حفر حديثة عليهما ؟ ومَنْ الذى أحضرهما إلى هنا — وأين ذهب هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص ؟ هل سمعت صوتاً ؟ — هل رأيت أحدا ؟ ماذا — أندفنه ثانية وندعهم يجيئون ويرون آثار الحفر فى أرض هذه الغرفة ؟ لا . . لا . . سنذهب به إلى عرينى .

— بالطبع . . كان ينبغى أن أفكر فى ذلك من قبل . . أتعنى رقم ١ ؟

— لا ، بل رقم ٢ ، تحت الصليب . . إن المكان الآخر ردىء للغاية — إنه وضيع جداً !

— إفعل ما تريد . . لقد أقبل الليل ، وأظن هذا هو أنسب وقت للانصراف .

ونهض « إنجان جو » واقفا ، وأخذ ينقل بصره من نافذة إلى أخرى ، وهو ينظر إلى الخارج . وأخيراً قال :

— مَنْ الذى أحضر هذه الأدوات هنا ؟ هل تظن أنهم مختبئون فى الطابق العلوى ؟

وغاص قلبا الغلامين بين جنبيهما . ووضع « إنجان جو » يده فوق سكينه ، وتردد لحظة ، ثم تحول إلى الدرج . . وفكر الغلامان فى الالتجاء إلى (المطبخ) ولكن قواهما خذلتهما . وبدأ الدرج يُحْدِث صوتا تحت أقدام « إنجان جو » ، وهو يرتقيه — وفجأة دبت القوة فى جسمى الغلامين واستعدا للاندفاع نحو (المطبخ) ، عندما سمعا صوت ارتطام شديد ؛ فقد سقط « إنجان جو » والدرج معه إلى الطابق الأرضى . . ونهض « إنجان » متعثرا وهو يسب ويلعن ، فقال زميله :

— ما جدوى ذلك كله ؟ إذا كان بالطابق العلوى أحد — فليبق

حيث هو — فإن ذلك لا يهمنا ! إذا أراد الوثوب من الطابق العلوى وإيذاء نفسه ، فمنذا الذى يأبه له ؟ إن الدنيا لن تلبث أن تظلم بعد ربع ساعة — فليحاول من يريد أن يتبعنا إذا شاء ، فإننى على استعداد لملاقاته . وعندى أن الشخص الذى أحضر هذه الأدوات إلى هذا المكان اعتقد أننا من الأشباح أو الشياطين أو المشعوذين . . وأقسم أنه لاذ بالفرار !

وظل « جو » يتذمر لحظات . . ثم وافق على ضرورة الاستعانة بما تبقى من ضوء النهار فى الاستعداد للانصراف .. وبعد قليل ، تسلل الرجلان من المنزل ، وانطلقا نحو النهر وهما يحملان الصندوق الثمين .

ونهض «توم» و « هاك » ..كانا يحسان بضعف شديد ولكن شعورهما كان منطويا على راحة أشد . وراحا يرقبان الرجلين من خلال الشقوق الموجودة فى جدار الغرفة . . ويتساءلان : أيتبعانهما ؟ لا..إطلاقا ! وقنعنا بالوصول إلى الأرض سالمين ، بغير أن يدق عنقاهما أو تصاب أقدامهما بسوء . وانطلقا فى الطريق المؤدى إلى المدينة . ولكنهما لم يُكثِرا من الحديث . فقد كانا منهمكين فى الحقد على نفسيهما — الحقد على حظهما التعس الذى جعلهما يأخذان أدوات الحفر معهما . فلولاها لما ساورت الريبة « إنجان جو » على الإطلاق ، ولخبأ الفضة مع الذهب ، إلى أن يحقق « ثأره » ، وعندئذ سوف يكتشف أن الكنز قد اختفى .. يالسوء الحظ الذى دفعهما إلى إحضار تلك الأدوات معهما .

وقررا البحث عن « جو » ومراقبته عندما يجىء الى المدينة مترقباً الفرصة للقيام بعمله الانتقامى ، فيتبعانه الى « رقم ٢ » أينما كان . وعندئذ خطرت لتوم فكرة أفزعته !

هتف : ثأر ؟ ألا يكون الثأر منا يا « هاك » ؟

فقال « هاك » وقد أوشك على الإغماء : لست أتصور ذلك !

وأخذا يقلبان الأمر على مختلف وجوهه، وبينما كانا يهمان بدخول المدينة، اتفقا على أنه من الجائز أن الرجل يقصد شخصا آخر — أو على الأقل لعله يقصد «توم» وحده لأنه الوحيد الذى أدلى بشهادته فى المحكمة.

واستشعر «توم» القلق؟ حينما تبين له أنه يقف فى دائرة الخطر بمفرده!

الفصل السابع والعشرون

إقتفاء الأثر

أفسدت مغامرة النهار أحلام « توم » أيما إفساد أثناء الليل . . فقد رأى بيديه تلمسان الكنز العظيم أربع مرات ، ولكن حلمه كان لا يلبث أن يتبخر كلما استيقظ فزعاً ، فيدرك مدى سوء حظه .. وبينما كان ممدداً فوق الفراش في صباح اليوم التالى ، وهو يسترجع فى ذهنه تفاصيل مغامرته الكبرى ، لاحظ أنها تبدو له سحيقة بشكل عجيب - كما لو كانت قد وقعت فى عالم آخر ، أو منذ أحقاب طويلة من الزمن . . ثم خطر له أن المغامرة الكبرى نفسها قد تكون حلماً ! وكانت هناك حجة قوية تدعم هذه الفكرة ، ألا وهى أن كمية النقود التى رآها كانت أضخم من أن تكون حقيقية ، إذا لم يسبق له أن رأى أكثر من خمسين دولارا مرة واحـــدة ، ولما كان كجميع الفتيان الذين فى مثل سنه وظروفه الاجتماعية من حيث توهمهم أن الإشارة إلى « مئات » و « آلاف » الدولارات ، ليست إلا أشكالاً خيالية من أشكال التصور ، فإنه لم يستطع أن يصدق أن فى الدنيا أموالا كهذه . . لم يكن يدور بخلده البتة أن مبلغا كبيراً مثل مائة دولار ، يمكن أن يتوفر لأى شخص !

ولكن تفاصيل مغامرته كانت لا تلبث أن تبدو له أكثر وضوحا وعمقا كلما تعمق فى التفكير ، ومن ثم فسرعان ما تبلبل تفكيره ، ولم يستطع أن يقطع فى الأمر برأى . . ولهذا تناول إفطاره على عجل ، وانطلق يبحث عن « هاك » ليقطع الشك باليقين .

وكان « هاك » يجلس فوق حافة النهر ، وهو يهز ساقيه المتدليتين فى الماء وقد ارتسمت على وجهه أمارات الاكتئاب . . وقرر « توم » أن يترك

لهاك مهمة البدء بالحديث ؛ فإذا لم يشر إلى موضوع الكنز ، كان ذلك معناه أن المغامرة كلها لم تكن إلا حلما !

وبعد أن تبادل الغلامان التحية لزما الصمت . وأخيراً قال « هاك » :

— لو أننا تركنا هاتين الأداتين اللعينتين عند الشجرة ، لحصلنا على الكنز يا « توم » أليس ذلك من نكد الدنيا ؟

— إذن لم يكن الأمر حلماً !

— أى حلم تعنى ؟

— ما مر بنا أمس . . لقد ساورنى الشك فى أنه كان حلماً !

— كان حلماً ! لولا انهيار الدرج لكنت تشاهد أحلاماً كثيرة الآن ! لقد حلمت بما فيه الكفاية أثناء الليل — حلمت أن ذلك الشيطان الإسبانى اللعين يطاردنى ليقتلنى . . عليه اللعنة !

— دعنا من اللعنة — إنما يجب علينا أن نعثر عليه . علينا أن نبحث عن الكنز !

— « توم » إننا لن نعثر عليه . . إن الإنسان لا تتاح له إلا فرصة واحدة للحصول على مثل هذا الكنز . وقد ضاعت هذه الفرصة . . مهما يكن ، لا شك فى أننى سوف أموت فزعا إذا رأيته ثانية .

— وأنا أيضا ، ولكنى أريد أن أراه على كل حال — وأن أتعقبه — إلى رقم ٢ .

— رقم ٢ . . نعم . . نعم . . لقد كنت أفكر فيه ، ولكنى لم أستطع أن أفهم شيئاً . . ماذا تظنه ؟

— لست أدرى . . فإن المعنى أعمق من أن أدركه بسهولة . . اصغ إلىّ يا « هاك » — ألا يكون هذا رقم أحد المنازل ؟

— كلا يا « توم » . . إن الأمر ليس كذلك ، فليس للمنازل أرقام فى هذه المدينة .

— آه ! إنك على حق . . إذن دعنى أفكر قليلا — آه ! لعله رقم غرفة فى فندق !

— أعتقد أنها خدعة ! فإن بالمدينة فندقين فقط ، وفى استطاعتنا أن نجلو الحقيقة سريعاً .

— ابق هنا يا « هاك » ريثما أعود .

وانصرف « توم » على الفور ، فإنه لم يكن يرتاح إلى وجود « هاك » معه فى الأماكن العامة !! . وغاب نصف ساعة ، اكتشف بعدها أن محاميا يشغل الغرفة رقم ٢ من الفندق الأول منذ وقت طويل ، وما زال يشغلها حتى الآن . أما فى الفندق الآخر ، فكان الغموض يحيط بالغرفة رقم ٢ : فقد قال ابن حارس هذا الفندق لتوم أن تلك الغرفة مغلقة دائما ، وأنه لم ير أحداً يدخلها أو يخرج منها إلا أثناء الليل ، ولكنه لا يعلم السبب فى ذلك وكل ما استطاع أن يقوله هو أنه يعتقد أن هذه الغرفة « مسكونة بالأشباح » ثم أردف قائلا أنه رأى ضوءا فى هذه الغرفة فى الليلة السابقة !!

قال لهاك : هذا ما اكتشفته يا هاك . . وأكبر ظنى أن ذلك هو رقم٢ الذى نريده .

— أعتقد ذلك يا « توم » . . ماذا ستفعل الآن ؟

— دعنى أفكر

وفكر « توم » طويلا . . ثم قال :

— سأخبرك . : إن الباب الخلفى لرقم ٢ ، هو الباب الذى يطل على الممر الضيق الواقع بين الفندق وذلك المخزن العتيق . . فعليك أن تحضر جميع مفاتيح الأبواب التى تستطيع العثور عليها ، وسأسرق أنا مفاتيح عمتى . وفى أول ليلة معتمة ، سنجرّب فتح باب الغرفة بهذه المفاتيح . . لكن يجب أن تفتح عينيك جيداً ، لأن « انجان جو » قال إنه سيأتى إلى المدينة مرة أخرى

لعل فرصة تتاح له للثأر . فإذا رأيته اتبعه . فإذا لم يذهب إلى رقم ٢ هذا فمعنى ذلك أنه ليس المكان المنشود .

— يا إلهى ! إننى أود أن أتبعه بنفسى !

— تستطيع ذلك ، لأن الوقت سيكون ليلا بكل تأكيد . ومن ثم فقد لا يراك — وحتى إذا رآك فإنه لن يرتاب فى أمرك .

— هذا حق . . . إذا كان الظلام دامساً ، فسأتبعه — لست أدرى . . . سأحاول !!

— أؤكد لك أننى لن أتردد فى تعقبه إذا كان الظلام دامساً يا « هاك » . . فقد يتحقق من أنه لن يستطيع الثأر بسبب الظلام ، فنذهب فى طلب الكنز .

— إن الأمر كذلك يا « توم » ! إنه كذلك اسوف أتبعه . . نعم، سأتبعه

— إن هذا عين العقل يا « هاك » إياك أن تضعف . . وأنا أيضاً لن أضعف

الفصل الثامن والعشرون

فى عرين « إنجان جو » !

استعد « توم » و « هاك » للقيام بمغامرتهما فى تلك الليلة . وراحا يتسكعان على مقربة من الفندق إلى ما بعد الساعة التاسعة ، فكان أحدهما يراقب الممر عن كثب ، بينما كان الثانى يراقب باب الفندق . . . ولم يدخل أحد من الممر أو يخرج منه ، كما أن أحداً شبيها بالأسبانى لم يدخل من باب الفندق أو يخرج منه . . . وبدا كأن الليلة ستكون صافية ، ومن ثم فقد عاد « توم » إلى المنزل بعد أن اتفق مع « هاك » على أنه إذا أظلمت السماء بدرجة كافية ، فإن عليه أن يبادر بالحضور إلى منزله ، فينضم إليه « توم » ثم يذهب إلى الفندق لتجربة المفاتيح . . ولكن السماء ظلت صافية ، فتخلى « هاك » عن المراقبة حوالى منتصف الليل ، وقضى ليلته نائماً فى برميل كبير فارغ !

لم يكن حظ الغلامين فى يوم الثلاثاء أسعد منه فى يوم الاثنين . . . كما ظل الحظ متنكرا لهما فى يوم الأربعاء . ولكن ليل الخميس كان يبشر بتحسن الظروف الملائمة لتنفيذ خطتهما . . فتسلل « توم » من منزل عمته فى الوقت المناسب ، وقد حمل معه مصباحها المصنوع من الصفيح ومنشفة كبيرة ليحجب ضوء المصباح بها . . . وأخفى « توم » المصباح فى البرميل الكبير الفارغ الذى قضى « هاك » ليلته فيه ؛ ثم بدأت المراقبة . . . وقبل أن ينتصف الليل بساعة ، أغلق الفندق أبوابه ، وأطفئت أنواره ، دون أن يظهر للأسبانى أثر ، ودون أن يدخل أحد إلى الممر أو يخرج منه . . . وكان الهدوء مستتبا والظلام دامساً ، ولم يعكر صفو هذا السكون إلا قرقعة الرعد من بعيد .

وأحضر « توم » المصباح وأوقده بداخل البرميل ، ثم لفّه جيداً بالمنشفة ، وتسلل المغامران نحو الفندق فى الظلام . ووقف « هاك » يراقب المدخل ، بينما تحسس « توم » طريقه بداخل الممر . . ومضى وقت طويل و « هاك » فى الانتظار . وأخيرا ثقلت وطأة الانتظار على « هاك » ، وانتابه القلق . فبدأ يتمنى لو أنه استطاع أن يرى شعاعا من نور المصباح — صحيح أنه سيثير الفزع فى نفسه ، ولكنه سيؤكد له من ناحية أخرى أن « توم » لا يزال على قيد الحياة ! وخيل إليه أن ساعات طويلة انقضت منذ ذهب « توم » لأداء مهمته . . . وبدأ يخشى أن يكون « توم » قد أغمى عليه ، أو لقى حتفه ، من شدة الفزع وقوة الانفعال . . . وبينما هو يضرب أخماساً فى أسداس ، ألفى نفسه يقترب رويدا رويدا من مدخل الممر ، وقد سيطرت عليه الهواجس والظنون . . . وكان يتوقع أن تقع كارثة فى أية لحظة فتقضى عليه بدوره . . . وفجأة سطع شعاع من الضوء فى كبد الظلام ، وأقبل « توم » يركض بجنون .

ثم صاح « توم » بادر بالفرار ! اركض بأقصى ما تستطيع من قوة ! .

ولم يجد « توم » ما يدعوه إلى تحذير صديقه مرة أخرى ، فقد انطلق « هاك » يعدو بسرعة تتراوح بين ثلاثين وأربعين ميلاً فى الساعة . ولم يتوقف الغلامان عن العدو ، إلا حينما وصلا إلى حظيرة مجزر مهجور فى الجانب المنخفض من المدينة . وما أن دخلا الحظيرة . حتى هبت العاصفة وهطل المطر غزيراً .

وعندما هدأت ثائرة « توم » قال :

— لقد كان الموقف مخيفاً يا « هاك » ! حاولت أن أفتح الباب باستعمال مفتاحين مما أحمل ، ولزمت أشد الحذر وأنا أجربهما . ولكنى فشلت ، ولست أدرى أكان ذلك مرجعه اضطرابى ، أو عدم ملاءمتهما لفتح القفل . وبغير أن أدرى ماذا كنت أفعل ، وضعت يدى على مقبض الباب وأدرته ،

وفى التو فُتِحَ الباب ! فإنه لم يكن مغلقا ! ودخلت الغرفة ، ورفعت المنشفة من فوق المصباح ... ثم ... يا إلهى !

— ماذا ... ؟ ماذا رأيت يا « توم »

— لقد كدت أطأيد « انجان جو » بقدمى يا « هاك » !.

— أحقا ؟ .

— نعم ... كان ممدداً فوق الأرض وهو مستغرق فى النوم ، وقد غطى عينيه بخرقة ، وبسط ذراعه فوق الأرض .

— يا إلهى ! وماذا فعلت ؟ هل استيقظ ؟ .

— لا . . . إنه لم يتحرك .. أظنه كان مخموراً . . . وعلى الفور اختطفت المنشفة ثم بادرت بالفرار !

— أؤكد لك أننى ما كنت لأفكر فى المنشفة ، لو أننى تعرضت لمثل هذا الموقف !

— أما أنا فقد فكرت فيها ، إذ لا ريب فى أن عمتى كانت تسىء إلىّ أبلغ إساءة لو أننى فقدتها .

— أخبرنى يا « توم » ... هل رأيت الصندوق ؟

— لا . . . لم أتريث حتى أتأمل ما فى الغرفة . . . ومن ثم فإننى لم أر الصندوق ، كما أننى لم أر الصليب . . . بيد أننى لمحت زجاجة ، وفنجانا من الصفيح موضوعين فوق الأرض بجوار « انجان جو » . . . آه ورأيت أيضا برميلين ومزيدا من الزجاجات فى الغرفة ألم تدرك بعد ما هو شأن هذه الغرفة « المسكونة » ؟

— ماذا ؟

— إنها « مسكونة » بالخمر ! من الجائز أن بجميع الفنادق غرفاً مسكونة كهذه !

ـ أعتقد أن الأمر كما تقول إذ مَنْ كان يفكر فى مثل ذلك ؟ لكن أخبرنى يا « توم » ، أليس الوقت ملائماً الآن للاستيلاء على الصندوق مادام « إنجان » مخموراً .

ـ أحقاً ! إذن حاول !

فارتعش « هاك » .. وقال : لا .. أظن أننى لن أفعل ذلك .

ـ وأنا أيضا يا « هاك » . . إن زجاجة واحدة لا تكفى لإفقاد « إنجان جو » صوابه . ولو أننى رأيت بجانبه ثلاث زجاجات فارغة لأدركت أنه مخمور إلى درجة كافية ، ولحاولت البحث عن الصندوق .

ومضى الغلامان يفكران لحظات وأخيراً قال « توم » :

إصغ إلىّ يا « هاك » . . يجب أن نتخلى عن تلك المحاولة إلى أن نعلم أن « إنجان جو » غير موجود بالغرفة . فإن وجوده فيها يشيع الفزع فى القلب . . فإذا راقبنا الغرفة كل ليلة ، فمن المحقق أننا سنراه وهو يغادرها ، إن عاجلا أو آجلا . وعندئذ نخطف الصندوق فى سرعة البرق .

ـ إننى موافق على هذا الرأى . . سأراقب الفندق طوال الليل ، إذا قبلت أن تقوم ببقية المهمة .

ـ حسنا ، سأفعل . . وكل ماينبغى عليك أن تفعله حينما ترى « إنجان جو » يغادر الفندق ، هو أن تأتى إلى « شارع هوبر » وتموء ، فإذا لم أستيقظ فلا بأس من أن تلقى حصاة على النافذة فأستيقظ ! !

ـ اتفقنا !

ـ لقد انتهت العاصفة يا « هاك » ، وسأعود الآن إلى المنزل ، فإنه لم يبق على طلوع النهار سوى ساعتين ، أما أنت فعد لمراقبة الفندق حتى يطلع النهار . . هل تفعل ذلك ؟

قلتُ إننى سأفعل . . يا « توم » وسأفعل .. سأظل أراقب هذا الفندق

ولو استمرت المراقبة عاماً كاملا ! سأنام بالنهار وأراقب طوال الليل .

ولكن أين ستنام ؟

— فى مخزن (الدريس) بمنزل « بن روجرز » فكثيراً ما يسمح لى بقضاء الليل هناك ، كما يسمح لى أيضا بذلك أبوه الزنجى « العم جاك » فإننى أجلب الماء للعم « جاك » كلما طلب منى ذلك ، ولهذا فإنه يسمح لى بالنوم فى المخزن ويعطينى ما أطعم به ، إذا توفر لديه شىء يؤكل . إنه زنجى طيب القلب يا « توم » . . . فهو يحبنى لأننى لا أتصرف مطلقا كما لو كنت أعلى منه مرتبة ، فكم من مرة شاركته طعامه ! ! لكن لا داعى لأن تذكر ذلك لأحد ، فإن الإنسان يضطر إلى ارتكاب أخطاء جسيمة حينما يعضه الجوع بنابه ، رغم أنها أخطاء يشمئز المرء من ارتكابها فى الأحوال العادية ! !

— إسمع يا « هاك » .. إذا لم أكن بحاجة إليك نهاراً فسأدعك نائماً .. ولن آتى لإزعاجك . أما إذا رأيت شيئاً فى الليل ، فبادر بالمجىء إلى المنزل ولن تنس أن تموء تحت النافذة كما تفعل القطط ! !

الفصل التاسع والعشرون

« هاك » ينقذ الأرملة

كان أول شىء سمعه « توم » فى صباح يوم الجمعة نبأ طيباً — لقد عاد القاضى « تاتشر » وأسرته إلى المدينة فى الليلة السابقة .. وفى التو أصبحت قصة « انجان جو » والكنز فى المرتبة الثانية من الأهمية . واحتلت « بيكى » المركز الأول من اهتمام « توم » وتقابل الفتى والفتاة ، وقضيا وقتاً طويلاً فى لعب « عسكر وحرامية » و « استغماية » مع جمع كبير من زملائهم وزميلاتهم فى المدرسة . . وانتهى اليوم بطريقة تبعث على الرضاء التام ، فقد أقنعت « بيكى » أمها بتحديد اليوم التالى موعداً للنزهة التى وعدتها بها منـــذ أمد طويل قبل بدء العطلة المدرسية . وفرحت الفتاة فرحاً شديداً ولم يكن « توم » بأقل فرحاً منها . وسرعان ماسرت بين فتيان القرية وفتياتها نشوة الاستعداد للنزهة . وكان « توم » شديد الانفعال ، حتى لقد ظل مستيقظاً إلى ساعة متأخرة من الليل ، وهو يأمل أن يسمع الإشارة المتفق عليها بينه وبين « هاك » ويتمكن من الحصول على الكنز ليفاجىء به « بيكى » وزملائه فى اليوم التالى . . ولكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة ، إذ لم تأته الإشارة فى تلك الليلة .

وأقبل الصباح أخيراً ، وحوالى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة التأم شمل جماعة كبيرة من فتيات وفتيان القرية فى منزل القاضى « تاتشر »

وكان كل شىء قد أعدّ للبدء بالرحلة . . ولم يكن من عادة المتقدمين فى السن أن يفسدوا مثل هذه الرحلات باشتراكهم فيها ، إذ كانوا يعتبرون الأطفال فى أمان تام ، ماداموا تحت إشراف عدد من الفتيات اللائى لا تقل أعمارهن عن الثامنة عشرة ، والشبان الذين لا تقل أعمارهم عن الثالثة والعشرين ...

واستؤجرت الناقلة البخارية العتيقة لهذه المناسبة ، وسرعان مابدأت جموع الأطفال المرحة تتدفق فى صف طويل فى شارع المدينة الرئيسى وكل منهم يحمل سلة طعامه . وكان « سيدنى » مريضاً فى تلك الأثناء فتخلف عن الاشتراك فى الرحلة ، بينما بقيت « مارى » فى المنزل لتسليته . وكان آخر شيء قالته مسز « تاتشر » لبيكى هو :

— إنكم لن تعودوا إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، ولعله من الأفضل أن تقضى الليلة مع بعض البنات اللائى يقطن قريباً من مرسى الباخرة يا بنيتى .

— إذن فسأقضى الليلة مع « سوزى هاربر » يا أماه

— الرأى ماترين .. ولكن احرصى على التزام آداب السلوك ، ولا تثيرى أية متاعب .

وبينما كانوا يسيرون فى الشارع قال «توم» لبيكى :

إصغى إلىّ ، فسأقول لك ماذا يحسن بنا أن نفعل .. سنرتقى التل ، ونقضى الليل فى منزل الأرملة « دوجلاس » بدلا من قضائه فى منزل « جو هاربر » ، فإن الأرملة تُعد دائما كميات كبيرة من (الآيس كريم) فى منزلها كل يوم تقريباً .. ولا شك فى أنها ستسر أبلغ السرور باستضافتنا

— أوه ! لاشك فى أن ذلك سيكون مدعاة لمرح كثير .

وفكرت « بيكى » لحظة ، ثم قالت :

— لكن ماذا ستقول أمى ؟

فأجاب : ومن أين لها أن تعرف ؟

وقلبت الفتاة الفكرة فى رأسها ، ثم قالت بتردد :

— أعتقد أن ذلك خطأ — ولكن —

— لكن ماذا ؟ إن أمك لن تعلم ، فماذا تخشين إذن ؟ إن كل

ما تريده ، هو أن تكونى بمأمن من كل أذى ، وإنى لواثق من أنها ما كانت لتتردد فى أن تطلب إليك الذهاب إلى هناك ، لو أن هذه الفكرة طرأت على بالها .

كان كرم الأرملة « دوجلاس » طعما مغرياً . ومن ثم فإن هذا الكرم وحجج « توم » لم تلبث أن أحدثت أثرها فى نفس الفتاة . واتفق الاثنان على إخفاء كل شىء عن برنامجهما الليلى عن الجميع . ولم يلبث « توم » أن تذكر أنه من الجائز أن يأتى « هاك » لإعطاء الإشارة فى هذه الليلة بالذات . وقد جعله هذا الخاطر يشعر بكثير من الضيق ، ولكنه لم يستطع أن يفكر فى التخلى عن المتعة المحققة التى كان يعلم أنه سيفوز بها فى قصر الأرملة « دوجلاس » ، ثم قال يعزى نفسه : — إن الإشارة لم تأت فى الليلة الماضية ، فما الذى يحتم مجيئها فى هذه الليلة ؟ ولقد جعله اعتقاده الجازم بأنه سيفوز بالمتعة ، بصرف النظر عن فكرة الحصول على كنز غير مضمون ، ولم يلبث تفكيره — كغلام — أن جعله يصرف النظر تماما عن التفكير فى الكنز طوال النهار !!

ورست الناقلة على مبعدة ثلاثة أميال جنوب المدينة عند مدخل الغابة ، ونزل الجميع إلى البر ، وسرعان ما امتلأت الغابة بصياح الصغار المرحين وضحكهم ... وانصرف الجميع إلى اللعب واللهو ... وبعد مضى وقت طويل بدأ الجميع يعودون إلى المعسكر ، وقد نال الإعياء والجوع منهم كل منال . وفى التو انقضوا على الطعام كالذئاب الجائعة ففتكوا به فتكا ذريعاً ، وبعد انتهاء الوليمة ركن الجميع إلى الراحة والثرثرة فى ظل أشجار البلوط . . . وفجأة صاح أحد الفتيان :

— من منكم على استعداد للذهاب إلى الكهف ؟

وقوبل اقتراحه بموافقة اجماعية ، فأعدت الشموع ، وبعد لحظات كان جميع الفتيان والفتيات يتسلقون التل ، وكان مدخل الكهف فى القسم

الأعلى من جانب التل ، عبارة عن فتحة على شكل حرف A ، وكان بابه المتين المصنوع من خشب البلوط مفتوحاً ، وبالداخل كانت توجد غرفة صغيرة شديدة البرودة كمصنع الثلج ، بطنت الطبيعة جدرانها بطبقة من الحجر الجيرى الصلب المزركش بقطرات من الماء البارد ... وكان الوقوف فى هذا الكهف المظلم ، والتطلع إلى الوادى الأخضر الذى تغمره أشعة الشمس يثيران الخيال . ولكن أثر الموقف لم يلبث أن تلاشى سريعاً ، وساد الهرج مرة أخرى ، وما أن أضيئت أول شمعة ، حتى اندفع الجميع فى تزاحم شديد نحو حاملها لإشعال شموعهم ، فراح صاحب الشمعة المضاءة يحاول الدفاع عن شمعته . ولكن مهاجميه لم يلبثوا أن تغلبوا عليه ، فسقطت الشمعة من يده وانطفأت ، وعندئذ ارتفع صياح الجميع وضحكهم . وبعد قليل هدأ الجميع ، وانخرطوا فى صف طويل ، بدأ يهبط المنحدر العميق القائم فى الدهليز الرئيسى ، والشموع الموقدة التى يحملونها ، لا تكاد تكشف عن سقف الكهف الذى كان يرتفع حوالى ستين قدماً فوق الرؤوس . ولم يكن عرض هذا الطريق الرئيسى يزيد على ثمانية أقدام أو عشرة .

ولقد كان « كهف دوجال » هذا ، عبارة عن متاهة بها مئات من الممرات الجانبية المتعرجة ، المتقاطعة ، التى لا يعلم أحد أين تبدأ وأين تنتهى ... وقد قيل إن المرء قد يقضى أياما وليالى وهو يجوب فى هذه الشبكة المعقدة من الممرات ، بغير أن يعثر على نهاية أحدها ، وأنه قد يهبط فى باطن الأرض ، فلا يجد إلا متاهات لا نهاية لها . وكان من المحقق أنه ليس هناك إنسان فى هذه المنطقة « يعرف هذا الكهف معرفة تامة فقد كان ذلك أمراً مستحيلا . ولكن أغلب شبان المنطقة كانوا يعرفون جزءاً منه فقط ، وكان من المعتاد ألا يجازف أحد بتخطى هذا الجزء المعروف الذى كان « توم سوير » يعرفه أيضاً ! .

وتحرك الموكب إلى الأمام فى الدهليز الرئيسى ، حتى قطع ثلاثة أرباع الميل ، وبعدئذ بدأ الفتيان والفتيات ينقسمون إلى جماعات وأزواج ، ثم

راحوا يختفون فى الممرات الفرعية ، ليفاجىء كل منهم الآخر عند نقط التقاء الممرات ، وقد استطاعت كل جماعة أن تراوغ الجماعات الأخرى خلال نصف الساعة التالى ، ولكن الجميع كانوا يحرصون أشد الحرص على ألا يتجاوزوا المنطقة المعروفة !!

وفى تلك الأثناء ، بدأت الجماعات تعود ، واحدة فى إثر الأخرى ، إلى مدخل الكهف ، وقد أضناها التعب والإعياء ، وتلطخت وجوه أفرادها وثيابهم بالقذر الذى كان يتساقط مع قطرات الماء . ولكن الجميع كانوا مرحين لأنهم قضوا وقتا رائعاً . وكم كانت دهشتهم عظيمة ، عندما تبين لهم أن النهار قد أشرف على الانتهاء ، وأن الليل يوشك أن يسدل أستاره . وكان ناقوس الناقلة البخارية يدق منذ نصف ساعة داعياً الجميع إلى التأهب للعودة . وعندئذ أحس الجميع بأنهم قضوا يوما من أمتع الأيام وأجملها ... وعندما اكتظت « الباخرة » بركابها ، وبدأت رحلة العودة إلى القرية ، لم يكن أحد يأبه بالوقت الذى ضاع سوى ربان الناقلة !!

وكان « هاك » يقوم بالمراقبة المعتادة ، عندما سطعت أضواء « الباخرة » وهى تمر بالميناء ، ولكنه لم يسمع صوتاً صادراً منها ، إذ كان الصغار صامتين هادئين بعد نزهتهم المضنية ... وعجب « هاك » لأمر هذه «الباخرة» وتساءل عن السر فى عدم وقوفها بالميناء — ثم لم يلبث أن انصرف عن التفكير فيها إلى التفكير فى المهمة المنوطة به . . . كان الليل مظلماً والسماء ملبدة بالغيوم . وحينما بلغت الساعة العاشرة ، وتلاشت ضوضاء المركبات، بدأت الأضواء الباهتة تختفى من نوافذ منازل القرية واحداً أثر الآخر ، وأقفرت الطرقات من الناس . ثم تأهبت القرية للاستسلام للنوم ، تاركة المراقب الصغير وحيداً مع الصمت والأشباح . ثم دقت الساعة الحادية عشرة ، وأطفئت أنوار الفندق ، وساد الظلام فى كل مكان . . . وتريث « هاك » فترة خيل إليه أنها دهر طويل ، ولكن شيئاً لم يحدث ، فتزعزعت

ثقته وتساءل : هل هناك أية فائدة ترجى من الانتظار ؟ هل هناك فائدة حقاً ؟ لماذا لا أتخلى عن هذا العمل ؟ .. ما أشد حاجتى إلى النوم !

وتناهت ضوضاء إلى أذنيه ... وفى التو دب النشاط فى بدنه .... وأغلق باب الفندق الخلفى بهدوء فى تلك اللحظة ، فوثب الغلام إلى أحد الأركان . وفى اللحظة التالية ، مر به رجلان . كان أحدهما يحمل شيئاً تحت إبطه .. لا شك أنه الصندوق ! إذن فقد قررا نقل الكنز .. ألم يحن الوقت لاستدعاء « توم » ؟ ولكن ذلك قد يكون فكرة سخيفة — فقد يهرب الرجلان بالصندوق ، ويستحيل العثور عليهما مرة أخرى ... لا ... يجب عليه أن يتبعهما إلى حيث يذهبان ، متخذاً من الظلام ستاراً يحميه من افتضاح أمره ... بهذا حدث الغلام نفسه . ثم يلبث أن برز من مكمنه مقتفياً أثر الرجلين فى خفة الهرة ، بقدميه العاريتين ، ولكنه حرص على أن يجعلهما يسبقاه بمسافة طويلة ، مثلما حرص على ألا يغيبا عن ناظريه !

وقطع الرجلان شوطا كبيرا فى شارع النهر ، ثم انعطفا إلى اليسار فى شارع جانبى ، وانطلقا فيه ، حتى وصلا إلى الممر المؤدى إلى «كارديف هل» ، فسلكاه ، ومرا بمنزل الكهل الأسكتلندى الذى يقع عند منتصف التل ، واستمرا فى الصعود .. فسر « هاك » واعتقد أن الرجلان يعتزمان دفن الكنز فى مكان ما عند المرسى ، ولكنهما لم يتوقفا عن السير ، وظلا يصعدان التل حتى بلغا قمته ، واندفعا بداخل الممر الضيق المختفى بين الحشائش الطويلة ، ولم يلبثا أن اختفيا فى الظلام . فأسرع « هاك » خطاه ليختزل المسافة التى تفصله عنهما ، وهو واثق من أن الحشائش سوف تحجبه عن عيونهما . ومضى فى سيره لحظة ، ثم أبطأ خطاه . ومالبث أن توقف تماما وأصاخ السمع ، ولكنه لم يسمع غير دقات قلبه .. ومزق السكون صوت بومة ملأ الفضاء ، فانتفض الغلام ! ثم ساد الصمت تماما ، فعجب « هاك » للأمر ، وتساءل : هل ضاع كل شىء ؟ وهم بالاندفاع إلى الأمام حينما سعل رجل لا تزيد المسافة بينه وبين الغلام على أربعة أقدام . وخيل

«هاك» أن قلبه يوشك أن يكف عن الحركة ، ولكنه تجلد وصبر ، ولزم مكانه وهو ينتفض بشدة ، حتى كاد يسقط على الأرض من فرط الخوف .. ولم يلبث أن تبين موضعه بالضبط .. كان على مبعدة خمس خطوات من الممر المؤدى إلى حديقة قصر الأرملة « دوجلاس » . فقال يناجى نفسه : فليدفنا الكنز هنا إن شاءا ، فلن يكون من الصعب العثور عليه !

وفى تلك اللحظة سمع « هاك » رجلا يتكلم .. كان الصوت صوت « انجان جو »

— لعنة الله عليها .. لاشك أن عندها زواراً ، وإلا لما أضيئت الأنوار فى هذه الساعة المتأخرة من الليل !

فقال زميله : ولكنى لا أرى الأنوار !

كان هذا صوت الرجل الغريب — الغريب الذى رآه فى المنزل المهجور .. وأحس « هاك » ببرودة تسرى فى أوصاله - إذن فقد كان هذا هو « الثأر » وخطر له أن يبادر بالفرار ، ولكنه لم يلبث أن تذكر كيف أن الأرملة « دوجلاس » طالما عطفت عليه ، كما تبادر إلى ذهنه أنه من المحتمل أن يكون هذان الشريران قد اعتزما قتل السيدة المسكينة .. وتمنى لو استطاع أن يحذرها ، ولكنه كان يعلم أنه لا يجرؤ على ذلك — فقد يظفر به الشريران ويفتكان به .. طافت هذه الخواطر وغيرها بذهنه فى سرعة البرق الخاطف.

وفى اللحظة التالية سمع « انجان جو » يقول :

— إنك لا ترى الأنوار ، لأن الأعشاب تعترض طريقك — تحرك قليلا .. نعم .. هكذا .. هل ترى ؟

— نعم ... أعتقد أن عندها زوارا .. من الخير أن نتخلى عن هذه المحاولة الليلة !

— أتخلى عنها وأنا على وشك مغادرة البلاد نهائيا ! أتخلى عنها وقد لا تتاح لى أية فرصة أخرى ؟! .. أعود فأقول لك ، كما سبق أن قلت من

قبل ، إننى لا آبه لثروة السيدة — فنى وسعك أن تحصل عليها . . ولكن زوجها أساء إلىّ مرات كثيرة — فقد كان قاضى المحكمة فى يوم من الأيام وحكم علىّ بالتشرد . . ولم يكن ذلك كل شىء ، بل إنه ليس سوى قطرة واحدة من محيط العذاب الذى ألحقه بى — لقد حكم بجلدى ! جلدى أمام السجن مثلما يُجلدُ الزنوج ! — والمدينة كلها تتفرج على جلدى .

هل فهمت ؟ لقد عذبنى عذابا أليما ، ثم مات . . ولكنى سأثأر لنفسى منهـا .

— أوه ! لا تقتلها لا . . لا تفعل ذلك

— أقتلها ؟ من قال إننى سأقتلها ؟ لاشك فى أننى كنت أقتله لو أنه كان لا يزال على قيد الحياة ، أما هى فلن أقتلها . . فعندما تريدَ الانتقام من امرأة لا تقتلها افقأ عينيها ، أو شق أنفها ، أو اقطع أذنيها كالبقرة !

— يا إلهى ! هذا ...

احتفظ برأيك لنفسك ، فإن ذلك أدعى لتحقيق السلامة لك . . سوف أشدها إلى الفراش وأفقأ عينيها وأقطع أذنيها ! لينزف دمها حتى الموت . . ثم إنك سوف تساعدنى فى تحقيق انتقامى يا صديق — لأجل خاطرى — فهذا هو سبب وجودك معى الآن — فقد لا أستطيع الانتقام منها بمفردى .. أما إذا تراجعت أو تراخيت فسأقتلك . . هل فهمت ؟ وإذا قتلتك فسأقتلها وعندئذ لن يعرف أحد من الذى قتلكما !

— مادام الأمر كذلك . . . فهيا نرتكب الجريمة !

فكلما أسرعنا ، كان ذلك أفضل — إننى أنتفض كريشة فى مهب الريح !

— نرتكب الجريمة الآن ، والمنزل غاص بالناس ؟ اصغ إلىّ — لقد بدأت أرتاب فى أمرك — لا ، بل يجب أن ننتظر ريثما تطفأ الأنوار — فليس هناك ما يدعو للعجلة .

وأيقن « هاك » أن الصمت سيعقب هذا الحديث — وهو أمر يثير الخوف أكثر مما يثيره أى حديث عن القتل . ومن ثم فقد حبس أنفاسه وبدأ يتراجع إلى الوراء خطوة فخطوة ، وهو يحرص أشد الحرص على أن يستوثق من موضع قدمه قبل أن يحركها ، وفى إحدى الخطوات وطئت قدمه عوداً من الحشائش فتحطم مُحْدِثاً صوتا ! فكاد قلب الغلام يكف عن أداء وظيفته ، وأصاخ السمع ولكن السكون ظل مطبقاً . . واستأنف التقهقر حتى وثق من أنه أصبح بعيداً عن الرجلين بُعْداً كافياً ، وعندئذ استدار على عقبيه ، وأطلق الريح اساقيه ، منحدراً من فوق التل إلى أن بلغ منزل الكهل الأسكتلندى ؟ فراح يطرق الباب بعنف شديد ، وبعد لحظات كان رأس الكهل ورأسا ولديه العملاقين تبرز من النوافذ .

— مَنْ الذى يُحدثُ هذه الجلبة ؟ مَنْ الطارق ؟ ومَنّ تريد ؟

— أفتحوا لى — سريعا ! سأقول لكم كل شىء !

— مَنْ أنت ؟

— « هاكلبرى فين » — أسرعوا — دعونى أدخل !

— « هاكلبرى فين » . . إنه اسم لا تُفتح له أبواب كثيرة فيما أعتقد ! لكن أدخل ياولدى .. وقل كل ما تريد أن تقوله !

وما أن دخل « هاك » المنزل حتى صرخ قائلا :

— أناشدكم ألا تقولوا إطلاقا إننى أفضيت إليكم بهذه المعلومات — أرجوكم .. وإلا فسألقى حتفى ... لقد كانت الأرملة تعطف علىّ فى بعض الأحايين ، وأنا أريد أن أتكلم — بل سأتكلم إذا وعدتمونى بألا تذكروا اسمى .

فصاح الكهل : يا إلهى ! إن لدى الغلام نبأ هاما يريد الإفضاء به وإلاّ لما سلك هذا المسلك الغريب ! تكلم يافتى . وثق أن أحداً من الحاضرين لن يذكر اسمك .

وبعد ثلاث دقائق، غادر الكهل وولداه المنزل وهم مسلحون ، وانطلقوا صاعدين نحو التل . ثم لم يلبثوا أن غابوا وسط الحشائش وهم يسيرون فوق أصابع أقدامهم ، وقد حملوا أسلحتهم فى أيديهم . ورفض « هاك » أن يتقدم إلى أبعد من ذلك ، واختفى فى دغل قريب ، أصاخ السمع .. وساد صمت مقبض ، وفجأة دوى صوت طلقات نارية أعقبتها صرخة مدوية

ولم يتريث « هاك » أكثر من ذلك .. وإنما وثب مبتعدا وانطلق يهبط التل ، ثم لم يلبث أن اختفى عن الأنظار !

الفصل الثلاثون

« توم » و « بيكى » فى الكهف

عندما بدأت الخيوط الأولى لفجر يوم الاثنين تمتد فى الأفق ، أخذ « هاك » يتسلق التل بحذر شديد إلى أن بلغ منزل الكهل الأسكتلندى ، فطرق بابه بلطف . . ومع أن جميع من بالدار كانوا نياماً ، إلا أنهم كانوا أشبه بالمستيقظين بعد الحوادث المثيرة التى وقعت فى الليل .

وسأل الكهل وهو يطل برأسه من النافذة مَنْ هناك ؟

فأجاب « هاك » بصوت منخفض يكاد يشبه الهمس :

— اسمح لى بالدخول ! أنا « هاك فين » !

— مرحباً بك ! أستطيع أن أفتح لك هذا الباب آناء الليل وأطراف النهار ياغلام !

كان وقع هذه الكلمات غريبا على أذنى الغلام الضال ، ولكنها كانت أجمل كلمات سمعها . ولم يستطع أن يتذكر أن أحدا قال له : « مرحبا » فى يوم من الأيام .. وفُتِح الباب سريعاً ، فدخل .. وقدم الكهل مقعداً لهاك بينما انصرف الرجل وولداه إلى ارتداء ثيابهم على عجل .

قال الكهل : أرجو أن تكون بخير ، وأن تكون جائعا أيضا ، لأن طعام الإفطار سيكون مُعدّاً بمجرد شروق الشمس .. وسيكون طعاماً ساخنا — فاطمئن بالا من هذه الناحية ! لقد تمنيت وولداى أن تأتى لتنام هنا ليلة أمس !

فقال « هاك » : أصدقك القول إننى كنت مذعوراً أشد الذعر فهربت عندما انطلقت أصوات المسدسات ، ولم أتوقف عن الركض إلاّ بعد

أن قطعتُ ثلاثة أميال . . لقد جئتُ لأسأل عما حدث . وجئتُ قبل طلوع النهار لأننى لا أريد أن ألتقى بهذين الشيطانين حتى ولو كانا قد لقيا حتفهما !

— مسكين أنت أيها الشاب . . إن منظرك يوحى بأنك قضيت ليلة شاقة — لكن اطمئن ، فستجد هنا فراشا تنام فوقه عندما تنتهى من تناول الطعام . كلا .. إنهما لم يموتا يابنى — إننا آسفون أشد الأسف لذلك .. لقد عرفنا — من الوصف الذى ذكرته لنا — أين يمكننا أن نظفر بهما ، ومن ثم فقد ظللنا نتقدم نحوهما بكل حذر حتى أصبحت المسافة التى تفصلنا عنهما خمسة عشر قدماً — وعندئذ أحسست بأننى أوشك على (العطس).. لقد كان ذلك أسوأ حظ صادفنى فى حياتى! حاولت أن أتغلب على (العطس) ولكن بلا جدوى كان لا بد من أن أعطس ! وكنت أسير فى المقدمة ومسدسى بيدى، وعندما عطست بادر الشريران بالفرار ، وعندئذ صحت بولدىّ « أطلقا النار عليهما ! » ، وفى التو أطلقنا جميعاً النار ، ولكن الشريرين استطاعا الإفلات وسط الحشائش ، فمضينا نطاردهما حتى دخلا الغابة وأعتقد أنهما لم يصابا بأذى . وعندما دخلا فى قلب الغابة ، أطلقا النار علينا ولكن رصاصهم طاش ولم يصبنا بأى أذى . وعندما فقدنا كل أثر لهما ، تخلينا عن المطاردة ، وذهبنا إلى المدينة ، حيث استدعينا رجال البوليس . فذهبت قوة منهم لحراسة شاطىء النهر ، وعندما ينبلج الصباح ، سيتولى العمدة ورجاله تفتيش الغابة ، وسينضم ولداى إليهم بعد قليل . . ليتنا نعرف حقيقة أمر هذين المجرمين — فإن ذلك خليق بأن يساعدنا على القبض عليهما . بالطبع لم تستطع أنت أن ترى ملامحهما فى الظلام !

— أوه ؟ لقد رأيتهما فى المدينة وتبعتهما

— هذا مدهش ! صفهما إذن — صفهما يا بنى !

— أحدهما الكهل الأسبانى الأصم الأبكم الذى تجول فى المدينة مرة

أو اثنتين ، أما الآخر ، فرجل كريه المنظر مهلهل الثياب .

— كفى يا فتى .. لقد عرفناهما ! فقد رأيناهما ذات يوم فى الغابة على مقربة من منزل الأرملة . . هلما ياولدىّ إلى العمدة وأبلغاه الأمر — أما طعام إفطاركما فتناولاه صباح غد !

وتهيأ ولدا الكهل للانصراف على الفور . . وعندما كانا يغادران الغرفة وثب « هاك » واقفاً وصاح :

— أوه ! أرجوكما ألا تقولا لأى شخص أننى ذكرت لكما أوصاف الرجلين ! أرجوكما !

— ليكن لك ما تريد « يا هاك » ، رغم إنه من الواجب أن تنال جزاء العمل الرائع الذى أديته

— أوه ! كلا .. كلا . . أرجوكما . . لا تقولا شيئا !

وعندما انصرف الشابان ، قال الكهل :

إنهما لن يذكرا اسمك ، كما إننى لن أذكره أيضا . . لكن لماذا تريد أن يظل اسمك مجهولا ؟

ورفض « هاك » أن يقول شيئا أكثر من أنه كان يعرف الشىء الكثير عن أحد الرجلين ، وأنه لا يرغب فى أن يعرف ذلك الرجل أنه اشترك فى مطاردته ، مهما كان الثمن — لأنه من المحقق أنه سوف يقتل إذا افتضح أمره .

ومرة أخرى ، وعد الكهل الغلام بالتزام السرية التامة ، وقال :

— كيف اتفق أن اقتفيت أثر هذين الرجلين يابنى ؟ هل كان منظرهما يثير الريبة !

وصمت « هاك » قليلا ريثما يعد الإجابة فى حذر ، ثم قال :

أو اثنتين ، أما الآخر ، فرجل كريه المنظر مهلهل الثياب .

— كفى يا فتى .. لقد عرفناهما ! فقد رأيناهما ذات يوم فى الغابة على مقربة من منزل الأرملة . . هلما ياولدىّ إلى العمدة وأبلغاه الأمر — أما طعام إفطاركما فتناولاه صباح غد !

وتهيأ ولدا الكهل للانصراف على الفور . . وعندما كانا يغادران الغرفة وثب « هاك » واقفاً وصاح :

— أوه ! أرجوكما ألا تقولا لأى شخص أننى ذكرت لكما أوصاف الرجلين ! أرجوكما !

— ليكن لك ما تريد « يا هاك » ، رغم إنه من الواجب أن تنال جزاء العمل الرائع الذى أديته

— أوه ! كلا .. كلا . . أرجوكما . . لا تقولا شيئا !

وعندما انصرف الشابان ، قال الكهل :

إنهما لن يذكرا اسمك ، كما إننى لن أذكره أيضا . . لكن لماذا تريد أن يظل اسمك مجهولا ؟

ورفض « هاك » أن يقول شيئا أكثر من أنه كان يعرف الشيء الكثير عن أحد الرجلين ، وأنه لا يرغب فى أن يعرف ذلك الرجل أنه اشترك فى مطاردته ، مهما كان الثمن — لأنه من المحقق أنه سوف يقتل إذا افتضح أمره .

ومرة أخرى ، وعد الكهل الغلام بالتزام السرية التامة ، وقال :

— كيف اتفق أن اقتفيت أثر هذين الرجلين يابنى ؟ هل كان منظرهما يثير الريبة !

وصمت « هاك » قليلا ريثما يعد الإجابة فى حذر ، ثم قال :

— حسناً . . الواقع أن الناس جميعاً يزدروننى، ويعتقدون أننى غلام ضال لا أصلح لشيء ، ولست أكتمك أن ذلك يسبب لى ألماً شديداً ، ويجعلنى لا أذوق للنوم طعماً ، إذ أننى كثيراً ما أطيل التفكير فيما ينبغى على أن أفعله لأسترد تقدير الناس لى . . هكذا كان شأنى ليلة أمس . . لم أستطع النوم ، فخرجت إلى الشارع عند منتصف الليل تقريباً لأفكر فى أمر نفسى . وعندما وصلت إلى المخزن العتيق المجاور لفندق « تمبرنس » ، استندت إلى الجدار لأفكّر فى مصيرى . . وفى تلك اللحظة . أقبل هذان الرجلان ، أحدهما يحمل شيئاً تحت إبطه ، فظننت أنه يحمل شيئاً مسروقاً . وكان الرجل الثانى يريد أن يشعل لفافة تبغ ، فتوقفا أمامى مباشرة . وعندما أشعلا عود الثقاب ، استطعت أن أرى وجهيهما ، فعرفت فى أضخمهما ، الأسبانى الأصم الأبكم ، وقد عصب إحدى عينيه ، أما الآخر فكان ذلك الشيطان كريه المنظر ، مهلهل الثياب .

— وهل استطعت أن ترى الثياب المهلهلة على ضوء عود الثقاب ؟ وارتبك « هاك » لحظة ثم قال :

— لست أدرى — ولكن يبدو أننى استطعت ذلك .

— ثم استمر الرجلان فى سيرهما ... و ...

— وتبعتهما ... نعم ... هذا ما حدث ... كنت أريد أن أعرف حقيقة أمرهما ، ورأيتهما يتلفتان حولهما بحذر ، فزادت ريبتى فيهما . ولم ألبث أن سمعتهما يتحـــدثان فى الظلام ، وأقسم الأسبانى أن يفقأ عينيها لجثت . . .

— ماذا تقول ! . هل قال الرجل الأبكم الأصم كل هذا !

وأيقن « هاك » أنه ترك لسانه يزل مرة أخرى ! كان يحاول جهد طاقته ألا يجعل الكهل يعرف شيئاً عن شخصية الأسبانى ، ولكن يبدو أن لسانه كان مصمماً على إثارة المتاعب له ، رغم كل الجهود التى بذلها ... وبدأ الغلام

يحاول إصلاح خطأه ، ولكن عينى الكهل كانتا تراقبانه عن كثب ، ومن ثم، كثرت زلات لسان « هاك » ... وأخيراً قال الكهل :

— لا تخف منى يابنى ، فإننى لن أسىء إلى شعرة واحـــدة من شعر رأسك ولو مُنِحتُ العالم كله .. لن أخذلك .. سوف أحميك — سأحميك إن هذا الأسبانى ليس أصم ولا أبكم .. لقد زل لسانك رغماً عنك .. إنك تعرف شيئاً عن هذا الأسبانى ولكنك تريد كتمانه — لكن ثق بى يابنى — وأفضِ إلىّ بذات نفسك — وتأكد أننى لن أخونك .

وتطلع « هاك » إلى عينى الرجل الأمينتين لحظة ، ثم مال إلى الأمام، وهمس فى أذنه :

— إنه ليس أسبانيا ... إنه « إنچان جو » !

وكاد الكهل يثب من فوق مقعده ... وسرعان ما قال :

— لقد وضح كل شىء الآن ... عندما سمعتك تتكلم عن فقأ العيون ، وجدع الأنف ، حسبت هذا القول من بنات أفكارك ، لأن الرجال البيض لا يثأرون على هذا المنوال ... ولكن « جو » ليس من الجنس الأبيض .. وهذا يخلع على الموقف طابعاً آخر .

واستمر الكهل والغلام يتحدثان أثناء تناولهما الطعام . وقال الكهل فى مجرى الحديث إنه وولديه لم يأويا إلى فراشهم إلا بعد أن أحضروا مصباحاً من المنزل ، وفحصوا المنطقة على ضوئه ، بحثاً عن بقع من الدم . ولكنهم لم يعثروا على شىء منها ، بيد أنهم عثروا على حزمة من ...

— من ماذا ؟

انطلقت هاتان الكلمتان من بين شفتى « هاك » كالقنبلة ، بينما اتسعت حدقتا عينيه ، وبدا عليه الاهتمام الشديد ، وهو يترقب رد الكهل على سؤاله وحدق الكهل بدوره فى وجه الغلام مبهوتاً . ومضت ثلاث

ثوان ، فخمس ، فعشر ... وأخيراً أجاب الكهل :

— من أدوات اللصوص ... لكن ماذا دهاك يا فتى ؟

وغاص « هاك » فى مقعده وهو يلهث بهدوء ، ولكن بعمق ، وقد بدا عليه الارتياح الشديد ... فتأمله الكهل بنظرة جدية — وباهتمام ، ولم يلبث أن قال :

— نعم .أدوات مما يستعملها اللصوص .. يبدو أن ذلك بث الراحة فى نفسك ... لكن لماذا كانت هذه الدهشة البالغة ! وما الذى كنت تتوقع أن نعثر عليه !

وأيقن « هاك » أن أمره سيفتضح حتما ، فقد كان الكهل يراقبه بعينين كعينى الصقر — كان مستعداً أن يدفع أى ثمن مقابل الحصول على إجابة ترضى الكهل وتبعد الريبة عنه — ولكنه لم يستطع العثور على مثل هذه الإجابة وظلت العينان الغامضتان تحدقان فيه . وفى تلك اللحظة خطرت له إجابة غير معقولة ، ولكن الوقت لم يتسع لوزنها ، ومن ثم فقد قال بإعياء :

— ربما كانت اللفافة تحوى بعض كتب مدارس الأحد !

ولم يستطع « هاك » المسكين أن يبتسم ، ولكن الكهل انفجر ضاحكا بقوة ومرح ، حتى لقد أخذ جسمه يهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وختم ضحكه قائلا إن هذا الضحك المرح لا يقل فائدة عن النقود التى يحتفظ بها الإنسان فى جيبه ، لأنها تخفض من نفقات الأطباء والدواء !!! ... ثم أضاف :

— يالك من شاب مسكين . إن وجهك مصفر جداً — لا شك أنك لست على ما يرام — فلا عجب إذن فى أنك مضطرب غير متزن ، ولكنك سوف تتغلب على هذه الأزمة ... إن الراحة والنوم سوف يجعلانك تسترد قواك .. أرجو ذلك .

ولعن « هاك » نفسه ، لأنه أبدى مثل هذا الضعف والانفعال اللذين أثارا ريبة الرجل ، وسرعان ما أيقن أنه كان ينبغي عليه أن يتخلى عن الاعتقاد بأن « الحزمة » التي أحضرها الشربران من الفندق كانت تحتوى على الكنز ، وبخاصة بعد أن سمع « جو » يهدد بالثأر من الأرملة !! صحيح ، إن هذا الخاطر جال برأسه — ولكنه لم يكن واثقاً منه ، ومن ثم فإنه لم يستطع أن يتمالك نفسه من الانفعال ، حينما سمع بعثور الكهل وولديه على « الحزمة » ومع ذلك فقد شعر بفرح شديد حينما انتهت الأزمة ، فقد أصبح واثقاً من أن هذه « الحزمة » لم تكن « الحزمة » التي يعرفها ، فاستراح ضميره ... بل إنه بدأ يعتقد أن الأمور تجرى حسبما يريدها أن تجرى ، وأن الكنز لابد أن يكون موجودا فى رقم ٢ ، ومن ثم فإنه ما أن يُقبَض على المجرمين ويُزج بهما فى السجن ، حتى يمضى هو و « توم » للاستيلاء على الكنز فى الليلة التالية بغير أى عناء أو خوف من المتاعب !!

وما كاد الكهل « وهاك » يفرغان من تناول طعام الإفطار ، حتى سمع طرقٌ على الباب ، فوثب « هاك » وراح يبحث عن مكان يختبىء فيه إذ كان مُصِرًّا على ألا تكون له بالحادث أية علاقة مهما كانت بعيدة . وفتح الكهل الباب ، فدخلت جماعة من السيدات والرجال ، من بينهم الأرملة «دوجلاس» ولاحظ الكهل أن جماعات من الموظفين كانت ترتقى التل فى تلك اللحظة لمشاهدة (ميدان المعركة) فأيقن أن النبأ ذاع وانتشر فى كل مكان .

واضطر الكهل إلى سرد قصة ما دار أثناء الليل على زائريه . وكان شكر الأرملة على إنقاذها عميقاً بالغاً .

قال الكهل : لا تشكرينى يا سيدتى ، فإنك مدينة بنجاحك إلى شخص آخر ، أكثر مما أنت مدينة بها لى ولولدىّ . ولكن هذا الشخص يرفض أن يسمح لنا بذكر اسمه ... فلولاه لما استطعنا منع وقوع الجريمة .

ولقد أثار هذا القول رغبة الزائرين فى معرفة شخصية هذا المنقذ ،

ولكن الكهل رفض أن يبوح باسمه ، أو حتى يلمح إلى شخصيته،خشية أن يذاع السر فى طول المدينة وعرضها ...

ولما ألمّ الزائرون بجميع التفاصيل ، قالت الأرملة :

— لقد صعدت إلى فراشى ، وقرأت قليلا ، ثم لم ألبث أن استسلمت للنعاس ، رغم الضجة الشديدة التى كانت تنبعث من الخارج . فلماذا لم تحاولوا إيقاظى ؟

— قدّرنا أن الموقف لا يستلزم ذلك ، إذ كان من غير المحتمل أن يعاود الشريران الكرة ، إذ لم تبق فى حوزتهم أية أدوات يستخدمونها فى التسلل إلى القصر .. ثم ماذا كنا سنفيد من إيقاظك وإشاعة الرعب فى قلبك ؟ لقد ظل رجالى الزنوج الثلاثة يحرسون منزلك طوال الليل ، ولم يعودوا إلا منذ لحظات .

وأقبل مزيد من الزائرين ، وكان على الكهل أن يعيد سرد القصة المرة بعد الأخرى خلال ساعتين متعاقبتين .

* * *

لم تكن مدرسة الأحد تفتح أبوابها خلال عطلة المدرسة السنوية ، ومع ذلك ، فقد بكر جميع سكان القرية فى الذهاب إلى الكنيسة، بعد أن ذاع نبأ الحادث المثير ، وانتشر انتشار النار فى الهشيم . ووصلت أنباء تقول إن أحداً لم يستطع أن يقع على أى أثر للمجرمين حتى تلك اللحظة . . وعندما انتهت الصلاة ، انضمت زوجة القاضى « تاتشر » إلى « مسز هاربر » وهى تسير مع الجمهور فى الطريق المفضى إلى الباب ، وقالت لها :

هل ستقضى ابنتى « بيكى » اليوم كله عندكم نائمة ؟ الواقع أننى أعتقد أنها شديدة التعب .

— ابنتك « بيكى » ؟

فبدا الفزع على وجه زوجة القاضى وأجابت : نعم ... ألم تقض «بيكى» الليلة الماضية فى منزلك ؟ .

— كلا ، بالطبع .

وامتقع وجه «مسز تاتشر» وتهالكت فوق أحد المقاعد ... وفى تلك اللحظة كانت العمة «بولى» تتحدث مع إحدى صديقاتها . فلما مرت بزوجة القاضى و «مسز هاربر» قالت :

— طاب صباحك يا مسز «تاتشر» ... طاب صباحك يا مسز «هاربر» ... لقد اختفى الولد مرة أخرى . وأكبر الظن أنه قضى ليلته فى منزل إحدانا ، ولكنه خشى أن يجىء إلى الكنيسة ... سوف أحاسبه على ذلك ... هل قضى «توم» الليلة عندك يا مسز «تاتشر» ؟

وهزت مسز «تاتشر» رأسها سلباً بإعياء ، وازداد امتقاع وجهها .

وبدا القلق على وجه «مسز هاربر» ، وقالت : إنه لم يقض الليل بمنزلنا .

وارتسمت علامات الفزع المشوب بالقلق على وجه العمة «بولى» وغمغمت .

— هل رأيت «توم» هذا الصباح يا «جو هاربر» ؟

— لا يا سيدتى .

— متى رأيته آخر مرة ؟

وحاول «جو» أن يتذكر ، ولكنه لم يكن واثقاً مما يريد أن يقوله .. وتوقف المصلون عن الخروج من الكنيسة ... وسرى بينهم الهمس ، وارتسمت علامات القلق على جميع الوجوه ... وبدأت عملية استجواب طويلة للأطفال وصغار المدرسين الذين كانوا يرافقون الطفلين المفقودين ، ولكنهم أجمعوا على أنهم لم يلاحظوا ما إذا كانت «بيكى» و «توم» قد ركبا

« الباخرة » فى رحلة العودة أم لا ، لأن الظلام كان دامسا ولهذا فإن أحداً لم يحاول أن يعرف ما إذا كان أحد الرفاق قد تخلف عن اللحاق بالباخرة، وأخيرا أعرب أحد الشبان عن خوفه من أن يكون الصغيران لا يزالان فى الكهف ! وفى التو سقطت مسز « تاتشر » مغشياً عليها . أما العمة « بولى » ، فقد انفجرت باكية وراحت تضرب كفا بكف !

وانتقل النبأ المفزع من منزل إلى منزل ومن جماعة إلى أخرى ، ومن شارع إلى شارع . ولم تكد تنقضى خمس دقائق ، حتى بدأت الأجراس تدق بعنف، فاستيقظ جميع من فى القرية ! ونسى الجميع حوادث الليل المثيرة ، وأعدّت الجياد ، والقوارب ، و « الباخرة » . وقبل أن تنقضى نصف ساعة على ذيوع النبأ ، كان مائتا رجل يتدفقون فى الطرقات فى طريقهم إلى النهر ليذهبوا إلى الكهف

وبدت القرية شبه مهجورة تماماً طوال النهار . . وزارت نساء كثيرات العمة « بولى » ومسز « تاتشر » محاولات أن يهـدئن روعها . ولكنهن اشتركن معها فى البكاء أيضاً ، ولا شك فى أن ذلك كان أفضل من الكلام . ومضى الليل الممل كله ، والمدينة ساهرة تترقب الأنباء ، ولكن ما كاد الفجر يطلع أخيراً ، حتى كانت الكلمة التى وصلت إلى المدينة هى : « أرسلوا مزيدا من الشموع — وأرسلوا طعاماً » ... وكانت مسز « تاتشر » قد أوشكت على الجنون فى تلك الأثناء ، وكذلك كان شأن العمة «بولى» . . وكان القاضى « تاتشر » يبعث برسائل من الكهف عامرة بالأمل والتشجيع ولكنها لم تكن تنطوى على شعور حقيق بالأمل ! !

وعاد الكهل الأسكتلندى إلى منزله عند طلوع النهار ، وقد تلطخ وجهه وثيابه بشحم الشموع والطمى الجاف ، وهو يكاد ينهار من فرط الأعياء . ووُجِدَ « هاك » ملازماً الفراش الذى أعد له ، وهو يهذى من الحمى ... وإذ كان جميع أطباء القرية موجودين فى الكهف فى ذاك الحين ، فقد جاءت

الأرملة « دوجلاس » وتولت العناية بأمر الغلام المحموم ، وقالت إنها ستبذل قصارى جهدها من أجله ، سواء أكان غلاما شريراً أم طيبا ، لأنه مخلوق من مخلوقات الله ، وعلى الإنسان ألا يهمل أى مخلوق من مخلوقات الله . فقال الكهل إن للغلام محاسنه ، وعندئذ قالت الأرملة :

يمكنك أن تتأكد من أن له محاسنه كأى إنسان ، فإن الله لا يخلق إنسانا بلا محاسن ...

وفى ساعة مبكرة من بعد الظهر ، بدأت جماعات من الرجال منهوكى القوى تتدفق على المدينة ، بينما استمر أقوى الرجال بنيــة فى منازلهم ! ولكن كل ما أمكن الحصول عليه من معلومات ، لم يزد على أن الباحثين تجاوزوا المناطق المعروفة فى الكهف ، وبحثوا فى المناطق المجهولة ، وأن كل ركن فيه يُفتّش بعناية ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يؤكد ما إذا كان فى الإمكان ارتياد هذه الشبكة المعقدة ، من الدهاليز والممرات ، لاستحالة حصرها أو التفرقة بين بدايتها ونهايتها . إذ كثيراً ما كان الباحثون يرون ضوءاً ينبعث من بعيد ، كما يسمعون صياحاً أو طلقات مسدس ، ما أن يبلغوا مصدرها حتى يجدوا زملاء لهم ! . ولكنهم رأوا اسمى « بيكى وتوم » مسجلين بدخان الشمع فوق جدار الكهف فى مواضع مختلفة . كما عثروا بجوار الإسمين فى أحد الدهاليز على قصاصة شريط مغطاة بطبقة من الدهن .. وعرفت مسز « تاتشر » قطعة الشريط على الفور ، فأخذتها ، وانخرطت فى البكاء . . قالت إنهـا آخر أثر سوف تعثر عليه لطفلتها ، وأنهـا ستكون أعز ذكرى لديهـا ، لأنها كانت آخر شىء لمس الجسم الحى قبل أن يختطفه الموت !

ومرت الأيام والليالى البغيضة متثاقلة ، وبدأ اليأس يستولى على قلوب سكان القرية .. ومع أن نبأ اكتشاف مخزن للخمور الممنوعة عند صاحب « فندق تمبرنس » ذاع فى ذلك الوقت ، فإنه لم يلق بالاً من الجمهور رغم أنه

نبأ مثير جداً . . وفى لحظة من لحظات اليقظة ، أدار « هاك » دفة الحديث إلى الفنادق ، ثم سأل فى النهاية — وهو يتوقع سماع أسوأ الأنباء — عما إذا كان ثمة شىء قد اكتشف فى فندق « تمبرنس » أثناء مرضه .

قالت الأرملة : نعم .

فأجفل « هاك » ، وبدأت اللهفة مجسمة فى عينيه وسأل :

— ماذا ؟ ما الذى عثروا عليه ؟

— خمر ! لقد أغلق الفندق . . ماذا دهاك — لقد أفزعتنى !

— فقط أخبرينى . . أخبرينى عن شىء واحد ، أرجوك . ! هل كان « توم سوير » هو الذى اكتشف الأمر ؟ وانفجرت الأرملة باكية ! ! وهمست : صه أيها الغلام ! قلت لك من قبل إنه يجب عليك ألا تتكلم . . فإنك مريض جداً . . جداً ! .

إذن ، معنى ذلك أنهم لم يعثروا على شىء غير الخمر . . لا شك أن موجة من الدهشة كانت سوف تطغى على القرية ، لو أنهم عثروا على ذهب فى « الفندق » . . ومعنى ذلك أن الذهب ضاع إلى الأبد — ضاع إلى الأبد ! لكن لماذا تبكى السيدة ؟ من العجيب حقاً أن تبكى .

جالت هذه الأفكار بذهن « هاك » المتعب ، ولكنه لم يلبث أن أحس بالنعاس ، فاستسلم النوم .

وقالت الأرملة لنفسها :

— ها قد نام ذلك الحطام التعس . . « توم سوير » عثر عليها ! من المؤلم أن أحداً لم يستطع أن يعثر على « توم سوير » نفسه ! يا إلهى ! لم يعد هناك رجال يتمتعون بقوة كافية أو أمل كاف يدفعهم إلى المضى فى البحث .

الفصل الخامس والثلاثون

وجدا . . ثم فقدا ثانية !

والآن ، يجدر بنا أن نذكر ما حدث لتوم وبيكى . . . لقد سارا مع الجماعة خلال ممرات الكهف ، وزارا الأماكن المألوفة فيه . ولاحظ أن أماكن كثيرة فى الكهف كانت تحمل كلمات كتبها مجهولون مثـــل « غرفة الجلوس» و « الكتدرائية» و « قصر علاء الدين » وما شابه ذلك وسرعان ما بدأ الجميع يلعبون (الاستغماية) فاشترك « توم » و « بيكى » فى اللعب بحماس شديد ، إلى أن بدأ التعب يدب فى أوصالهما . وبعدئذ أخذا يضربان على غير هدى فى دهليز متعرج ، وهما يرفعان شمعتيهما فوق رأسيهما ليتمكنا من قراءة المجموعة الكبيرة من الأسماء والتواريخ والوظائف والشعارات التى سجلها من رأوا الكهف فوق الجدران الصخرية بالدخان المنبعث من لهب الشموع . . . ومضيا فى سيرهما وهما يتحدثان ، بغير أن يفطنا إلى أنهما بلغا فى تلك اللحظة منطقة فى الكهف لا يوجد لدخان الشمع أثر فيها ، وعندئذ سجل اثنان اسميهما فوق الجـــدران أسفل رف معلّق ، واستمرا فى سيرهما ، وسرعان ما بلغا مكاناً يتدفق فيه مجرى ماء صغير ، وكان هذا المجرى ينحدر من فوق حافة صخرية ، فأنشأ على مر العصور شلالا صغيراً فى قلب الصخور . . وأدخـــل « توم » جسمه خـــلال الصخور لإرضاء « بيكى » ، وسرعان ما وجد أن هذه الفتحة تؤدى إلى درج طبيعى شديد الانحدار بين جدارين من الصخر . وفى التو ، تغلبت عليه طبيعته الاستكشافية ... واستجابت « بيكى » لندائه ، وانضمت إليه بعد أن رسما علامة بالدخان لهدايتهما عند العودة . ثم انطلقا فى رحلتهما ، فراحا ينعطفان هنا وهناك ، ويهبطان إلى أسفل فى أعماق الكهف السرية ،

ثم رسما علامة أخرى ، وانطلقا فى فروع الكهف باحثين عن شىء جديد يستكشفانه ويتفاخران به فى المستقبل ! ! وفى مكان ما ، عثرا على كهف رحب ، تتدلى عن سقفه مجموعة كبيرة من الصخور المرمرية شديدة اللمعان. كل صخرة منها فى حجم ساق الرجل . فراحا يتأملانها باهتمام ، ويدوران حولها ، وهما يعجبان . ثم لم يلبثا أن غادراه ومضيا فى دهليز من الدهاليز العديدة التى تتصل به . وسرعان ما انتهى بهما هذا الدهليز إلى نبع ماء ساجر ، كان حوضه منحوتاً فى صخر متالق . وكان هذا النبع فى قلب مغارة حملَ سقفها فوق عدد كبير من الأعمدة خلابة المنظر ، تكونت نتيجةً لتجمع بعض الصخور المرمرية ، ولنشوء بعض الصخور الهشة التى أثرّ فيها تساقط قطرات الماء خلال قرون طويلة .. وتحت هذا السقف ، تجمعت أسراب كبيرة من الخفافيش ، يبلغ عددها عدة آلاف . وقد أزعج ضوء الشمعتين هذه المخلوقات ، فهبطت من مكانها بالمئات وهى ترفرف بأجنحتها ، وتصرخ صراخاً مفزعاً ، ثم تندفع نحو الشمعتين المضاءتين . وكان « توم » يعرف طبيعة الخفاش والخطر الذى ينجم عن سلوكه هذا ، فأسرع يمسك بيكى من ذراعها ، وقادها إلى أقرب دهليز إليهما ، وفى تلك اللحظة انقض خفاش بالقرب من الفتاة ورفرف بجناحيه ، فأطفأ شمعتها ، ولكن الطفلين استطاعا دخول الدهليز ، وانطلقا يعدوان بداخله ، حتى كفت الخفافيش عن مطاردتهما ... وعثر « توم » على بحيرة تحت الأرض ، لم يكن لها ثمة نهاية ، فأراد أن يستكشف حدودها ، ولكنه رأى أخيراً أنه من الأفضل أن يستريحا أولاً بعض الوقت ..ولأول مرة منذ بدأت مغامرتهما الجريئة ، شعرا بالصمت يثقل على روحيهما ! !

قالت « بيكى » : يا إلهى إنى لم ألاحظ ذلك من قبل ... يبدو أن وقتاً طويلا قد مضى منذ أن سمعت أصوات زملائنا .

— آه ... أعتقد أننا بعيدان جداً عنهم يا « بيكى » — ولست أدرى ما مدى العمق الذى بلغناه ، أو المسافة التى قطعناها ، وهل هى إلى الشمال

أم إلى الجنوب أو الشرق أو الغرب ... إننا لا نستطيع أن نسمع صوتهم من هنا .

وبدا القلق على وجه « بيكى » ... وقالت :

— شد ما أعجب كم مضى علينا من الوقت ، ونحن هنا يا « توم » ... يحسن بنا أن نعود أدراجنا .

— نعم ... أظن أنه يحسن بنا أن نعود .

هل تستطيع معرفة الطريق يا « توم » ؟ إن الدهاليز شديدة التعرج والتداخل ، على ما أعتقد .

— أعتقد أننى أستطيع أن أتبين معالم الطريق . لكن كيف نهرب من الخفافيش ؟ لو أنها أطفأت شمعتينا ، فسنهلك ... فلنجرب إذن طريقاً آخر حتى لا نضطر إلى مواجهة الخفافيش مرة أخرى .

— إفعل ماتشاء ، ولكن حذار أن تضل الطريق ... إنه لأمر فظيع !

وارتعدت الفتاة وهى تسير وراء « توم » !

وسارا فى دهليز ، قطعا فيه شوطاً بعيداً وهما صامتان : وكانا يتطلعان إلى كل فتحة جديدة تصادفهما ، ليتأكدا مما إذا كان بها أى شىء مألوف لهما ، ولكنها كانت جميعاً غريبة عليهما ، وكانت الفتاة ، تتأمل وجه « توم » لعلها ترى فى أساريره علامة مشجعة كلما راح يفحص طريقاً جديداً ، ولكنه كان لا يفتأ يقول بمرح .

— أوه : لا بأس ... إنها ليست هذه الفتحة ، ولكننا لن نلبث أن نهتدى إلى الطريق الصحيح !

ولكن الأمل مالبث أن أخذ يضمحل شيئاً فشيئاً ورويداً رويداً . وأخيراً بدأ «توم» يضرب فى الدهاليز على غير هدى ، يراوده أمل يائس فى العثور على الدهليز المنشود ... وكان يتظاهر بالشجاعة رغم الخوف الذى

بدأ يعصر قلبه . وسرعان مافقد صوته رنة الأمل التى كانت له ، وخيل كأنه «لقد انتهى كل شىء ! » . وتعلقت «بيكى» بذراعه ، وقد استولى عليها خوف قاتل ، وراحت تغالب دموعها ، ولكن الدموع لم تلبث أن انهمرت من عينيها ... وأخيراً قالت الفتاة :

— أواه يا « توم » . . . لا بأس من مواجهة الخفافيش . فلنعـــد من الطريق الذى جئنا منه ، إذ يبدو أن الموقف يسوء من لحظة لأخرى !

فتوقف « توم » عن السير . . وقال : هل تسمعين صوتا ؟

ولكن الصمت كان عميقاً . . . وصاح « توم » ، فترددت صيحته فى الممرات الخالية ، وماتت على البعد ، مثلما يموت صوت الضحك الساخر .

فقالت « بيكى » . أوه ! لا تفعل ثانية يـا « توم » ، فإن للصوت صدًى مفزعاً !

— صحيح أنه مفزع ؛ لكن يحسن بى أن أصيح يا « بيكى » ، فقد يسمعنا الآخرون .

وانطلق يصيح .. ولكن صياحه كان لا يُحدِث إلا صدى مفزعاً ... وجمد الطفلان فى مكانهما ، وأصاخا السمع ، ولكن بدون جدوى . . . وفى التو ، عاد « توم » إلى الطريق الذى جاء منه بخطى سريعة . ولكن ما أن انقضت دقائق ، حتى بدا عليه التردد ، وأفصحت تصرفاته لبيكى عن حقيقة أخرى مخيـــفة — ذلك إنه لم يستطع أن يعثر أيضاً على الطريق الذى جاءا منه !

هتفت الفتاة بجزع : أواه يا « توم » ... إنك لم تترك أية علامة !

— لقد كنتُ أحمق يا « بيكى » ! لم يخطر ببالى أننا قد نضطر إلى العودة ! إننى لا أستطيع العثور على الطريق ، فإن الدهاليز شديدة التشابك.

— « توم » . . . « توم » . لقـد هلكنا . ؟ لقـد هلكنا . ! إننا لا نستطيع

الخروج من هـذا المكان المخيف ! أواه ! أواه . . لماذا لم نبق مع الآخرين !

وخارت قواها ، فتهالكت على الأرض ، وانفجرت تبكى بحرقة. جعلت « توم » يجزع حينما خطر بباله أنها قد تموت أو تفقد عقلها . وجلس بجوارها ، وأحاطها بذراعيه ، فدفنت وجهها فى صدره ، وتعلقت به ، وراحت تفضى إليه بمخاوفها وأسفها . وكانت أصداء حديثهما أشبه بصدى ضحك ساخر ! . فراح « توم » يتوسل إليها أن تستجمع أطراف شجاعتها ، ولكنها قالت إنها لا تستطيع ذلك . فانطلق يلوم نفسه لأنه هو الذى زج بها فى هذا الموقف الحرج . وكان لذلك أثره الفعال ، إذ ما لبثت « بيكى » أن قالت إنها ستحاول أن تتمسك بأهداب الأمل مرة أخرى ، وأن تنهض وتمضى معه إلى حيث يريد ، على شريطة ألا يعود إلى هذا اللون من الحديث مرة أخرى ، لأنها تستحق نفس القدر من اللوم الذى يستحقه !

واستأنفا السير ، بلا غاية وعلى غير هدى — فكل ما كان فى استطاعتهما أن يفعلاه ، هو أن يتحركا ويستمرا فى الحركة . . . وبعد فترة قصيرة ، بدأ أملهما ينتعش . ولم يكن هناك ثمة سبب لذلك ، ولكن طبيعة الأمل نفسه تأبى إلا أن تنتعش ، طالما أن نبع الأمل لم ينضب .

وبعد قليل ، أخذ « توم » شمعة « بيكى » وأطفأها . . . وكان لهذا الاقتصاد معناه الواضح ! ولم تكن هناك حاجة إلى الإيضاح ، فقد فهمت « بيكى » الموقف ، فمات أملها مرة أخرى ! . كانت تعلم أن مع « توم » شمعة كاملة وثلاث أو أربع بقايا شموع فى جيبه — ومع ذلك ، فقد رأى أنه من الخير الاقتصاد فى استهلاك الشموع !

وبدأ التعب يحدث أثره فى قواهما ، ولكنهما حاولا ألا يلقيا إليه بالا فقد كانا يعلمان أن مجرد التفكير فى الجلوس فى مثل هذه الظروف ، حيث للوقت قيمة لا تقدر بثمن ، أمر خطير للغاية . . فقد كان التقدم فى نفس

الاتجاه ، أو فى أى اتجاه آخر ، تقدماً على كل حال ، كما أنه قد يشمر فى أية لحظة .. أما الجلوس فمعناه الموت السريع المحقق .

وأخيراً ، رفض ســاقا « بيكى » المنهوكتان أن يحملاها ، فجلست واستراح « توم » معها ، وطفقا يتحدثان عن البيت والأصدقاء الذين تركوهما والفراش الوثير وجمال الطبيعة والنور ! وبكت بيكى ، فحاول « توم » أن يفكر فى وسيلة لتهدئة روعها ، ولـكنه فشل . . واشتدت وطأة التعب على الفتاة ، فثقل جفناها ، ونامت ! فتنفس « توم » الصعداء ، وراح يتأمل وجهها الممتقع ، ولـكنه لم يلبث أن لاحظ أن وجهها بدأ يشرق ، فأيقن أنها كانت تعيش فى حلم سار ! ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة حلوة . . وكأنما انتقلت عدوى الابتهاج من وجه الفتاة إلى روح « توم » ، فسبحت أفكاره فى الماضى القريب والذكريات الحالمة . وبينما كان مستغرقاً فى التفكير استيقظت « بيكى » وهى تضحك ضحكة رقيقة — ولـكن الضحكة لم تلبث أن ماتت على شفتيها ، ثم أفلتت منها صرخة خافتة .

وهتفت الفتاة : : أواه ! كيف جرؤت على النوم ! ليتنى لم أستيقظ أبداً ... أبداً ! لا .. لا .. لست أقصد ذلك يا « توم » ! فلا تنظر إلىّ غاضباً هكذا ! لن أقول ذلك مرة أخرى .

— إنى مسرور لأنك نمت ، يا بيكى ، ... ويبدو أنك استرحت الآن ، ولسوف نجد طريقنا إلى الخارج .

— نستطيع أن نحاول يا « توم » ، ولـكنى رأيت بلداً ساحراً فى الحلم وأكبر ظنى أننا سنذهب إلى هناك .

— ربما ... ربما . . تهللى يا « بيكى » ودعينا نستمر فى المحاولة ونهضا . وانطلقا هائمين فى يأس وقد أمسك كل منهما بيد الآخر . . وحاولا تقدير الوقت الذى انقضى عليهما فى الكهف ، ولـكن كل ما كانا

يعرفانه ، هو أن هذا الوقت ربما كان أسابيع ، ومع ذلك كان من الواضح أن تقديرهما بعيد عن الصواب ، لأن الشمعة لم تستهلك بعد . . وقبل انقضاء وقت طويل على ذلك ، لم يعد فى استطاعتهما أن يحدداه بالطبع — قال «توم» إنه ينبغى عليهما أن يسيرا و يصغيا لقطرات الماء المتساقطة — إذ يجب أن يعثرا على نبع ماء . . وقد عثرا على النبع بعد قليل ، فقال «توم» إن الوقت قد حان ليستريحا . . كان كلاهما يشعر بإعياء شديد ، إلا أن «بيكى» قالت إنها تعتقد أن فى استطاعتها أن تمضى شوطا أطول ، وكم كانت دهشتها عظيمة حينما رفض «توم» ذلك! ولم تستطع أن تفهم السر فى سلوك «توم» ! ، وثبّت «توم» الشمعة فى الجدار المواجه لهما بقطعة من الطمى اللزج . . ومضت فترة لم ينطق أحدهما بكلمة خلالها ، ثم تكلمت «بيكى» فقالت :

«توم» ، إننى أشعر بجوع شديد !

فأخرج «توم» شيئاً من جيبه . . وسألها : هل تذكرين هذه ؟

ولم تتمالك «بيكى» من الابتسام وقالت : نعم . . نعم . . إنها كعكة زفافنا يا «توم» !!

— نعم — ليتها كانت كبيرة كبرميل ، فإنها كل ماتبقى لنا .

قالت : لقد احتفظتُ ، بالكعكة يا «توم» لنجعلها مصدر أحلامنا مثلما يفعل الكبار بكعكة الزفاف — ولكنها ستكون ... ...

وأمسكت عن إتمام عبارتها .. أما «توم» فقد شطر الكعكة إلى جزئين ، أعطى أحدهما لبيكى فأكلته بشهية ، ولكن الغلام تظاهر بأنه يأكل .. وكان ماء النبع بارداً ، فرويا ظمأهما منه .. وبعـــد قليل اقترحت «بيكى» أن يستأنفا السير ، فلاذ «توم» بالصمت قليلا . قال :

— «بيكى» . هل تستطيعين احتمال نبأ سأفضى إليك به ؟

فاصفر لون «بيكى» ، ولكنها قالت إنها تستطيع ذلك .

— حسناً يا «بيكى» . . ينبغى أن نبقى هنا حيث يوجد ماء نرتوى منه ، فإن قطعة الشمع هذه ، هى آخر ما لدينا !

وانفجرت الفتاة باكية مولولة ، وبذل « توم » قصارى جهده للتخفيف عنها ، ولكن بغير جدوى . وأخيراً قالت « بيكى » .

— « توم » !

— ماذا دهاكِ يا « بيكى » :

— لا شك فى أنهم سيفتقدوننا ، فيبحثون عنا !

— نعم . . لاشك فى أنهم سيفعلون ذلك !

— لعلهم يبحثون عنا الآن يا « توم » .

— أظن ذلك .. بل آمل أن يفعلوا ذلك !

— متى سيفتقدوننا يا « توم » ؟

— أظن أنهم سيفعلون ذلك ، عندما يعودون إلى « الباخرة » .

— قد تكون الدنيا ظلاماً وقتذاك — هل سيلاحظون أننا لم نعد ؟

— لست أدرى . لكن مهما يكن ، سوف تفتقدك أمك بمجرد عودة الجميع إلى منازلهم .

فارتسمت علامات الفزع على وجه الفتاة ، فأدرك « توم » أنه أخطأ ، فقد كان المفروض أن « بيكى » لن تعود إلى المنزل فى تلك الليلة ! فساد الصمت بين الفتى والفتاة ؛ واستغرقا فى التفكير ، وبعد لحظة غمرت «بيكى» موجة جديدة من الحزن ، جعلت « توم » يدرك أن ما دار بخاطره دار بخاطرها أيضا — ذلك أن أمها لن تفطن إلى أن « بيكى » تقضِ ليلتها فى منزل « مسز هاربر » إلا بعد انتهاء صلاة صباح يوم الأحد .

وركّز الاثنان عينيهما فى الشمعة الصغيرة التى بقيت لهما ، وراحا يراقبانها وهى تذوب ببطء ، وبلا شفقة . . ثم رأيا نصف البوصة الأخير من الذبالة وهو يتجرد مما حوله من شحم ، ثم أخذ اللهب يلمع ويخبو المرة بعد الأخرى — وأخيراً ساد الظلام المفزع !

وأخذت « بيكى » تبكى وهى بين ذراعى « توم » ، ولم يستطع أحدهما أن يعرف كم من الوقت مضى عليهما وهما على هذه الحال . . كل ماعرفاه

هو أنهما — بعد انقضاء فترة خالاها دهراً — استيقظا من إغفاءة قصيرة ، فاستأنفا تعاستهما مرة اخرى .. قال « توم » إنه من المحتمل أن يكون اليوم يوم الأحد — وربما يوم الإثنين . وحاول أن يستدرج « بيكى » إلى الكلام ، ولكن حزنها كان شديداً بعد أن فقدت كل أمل فى النجاه ... وعاد « توم » يقول أن أسرتهما لابد قد افتقدتاهما منذ وقت طويل ، أن ليس ثمة شك فى أن البحث عنهما جارٍ على قدم وساق .. وأنه إذا صاح ، فسوف يقبِل من ينقذهما . . وانطلق يصيح ، ولكن الظلام وصدى الصوت أفزعاهما أشد الفزع ، فاضطرا إلى الكف عن هذه المحاولة .

ومضت الساعات ثقالا ، وبدأ الجوع يعضهما بنابه . وكان « توم » قد احتفظ بقطعة من نصيبه من الكعكة ، فاقتسماها وأكلاها ، ولكن يبدو أن ذلك زادهما جوعاً عن ذى قبل .

وبعد قليل قال « توم » : صه هل سمعتِ ؟

وحبس الإثنان أنفاسهما ، واصاخا السمع .. خيــل إليهما أنهما يسمعان صوتاً أشبه بصياحٍ قادمٍ من بعيد ، وأجاب « توم » على الصياح ، وقاد « بيكى » من يدها ، ثم راحا يتحسسان طريقهما فى الممر فى اتجــاه الصوت . . وأصاخ «توم» السمع مرة أخرى ، فسمع الصوت ثانية ، وكان أقرب قليلا هذه المرة .

قال « توم » : إنهم هم . ! إنهم قادمــون ! هلمى بنا يا « بيكى » إننا فى أمان الآن !

كان فرح السجينين شاملا ، ولكن تقدمهما كان بطيئاً لأنهما كانا يتعثران هنا وهناك . وبعد فترة وجيزة ، بلغا فجوة ، اضطرا إلى التعثر عندها ، فتوقفا عن السير . . كان من المحتمل أن يكون عمقها ثلاثة أقدام وربما مائة — ولكنها كانت على كل حال عقبــة لا يمكن تخطيها . وانبطح « توم » على وجهه ومد ذراعيه إلى أبعد ما يستطيع ، ولكنه لم يصل إلى قاع الفجوة . ومن ثم أصبح لزاماً عليهما أن يبقيا فى مكانهما

حتى يدركهما الباحثون عنهما . وعادا يصيخان السمع ، ولكن الصياح البعد
لم يلبث أن أصبح أكثر بعداً، وبعد لحظة أو اثنتين تلاشى تماماً .. وانفطر
قلبا الصغيرين عندما تلاشى الصوت ! وانطلق « توم » يصيح حتى بُحَّ صوته
ولكن بدون جدوى .. وعندئذ شرع يتحدث إلى « بيكى » محاولاً
إدخال الطمأنينة إلى قلبها ، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح ، لأن
أصوات القادمين تلاشت تماماً

وتحسس الصغيران طريقهما عائدين إلى نبع الماء ، وأخذ الوقت يمضى
متثاقلاً . . واستسلما للنعاس ، ثم استيقظا وهما يشعران بجوع مؤلم ،
ويكابدان حزناً عميقاً . . . وكان « توم » يعتقد أن اليوم لابد أن يكون
يوم الثلاثاء ! .

وخطرت له فكرة . . كانت هناك دهاليز جانبية قريبة ، ومن ثم فقد
عول على استكشافها بدلا من الاستسلام لليأس القاتل .. وأخرج من جيبه
الخيط الذى يربط به طائرته الورقية ، وعقد طرفيه فى نتوء ، ثم بدأ
و « بيكى » عملية الاستكشاف . وكان « توم » يسير فى المقدمة ، وسارا
عشرين خطوة ، ثم لم يلبث الغلام أن وجد فجوة فى الأرض ، فركع فوق
ركبتيه وتحسسها ، ثم زحف نحوها، ولم يلبث أن عثر على فجوة أخرى إلى
اليمين . وفى تلك اللحظة، رأى يداً آدمية تحمل شمعة تبرز من خلف الصخرة
المواجهة . ولم يتمالك الغلام نفسه ، فأطلق صيحة ابتهاج عالية ، وفى التو
برز صاحب اليد .. كان « انجان جو » ! ! . وجمد توم فى مكانه مسمراً ،
ولكنه تنفس الصعداء حينما رأى « الأسبانى » يبادر بالاختفاء فى اللحظة
التالية .. وعجب « توم » لأن « جو » لم يعرف صوته . ولم يبادر إلى قتله
بعد أن أدلى بشهادته ضده فى المحكمة ، ولكنه سرعان ما أيقن أن الفراغ
الهائل المحيط به جعل لصوته رنة غير عادية ! . . وكان الفزع الذى استولى
على « توم » قد شل حركته تماماً . فقال لنفسه أنه لو استطاع أن يستجمع
قواه ، لعاد إلى النبع حيث يبقى هناك ، ولما استسلم لأية قوة تدفعه إلى

المجازفة بمقابلة « انجان جو » مرة أخرى . . وحرص الغلام على إخفاء ما رآه عن « بيكى » ، وقال لها إنه صاح « ليجلب الحظ » !

ولكن الجوع والشقاء تغلبا على المخاوف فى آخر الشوط ، فقد قضى الصغيران وقتاً طويلا وهما ينتظران عند النبع ، ثم ناما وقتاً طويلا استردا خلاله بعض قوتهما . وعندما استيقظا كانا يكابدان عذاب الجوع الأليم .
وأيقن « توم » أن اليوم إما أن يكون يوم الأربعاء أو الخميس وربما يوم الجمعة أو يوم السبت ! ، وأن من المحقق أن أهل القرية قد كفوا تماماً عن البحث عنهما . ومن ثم عوّل على استكشاف ممر آخر . بل لقد شعر بأنه على استعداد للمجازفة بمقابلة « انجان جو » وشتى ضروب الفزع الأخرى !

ولكن « بيكى » كانت لا تقوى على السير وقد سيطرت عليها حالة من الذهول الشديد ، فلم يستطع الغلام إقناعها بالسير معه . . قالت إنها تفضل أن تظل حيث هى حتى تموت — وان يكون ذلك بعد وقت طويل . . وقالت أيضاً للغلام ألا بأس عليه من أن يذهب للاستكشاف مستعيناً بخيط الطائرة .
ولكنها توسلت إليه أن يعود بين حين وآخر ليتحدث إليها ؛ وحملته على أن يعدها بأن يبقى معها ويمسك بيدها عندما تحين اللحظة الرهيبة ، لحظة موتها ، وألا يتركها حتى ينتهى كل شىء !

وقبّلها « توم » وقد أحس بغصة فى حلقه ، ولكنه تجلد وصبَر وقال لها إنه واثق من أنه سيعثر على الباحثين عنهم ، أو يجد مخرجاً من الكهف .
ثم التقط خيط الطائرة ، وزحف فى أحد الممرات فوق ركبته ويديه ، وقد عضه الجوع بنابه ، وأضناه التفكير فى الموت المرتقب !

الفصل الثانى والثلاثون

هلموا ! لقد وجدا !

أقبل مساء يوم الثلاثاء ، ولكنه لم يلبث أن تراجع أمام الغسق وكانت قرية « سانت بترسبورج » لا تزال حزينة ، لأن الصغيرين المفقودين لم يُعثر لهما على أثر . . وأقيمت أصوات العـــامة من أجلهما ، كما راح عشرات الناس من سكان القرية يبتهلون إلى الله أن ينقذهما ، ومع ذلك فإن نبأ واحداً طيباً لم يأت من الكهف الرهيب . . وكان السواد الأعظم من الباحثين قد تخلى عن البحث ، وعاد إلى أعماله اليومية ، قائلا إنه أصبح من الواضح استحالة العثور على الصغيرين . وكانت « مسز تاتشر » قد سقطت فريسة المرض ، وانخرطت فى الهذيان . . ولقد قال الناس أنه مما يفطر القلوب حزناً أن يروا هذه السيدة التعسة وهى تنادى طفلتها، ثم ترفع رأسها ، وتصيخ السمع دقيقة كاملة ، وبعدئذ تتهالك فى إعياء فوق الوسادة وهى تتأوه .. أما العمة « بولى » ، فقد استولت عليها حالة من الحزن العميق الصامت ، وتحول شعرها كله إلى المشيب .

وآوى سكان القرية إلى فراشهم فى ليلة الثلاثاء ، وهم أشد ما يكونون حزناً وعند منتصف الليل ، أصيبت أجراس القرية بالجنون فجأة ، فراحت تقرع بشدة، وفى لحظات كانت الشوارع تغص بالناس، وقد ارتدوا نصف ملابسهم ، بينما كان بعض الأشخاص يصيحون « هلموا ! هلموا ! لقد وجدا ! لقد وجدا ! » ، واستخدمت الأطباق النحاسيه والأبواق لزيادة الجلبة . وتجمع السكان ، وأخذوا يتقدمون نحو النهر . وفجأة رأوا الصغيرين قادمين فى عربة مكشوفة يجرها المواطنون ، وهم يصيحون صيحات الفرح والابتهاج ، فى طريقهم إلى منزل القاضى !

وأضيئت الأنوار فى كل مكان بالقرية : ولم يأو أحد إلى فراشه فى

تلك الليلة ، فقد كانت أعظم ليلة شهدتها القرية الصغيرة . وفى خلال نصف الساعة الأولى تألف موكب كبير من أهل القرية ، قصد إلى منزل القاضى « تاتشر » ، حيث انهال الناس بالقبل على الصغيرين العائدين ، كما قدموا التهنئة الصادقة إلى «مسز تاتشر» وكانوا يشدون على يدها بحرارة،ويحاولون الكلام فيرتج عليهم ، وتنهمر الدموع من عيونهم .

واكتملت سعادة العمة « بولى » ومسز « تاتشر » ولم يبق إلا أن يُبلَّغ النبأ لمستر « تاتشر » فى الكهف . وكان «توم» ممدداً فوق إحدى الأرائك فى تلك الأثناء ، ومن حوله عشرات الأشخاص يصغون إليه باهتمام ،وهو يصف لهم تفاصيل المغامرة المثيرة . وكان الغلام يضيف إلى القصة بعض الرتوش ! وختم حديثه بوصف المرحلة النهائية للمغامرة ، حين ترك «بيكى» وقام برحلته الاستكشافية ، وكيف أنه سار فى ممرين من الممرات حتى نهاية حبل الطائرة، وكيف أنه سار فى دهليز ثالث حتى نهاية طرف الحبل الآخر، وكاد يهم بالعودة من حيث أتى ، حينما لاحظ نقطة بيضاء بعيدة، كانت تبدو كضوء النهار . ومن ثم ألقى بالحبـــل ، وراح يتحسس طريقه نحو هذه النقطة ، فعثر على فجوة ، أدخل رأسه وكتفيه فيها ، وعندئذ رأى أمامه نهر المسيسبى !

ومضى «توم» فى حديثه قائلا ، إنه ما كان ليستطيع أن يرى هذه الفجوة ولما مضى فى الدهليز إلى أبعد من النطقة التى انتهى عندها حبل الطائرة ، لو أن الوقت كان ليلا حينذاك ! وأضاف الغلام إنه على أثر وقوعه على هذا الكشف ، كر عائدا إلى حيث ترك « بيكى » وأفضى إليها بالنبأ العظيم فلم تصدقه فى بادىء الأمر ، وقالت له إنها متعبة ، ومن ثم يجدر به ألا يعذبها بمثل هذه الخيالات الخرقاء ! ولكنه راح يقنعها بصدق قوله ، وما أن تحققت من وجود الفجوة ، حتى كادت تطير من شدة الفرح . . ثم وصف الغلام كيف استطاع أن ينفذ من خلال الفجوة بصعوبة ، وكيف أنه عاون « بيكى » على الخروج منها ، وكيف أنهما جلســـا خارج الكهف وانفجرا

يبكيان من فرط الفرح ، ثم رأيا رجالا قادمين فى قارب ، فناداهم « توم » وشرح لهما موقفهما ، وكيف أنهما يوشكان على الموت جوعاً ، فلم يصدقوا قصته المثيرة فى بادىء الأمر ، قائلين له إنها قصة خرافية لأنكما على مبعدة خمسة أميال من فتحة الكهف . — ولكنهم أخذوهما معهم ، وقدموا لهما طعام العشاء ، ونقلوهما إلى منزل أحدهم ليستريحا ، وبعد أن قضيا أكثر من ست ساعات وهما نائمان ، جاء بهما الرجال إلى المدينة .

وقبل طلوع الفجر أمكن الاتصال بالقاضى « تاتشر » والجماعة التى كانت تعاونه فى البحث بداخل الكهف ، وزف إليهم النبأ العظيم .

لم يكن من السهل التخلص من آثار الجهد العصبى والجوع التى خلفتها ثلاثة أيام وليال فى الصغيرين . وقد اكتشف « توم » و « بيكى » ذلك ، فاضطرا إلى ملازمة الفراش طوال يومى الأربعاء والخميس . وكان يخيل لهما كلما مر الوقت أنهما يزدادان إعياء . ولكن « توم » استطاع أن يسترد بعض قواه فى يوم الخميس ، وغادر المنزل يوم الجمعة . وفى يوم السبت ، استرد الغلام جميع قواه ، أما « بيكى » فإنها لم تغادر غرفتها إلا يوم الأحد ولكنها كانت تبدو هزيلة شاحبة الوجه مثل الناقه من مرض طويل !

وسمع « توم » بمرض « هاك » ، فذهب لزيارته يوم الجمعة . ولكنهم لم يسمحوا له بمقابلته ، لا فى ذلك اليوم ، ولا فى يومى السبت والأحد . غير أنهم سمحوا له بعد ذلك بمقابلته ، يومياً ، بعد أن حذروه من الإشارة إلى مغامرته أو الإفضاء إليه بأية ملاحظة مثيرة ... وكانت الأرملة دوجلاس ، تحرص على حضور هذه المقابلات ، لتستوثق من استجابة « توم » لهذا الرجاء ... ولقد سمع « توم » بالحادث الذى وقع فى « كارديف هيل » ، كما سمع أن جثة شريك « إنجان جو » عثر عليها فى النهر بالقرب من مرسى العائمة ، وأن الرأى السائد هو أن الرجل غرق وهو يحاول الهرب !

وبعد انقضاء حوالى أسبوعين على نجاة « توم » من الكهف ، ذهب الغلام لزيارة « هاك » ، وكان هذا قد استرد كثيراً من قواه فى تلك الأثناء

وأصبح فى استطاعته أن يتحمل كل المؤثرات المثيرة وكانت لدى « توم » بعض أنباء مثيرة فملا يريد الإفضاء بها لهـــاك . وفى الطريق إلى منزل «الأرملة دوجلاس» عرج « توم » على منزل القاضى « تاتشر » لرؤية «بيكى» ومرة أخرى طلب القاضى « تاتشر » وبعض أصدقائه إلى الغلام أن يحدثهم عن مغامرته فى الكهف، ثم سأله أحدهم بسخرية إن كان يرغب فى العودة إلى الكهف ، فقال «توم» إنه يعتقد أن ذلك لم يعد يخيفه . وعندئذ قال القاضى :

— أعتقد أن هناك من يشاطرونك هذه الرغبة يا « توم » ، ولكننا لن نمكنهم من ذلك ، فمنذ اليوم ، لن يضل أحد طريقه فى الكهف فسأل « توم » لماذا ؟

— لقد وضعنا بابا سميكا مقوى بأحزمة من الحديد فى فتحة الكهف. ولهذا الباب ثلاثة أقفال ضخمة مفاتيحها كلها معى !

فاصفر لون « توم » . وعندئذ صاح القاضى !

— ماذا دهاك يا فتى؟ هيا اسرعوا ! فليحضر أحدكم كوباً من الماء !

وجىء بالماء وسكب على وجه « توم » . . ثم قال القاضى :

إنك الآن أحسن حالا يا « توم » لكن أخبرنى ماذا دهاك ؟

— أواه يا سيدى القاضى .. إن « انجان جو » موجود فى الكهف !!

الفصل الثالث والثلاثون

نهاية « إنجان جـــو » !

بعد خمس عشرة دقيقة ، كان النبأ قد ذاع وانتشر ، فخرج أكثر من اثنى عشر قارباً محملا بالرجال ، في طريقهم إلى كهف « ما كدوجال » كما أبحرت العائمة بعد قليل ، وقد ازدحمت بالركاب ، وكان « توم » فى القارب الذى ركبه القاضى « تاتشر » .

وعندما فتح باب الكهف ، وقع بصر الجميع على منظر مؤلم ... كان « إنجان جو » ممدداً فوق الأرض ، وقد فارقته الحياة ، ووجهه ملاصق لشق رفيع بين الباب وعتبة الكهف . وكأنما كانت عيناه مركزتين ، إلى آخر لحظة فى ضوء العالم الرحب وبهجته ، خارج الكهف .. وتأثر « توم » كثيراً لأنه أدرك من تجاربه المؤلمة ، مدى ما عاناه هذا التعس من آلام وعذاب. ولكنه لم يلبث أن نفض عنه هذا الأسف ، وشعر براحة لا مزيد عليها عندما تبين له أن الخطر الداهم الذى كان يحلق فوق رأسه منذ أدلى بشهادته ضد هذا الشرير ، قد ذهب إلى غير رجعة .

كانت سكين « انجان جو » ملقاة على مقربة منه ، وقد تحطم نصلها إلى جزئين ... ولاحظ الجميع أن عارضة الباب الكبرى قد تشققت خدشت نتيجة لجهد كثير بذل ، ولكنه كان جهداً ضائعاً ، لأن الصخرة التى كانت تلاصق طرف الباب الأسفل كانت تعترض نصل السكين ، ومن ثم لم يستطع النصل أن يؤثر فيها ، فتحطم فى النهاية — وبفرض أن هذه الصخرة لم تكن موجودة ، فقد كان من المستحيل تحطيم العارضة لأنها مصنوعة من خشب صلب سميك ، ولا يمكن إحداث ثغرة كافية أسفل الباب يستطيع « انجان جو » الخروج منها . ولا شك فى أن الرجل كان يعلم ذلك ، ومن

ثم فقد بذل هذا الجهد ، لكى يشغل وقته الضائع ، ويصرف ذهنه عن التفكير فى نهايته المؤلمة ... وكان أولئك الذين زاروا الكهف ، قد رأوا من قبل وعدة أجزاء من شموع مثبتة بالجدران ، تركها السائحون هناك على سبيل الذكرى ، ولكن هذه القطع لم يعد لها أثر الآن ، فأدرك القاضى ومن معه أن السجين اضطر إلى انتزاعها وأكلها ،كما استطاع أن يقتنص عددا من الخفافيش أكلها أيضاً ، ولم يترك سوى مخالبها ... ولكن الرجل التعس لقى حتفه جوعاً آخر الأمر ... وفى مكان قريب ،كانت الصخور المرمرية تتكون ببطء فوق أرض الكهف خلال العصور الطويلة ، نتيجة لتساقط قطرات الماء من صخور الكهف الهشة المحطمة . وكان واضحا أن « جو » حاول جمع قطرات الماء التى كانت تسقط من السقف ، بمعدل قطرة واحدة كل ثلاث دقائق بنظام دقيق كدقات الساعة — وكانت كمية الماء التى تتجمع من هذه القطرات تعادل ملعقة متوسطة كل أربع وعشرين ساعة !! لقد كانت هذه القطرات ، تتساقط منذ أجيال وأجيال ... بل لعلها كانت تتساقط منذ عصر بناء الأهرام ، أو منذ حروب طروادة ، أو منذ شيدت روما . أو منذ صلب المسيح ، أو منذ غزا النورمانديون الإمبراطورية البريطانية ، أو منذ أبحر كولومبس إلى أمريكا !! . وهى ما زالت تتساقط إلى اليوم ، وستظل تتساقط إلى أن ينتهى هذا العالم ... ترى هل لكل شىء غاية ورسالة ؟ هل ظلت هذه القطرات تتساقط بصبر خلال خمسة آلاف عام ، لتكون على استعداد لإرضاء الحاجة الطارئة لهذه الحشرة البشرية ؟ وهل لها غاية أخرى هامة سوف تحققها بعد عشرة آلاف سنة ! مهما يكن لقد مضت سنوات عديدة منـــذ لقى « انجان جو » مصرعه فى الكهف ، ولكن (الكأس) الصناعية التى أعدها ليجمع فيها قطرات الماء ما زالت موجودة حتى اليوم ، يراها السائحون الذين يفدون على كهف «ماكدوجال» ويعتبرونها من أعاجيب الكهف التى لا يباريها شىء حتى ولا « قصر علاء الدين » ! .

ودفن « إنجان جو » على مقربة من باب الكهف .. وجاء كثيرون من المدن القريبة ، ومن جميع المزارع الواقعة فى دائرة نصف قطرها سبعة أميال لحضور جنازة « إنجان جو » .. جاءوا بالقوارب والعربات ، وقد أحضروا أطفالهم وطعامهم معهم خصيصاً لهذه المناسبة ، واعترفوا بأنهم قضوا وقتاً طيباً فى الجنازة ، لا يقل متعة عما كانوا سيقضونه ، ولو أن هذا الشرير أعدم شنقاً ...

ولقد أفسدت هذه الجنازة إجراء كان بعض الناس يستعدون له هو عريضة تقدم للمحافظة للعفو عن « إنجان جو » .. وكان كثيرون قد وقعوا على هذه العريضة ، كما عقدت عدة اجتماعات لهذا الغرض ، وشكلت لجنة من السيدات الساذجات ، يرتدين السواد ويذهبن إلى المحافظ مولولات ويناشدنه ان يكون « رحيما » يطأ واجبه بقدميه .. كان المعتقد أن « انجان جو » قتل خمسة مواطنين من سكان القرية ، لكن ماذا فى ذلك ؟ لو أنه كان الشيطان بلحمه ودمه ، لوجد كثيرين من المستضعفين على استعداد لأن يوقعوا بأسمائهم على عريضة العفو !

وفى صباح اليوم التالى للجنازة ، انفرد « توم » بهاك فى مكان منعزل ، وتحدث معه حديثاً هاماً .. كان « هاك » قد عرف كل شىء عن مغامرة « توم » من الكهل الاسكتلندى والأرملة « دوجلاس » ولكن « توم » قال له إن هناك شيئاً يعتقد أنهما لم يحدثاه عنه ، وأن هذا الشىء هو مايريد أن يحدثه عنه الآن ، فبدا الحزن على وجه « هاك » ، وقال :

— إننى أعرف ما هو .. لقد استطعت دخول رقم ٢ ، ولكنك لم تجد شيئاً غير زجاجات الخمر ! .. إن أحـــداً لم يقل لى إنك أنت الذى اقتحمت الغرفة ، ولكنى أيقنت أن ذلك كان من صنع يديك ، بمجرد أن سمعت نبأ العثور على الخمر !! وقد أيقنت أنك لم تحصل على الكنز ، وإلا لاتصلت بى بطريقة أو أخرى ، وأبلغتنى ذلك مهما التزمت الكتمان مع الآخرين .. أصدقك القول يا « توم » أن هاتفاً ما ، كان يحدثنى دائماً بأننا

لن نفوز بهذا الكنز !

ولكنى لم أذكر شيئاً على الإطلاق عن ذلك الفندق ، إنك تعرف أن الفندق كان فى خير حال ، عندما حاولنا اقتحامه يوم السبت .. ألا تذكر أنه كان عليك أن تقوم بمراقبته أثناء الليل ؟

— أوه نعم ... ولو أنه يخيل لى أن عاماً قد انقضى منذ تلك الليلة ... لقد تبعت « إنجان جو » إلى منزل الأرملة فى تلك الليلة بالذات .

— تبعته !

— نعم ، لكن يجب ألا تذكر ذلك لأحد ، فإننى أعتقد أن « إنجان جو » خلف أصدقاءه وراءه ... ولست أريد أن ينقموا علىّ ويحاولوا الثأر منى ... فلولاى لكان « انجان جو » فى تكساس الآن !

ومضى « هاك » يسرد تفاصيل مغامرته لتوم الذى كان قد سمع جزءاً منها من الكهل الاسكتلندى .

وأخيراً عاد « هاك » إلى الموضوع الأساسى .. قال :

— مهما يكن أمر الشخص الذى أفشى سر وجود الخمر فى رقم ٢ ، فلا بد أن يكون هذا الشخص هو الذى اغتصب الكنز لنفسه .. ومعنى ذلك أننا فقدناه إلى الأبد يا « توم » .

— « هاك » إن هذا الكنز لم يكن فى رقم ٢ فى يوم من الأيام فحدق « هاك » بقوة فى وجه صديقه وصاح :

— ماذا تقول ؟ هل استطعت أن تعثر على أثر لهذا الكنز مرة ثانية يا « توم » !

— « هاك » .. إن الكنز فى الكهف !

فتألقت عينا « هاك » وهتف : قل ذلك مرة أخرى يا « توم » !

— إن الكنز موجود فى الكهف ؟

— إنه لأمر عجيب — هل تهزل أم تجد ؟

— بل أجد يا « هاك » — إننى جاد الآن أكثر منى فى أى يوم مضى...

هل تذهب معى إلى الكهف ، وتساعدنى فى إخراج الكنز منه ؟

— لا شك إننى على استعداد لأن أفعل ذلك ! بل سأفعل ذلك ، إذا استطعنا أن نجد طريقنا بداخل الكهف دون أن نضل الطريق .

— إن فى استطاعتنا أن نفعل ذلك يا « هاك » بغير أن نضل الطريق .

— هذا بديع ! لكن ما الذى يجعلك تظن أن الكنز . . .

— تريث يا « هاك » حتى ندخل الكهف . فإذا لم نعثر على الكنز هناك ، فإنى أعدك بأن أعطيك (طبلتى) وكل ما أملك فى هذا العالم . . سأفعل ذلك بحق السماء !

— هذا حسن . . ومتى سنذهب ؟

— الآن . . فهل أنت على قدر من القوة يسمح لك بذلك ؟

— هل الكنز فى مكان سحيق داخل الكهف ؟ لقد كنت غير قادر على الحركة منذ ثلاثة أو أربعة أيام ، ولكنى أستطيع الآن أن أمشى أكثر من ميل — على الأقل هذا ما أعتقد يا « توم » .

— إن المسافة خمسة أميال بالنسبة لجميع الناس إلاّى . . . فإن هناك طريقاً مختصراً جداً ، لا يعلم أحد غيرى شيئاً عنه . وسأذهب بك إليه فى قارب . . سأجىء « بالقارب إلى هنا ، ثم أعيده إلى مكانه وحدى ، دون أن أكلفك أى جهد .

— إذن ، فلنذهب الآن يا « توم » !

— تريث قليلا يا « هاك » ، إننا بحاجة إلى شىء من الخبز واللحم ، وغليون وحقيبة أو اثنتين صغيرتين ، وخيطين أو ثلاثة خيوط من خيوط الطائرات وكمية من أعواد الثقاب الجديدة التى يطلقون عليها اسم « ثقاب لو سيفر » التى كثيراً ما تمنيت لو إننى أملك كمية منها ، عندما كنت سجينا فى الكهف .

وبعد الظهر بقليل ، « استعار » الغلامان قاربا صغيراً من مواطن كان

غائباً ! وانطلقا به بلا إبطاء . وعندما أصبحا على مبعدة بضع أميال من تجويف الكهف ، قال « توم » :

— إن هذا النتوء يبدو متجانساً من كل مكان ، فهو مغطى بالأعشاب المتماثلة ، ولا منازل أو مستودعات للخشب به — ولكن هل ترى ذلك المكان الأبيض البعيد ، حيث حدث انزلاق أرضى ؟ حسناً ، إنه إحدى العلامات التى استرشد بها . . سنهبط إلى البر الآن .

وهبطا من القارب ويمما وجههما شطر الكهف .

قال « توم » : إنك تستطيع أن ترى من هذا الفجوة التى خرجت منها يا « هاك » . . فحاول أن تعثر عليها .

وفحص « هاك » المنطقة التى حوله ، ولكنه لم يعثر على شىء . وفى التو سار « توم » بخيلاء وسط دغل من الأعشاب الطويلة الكثيفة وقال :

— ها هى ! أنظر إليها يا « هاك » . . . إنها أعظم فجوة فى البلاد كلها . فلا تقل شيئاً عنها لأحد . فمنذ أمد طويل وأنا أتمنى أن أصبح لصا ، ولكنى كنت أعلم أنه يجب أن يتوفر لى مخبأ كهذا ، يضل فيه من يفكر فى مطاردتى . حسناً ، لقد توفر لى المخبأ الآن ، فعلينا أن نحرص على إبقاء أمره طى الكتمان ، فلن يعرف أحد غير « بن روجرز » و « جو هاربر » شيئاً عنه ، وذلك لأنهما سيكونان عضوين فى العصابة — سيكون اسمها « عصابة توم سوير » — أليس وقع هذا الاسم جميلاً على الأذن يا « هاك » ؟

— نعم يا « توم » . . ولكن مَنْ الذى سنسرقه ؟

— أوه . . أى شخص . . سوف تكون معظم حوادثنا قطع الطريق على الناس !

— وهل سنقتلهم ؟

— لا . . ليس دائما . . سنخفيهم فى الكهف حتى يدفعوا فدية .

— وما هى الفدية ؟

— مال . . إنك بذلك ترغمهم على دفع أقصى ما يستطيعون دفعه من المال ، وفى الغالب يدفع أصدقاؤهم الفدية المطلوبة ، فإذا لم يدفعوا الفدية بعد أن تستبقيهم عاماً ، فإنك تقتلهم ، فتلك هى الطريقة المتبعة . ولكنك لا تقتل النساء ، وإنما تأسرهن لأنهن جميلات وثريات دائماً ، كما أنهن يكن شديدات الفزع . . إنك تستولى على ساعاتهن وما معهن ، ولكنك تخلع قبعتك لهن وتخاطبهن بأدب . . إنك لن تجد أشخاصاً أكثر أدباً من اللصوص . وفى وسعك أن تقرأ ذلك فى أى كتاب . . ثم ، إن النساء لا يلبثن أن يحببنك ، وبعد أن يقضين أسبوعاً أو أسبوعين فى الكهف ، يتوقفن عن البكاء ، وبعدئذ لن تستطيع أن ترغمهن على الرحيل . أما إذا أجبرتهن على ذلك ، فإنهن لا يلبثن أن يعدن إليك .. هكذا قالت جميع الكتب !!

— يا إلهى . . .. أعتقد أنه من الأفضل أن أكون لصاً !

— نعم ، إن ذلك أفضل من بعض الوجوه ، لأنه يجعلك قريباً من الوطن و « السيرك » وما شاكل ذلك .

وفى هذه الأثناء كان كل شىء قد أعد ، ودخل الغلامان من الفجوة ، وكان « توم » فى المقدمة ، ثم راحا يشقان طريقهما إلى الجانب البعيد من النفق ، وبعدئذ ربطا طرف أحد خيوط الطائرة فى نتوء ، واستمرا فى السير . وبعد أن تقدما عدة خطوات ، وصلا إلى النبع ، فاقشعر جسم « توم » وأشار لهاك موجهاً نظرة إلى بقيـــة ذبالة الشمعة التى ذابت وانطفأت أثنـــاء وجوده و « بيـكى » بجيذين فى الكهف ؛ ووصف له كيف أنهما — « بيـكى » وهو ظلا يراقبان اللهب ، وهو يتراقص ، قبل أن ينطفئ ، وقد ركبهما فزع عظيم !

وبدأ الغلامان يتحدثان بصوت هامس ، فقد أحدث سكون المكان وظلمته أثرهما فى نفسيهما . . ومضياً فى السير ، ثم لم يلبثا أن دخلا الممر

الثانى وظلا يسيران فيه ، حتى وصلا إلى الصخرة العالية . . . وهناك تبين للغلامين — على ضوء الشمعتين — أن الصخرة لم تكن شديدة الانحدار ، فقد كانت عبارة عن تل منحدر يبلغ ارتفاعه عشرين أو ثلاثين قدما فحسب . .

وهمس « توم » . والآن ، سأريك شيئاً يا « هاك »

ورفع شمعته عالياً وأردف :

— أنظر إلى أبعد ما تستطيع حول الركن . . هل فعلت ؟ هناك — على الصخرة الضخمة حيث يوجد أثر دخان الشمع .

— يا إلهى ! أرى صليباً « يا توم » !

— أين يوجد رقم ٢ ؟ . . . تحت الصليب . . . أليس كذلك ؟ هناك رأيت « إنجان جو » يرفع شمعته يا « هاك » !

فحملق « هاك » فى الملامة الغامضة ، ثم قال بصوت مرتعش :

— « توم » ، هلم بنا نهرب من هذا المكان !

— ماذا ؟ ونترك الكنز ؟

— نعم . . . نتركه . . إن شبح « انجان جو » موجود هنا بكل تأكيد!

— كلا يا « هاك » . . كلا . . إنه ليس موجودا هنا .. إنه يوجد حيث مات « جو » — هناك عند مدخل الكهف — أى على بعد خمسة أميال من هنا .

— كلا يا « توم » ، إنه ليس هناك . . إنه يتسكع حول الكنز . . . إننى أعرف ألاعيب الأشباح ، وأنت أيضاً تعرفها ! !

وبدأ « توم » يخشى أن يكون « هاك » على حق . وتجمعت الظنون والأوهام فى عقله . ولكن سرعان ما طرأت على باله فكرة فقال :

— يا لنا من غبيين يا « هاك » ! إن شبح « انجان جو » لا يمكن أن يحوم حول مكان فيه صليب ! وكانت حجة قوية أحدثت أثرها . .

قال « هاك » : إننى لم أفكر فى ذلك يا « توم » . . إن ذلك من حسن حظنا . . أعتقد أنه يجب علينا أن نهبط من فوق هذا التل ، ونبحث عن الصندوق المنشود .

وهبط « توم » أولاً ، وهو يغرس قدميه بعنف فى الطفل ليحفر فيه ما يشبه درجات السلم . وتبعه « هاك » ، ورأى الإثنان أربعة ممرات تطل على كهف صغير تتوسطه الصخرة الهائلة . وفحص الغلامان ثلاثة من هذه الممرات ، دون ان يصلا إلى غايتها . . . وأخيراً ، عثرا على حجرة صغيرة فى أقرب ممر إلى قاعدة الصخرة ، به ثلاثة ألواح خشبية نُظّمت على هيئة سرير فوقه عدد من (البطاطين) ، كما عثرا على مشجب ، وبعض الأطعمة ، وعظام دجاجتين أو ثلاث دجاجات مجردة من كل أثر للحم ، ولكنهما لم يجدا أثراً للصندوق الذى يضم الكنز الثمين ! !

— تقول يا توم إن الكنز مخبوء تحت الصليب . . هذا المكان يكاد يكون أسفل الصليب . . ولا شك أنه من المستحيل أن يكون الصندوق تحت الصخرة نفسها لأن الصخرة مستقرة تماماً على الأرض ، ولا يتسنى لأحد أن يزحزحها من مكانها !

واستأنفا بحثهما فى كل مكان ، حتى إذا ما انتابهما الإعياء جلسا فوق الأرض ساخطين ! . وبعد فترة من الصمت قال « توم » :

— اصغ إلىّ يا « هاك » إننى أرى آثار أقدام وشمع على الطفل عند أحد جوانب هذه الصخرة ، ولكنى لا أرى أية آثار منها على الجوانب الأخرى . فما معنى ذلك ؟ أؤكد لك أن الكنز تحت الصخرة . ولهذا سوف أحفر فى الطفل .

فقال « هاك » بانتعاش : إنها ليست فكرة خرقاء يا « توم » !

وفى التو أخرج « توم » المدية التى أهدتها مارى له ، وما كاد يحفر أربع بوصات ، حتى اصطدمت المدية بخشب .

فهتف : إصغ يا « هاك » هل سمعت ؟

وبدأ « هاك » يحفر وينبش ، وسرعان ما عثرا على بعض الألواح الخشبية فأزالاها من مكانها . وكانت هذه الألواح تخفى خندقا طبيعيا يمر من أسفل الصخرة — ونزل «توم» فى الخندق ، وأدخل شمعته تحت الصخرة بقدر ما استطاع ، ولكنه قال إنه لا يستطيع أن يرى نهاية الخندق ، ثم أعلن أنه يعتزم الاستكشاف .

ثم انحنى إلى الأمام،وزحف تحت الصخرة فى طريق ضيق قليل الانحدار ينعطف يمينا ثم يساراً . .

وكان « هاك » يسير فى أثره ، وبعد قليل انثنيا ، فى الطريق ، ولم يلبث « توم » أن صاح :

— يا إلهى . . أنظر يا « هاك » !

كان صندوق الكنز موضوعا بداخل لجوة صغيرة ، بجوار مجموعة من رصاص المسدسات ، وفوقه بندقيتان بداخل كيسين من الجلد و « حزام » جلدى ، وبعض التفاهات المبللة بالماء !

وقال « هاك » ، وهو يفحص بأصابعه قطع النقود :

— وأخيرا عثرنا على الكنز ! يا إلهى ! لقد أصبحنـــا من الأثرياء يا « توم » !

— طالما جال بذهنى أننا سنعثر عليه يا « هاك » . ولكنى لا أكاد أصدق عينى الآن . مهما يكن ، لقد أصبح الكنز « ملكا لنا بكل تأكيد ! والآن ، يجب ألا نتلكأ هنا ، فلنمض بالصندوق . . دعنى أجرب إن كان فى استطاعتى أن أرفعه !

كان وزن الصندوق حوالى خمسين رطلا . ولقد استطاع « توم » رفعه بصعوبة ، ولكنه لم يستطع حمله بسهولة .

قال : هذا ما جال بخاطرى ، فقد كان يبدو ثقيلا عندما حمله الرجلان فى ذلك اليوم ، ونحن مختبئان فى المنزل المهجور .. لقد لاحظت ذلك ، ولهذا

فانى أعتقد أننى كنت على صواب ، عنـــدما قررت إحضار الحقيبتين الصغيرتين معنا !

وسرعان ما أفرغا النقود فى الحقيبتين ، وحملاهما !

قال « هاك » بعد أن خرجا من الخندق : دعنا نحضر البندقيتين والأشياء الأخرى التى عثرنا عليها .

— كلا « ياهاك » — دعها هناك ... فستكون أدواتنا السرية عندما نصبح لصوصا !.. سوف نبقيها حيث هى طوال الوقت ، كما سنحتفظ هنا بخمور أيضا . . إنه مكان جميل للعربدة !

— ما هى العربدة ؟

— لا أعلم .. ولكن اللصوص يعربدون دائما،وهم على حق فيما أظن !. هلم بنا « يا هاك » فقد قضينا هنا وقتاً طويلا ، وقد تأخر الوقت فيما أظن . ثم إننى جائع .. سوف نطعم وندخن فى القارب .

وبعد قليل كانا يخرجان من فتحة الكهف السرية، وتلفتا حولهما بتحفز ولما اطمأنا إلى أنه لا يوجد ثمة مخلوق فى المنطقة كلها،انطلقا إلى القارب فركباه ثم تناولا الغذاء وراحا يدخنان . . وبينما كانت الشمس تنحدر نحو الأفق ، أطلق الغلامان القارب ، فوصلا إلى غايتهما ، بعد أن أظلمت الدنيا بفترة قصيرة وكانا يثرثران بمرح !

قال « توم » : سنخبىء هذه النقود فى (الحلق) العلوى لنافذة حظيرة الأرملة،وسوف نعود فى صباح الغد لنعد النقود ونقتسمها . وبعدئذ نبحث عن مكان آمن فى الغابة ، ندفن فيه هذه الثروة . فعليك أن تبقى هنا وتراقب النقود ريثما أذهب وآتى بعربة صديقنا الفلاح « بنى تايلور » الصغيرة . . . لن أغيب أكثر من دقيقة .

ولم تطل غيبته ، إذ سرعان ما عاد ، وهو يجر العربة الصغيرة ، ووضع الحقيبتين فوقها ، وغطاهما ببعض الخرق القديمة . ثم بدأ السير ، وهو يجر العربة خلفه . . وعندما وصل الغلامان إلى منزل الكهل الاسكتلندى

يوقفا ليستريحا . وبينما كان يستعدان لاستئناف سيرهما ، برز الكهل من المنزل وهتف :

هاللو .. من هناك ؟

— « هاك » و « توم سوير » !

— حسناً . . هيا معى يا غلامان . فقد أطلتما انتظار الجميع . . هيا . . أسرعا . . بل اركضا ، وسألحق بكما ومعى العربة . . لكن يا إلهى ! إنها ليست خفيفة كما ظننت ، هل أثقلتماها بالأحجار . ؟ أم بالمعادن القديمة ؟

فقال « توم » : بالمعادن القديمة !

— هذا ما ظننته .. إن غلمان هذا البلد يبذلون جهدا كبيرا وينفقون وقتاً طويلا فى البحث عن ست قطع قديمة من المعدن يبيعونها للسبك ، ليحصلوا على قدر من المال لا يكاد يبلغ نصف ما عساهم يستطيعون الحصول عليه ، لو أنهم أنفقوا ذلك الوقت كله فى عمل منتظم .. ولكن هذه هى الطبيعة البشرية . . هلما . . أسرعا . . هلما . . أسرعا !

واستفسر الغلامان عن سر هذه العجلة ، فقال الكهل :

— دعونا من ذلك الآن ، فستعرفان كل شىء ، عندما تذهبان إلى قصر الأرملة « دوجلاس » !

وساورت الريبة « هاك » ، فقد كان يخشى أن تكون الأرملة قد ظنت بهما سوءاً ... قال :

— مستر « جونز » .. أعتقد أننا لم نفعل ما يستحق المؤاخذة ؟

فضحك الكهل .. وقال :

— لست أدرى يا بنى . . لست أدرى شيئاً عن ذلك . . ألست والأرملة صديقين حميمين ؟

— نعم .. لقد كانت صديقة رحيمة بى على كل حال .

— إذن ما الذى يجعلك تخشاها ؟

ولم يستطع عقل « هاك » بطيء التفكير أن يجيب على هذا السؤال بسرعة وفى تلك الأثناء كان الكهل يدفعه و « توم » إلى غرفة الجلوس بقصر « مسز دوجلاس » . وترك مستر « جونز » المركبة عند الباب ، ثم لحق بالغلامين .

كانت الغرفة ساطعة الضوء . وكانت مكتظة بكل شخص له (حيثية) فى القرية ، فقد كان من بين الحاضرين الزوجان «تاتشر» والزوجان «هاربر» والزوجان « روجرز » والعمة « بولى » و « سيدنى » و «مارى» والواعظ ، ومحرر الصحيفة المحلية،وعدد آخر كبير،وجميعهم يرتدون أفخر مالديهم من ثياب..وقد استقبلت الأرملة الغلامين استقبالا حاراً،رغم أنهما كانا ملطخين بدهن الشمع والطفل .. وما كاد بصر العمة «بولى» يقع على «توم» حتى احمر وجهها من الخجل،وقطبت حاجبيها، وهزت رأسها بضيق . فأحس الغلامان بالارتباك الشديد .

قال مستر « جونز » : إننى لم أدع « توم » يذهب إلى المنزل ، فقد صادفته و « هاك » عند باب منزلى ، فأحضرتهما على عجل .

فقالت الأرملة : لقد أصبت حينما فعلت ذلك .. هيا معى أيها الغلامان ! وأخذتهما إلى غرفة النوم ،وقالت :

— هلما اغتسلا واستبدلا ثيابكما .. إليكما بذلتان جديدتان وقميصان وجوربان .. إنهما لهاك — كلا .. لا أريد شكراً يافتى .. لقد اشترى مستر « جونز » إحداهما ، واشتريت أنا الأخرى ، ولكنهما يناسبانكما معاً . . . فهلما ارتدياهما سريعاً . . أما نحن فسننتظركما — فعليكما بالانضمام إلينا ، حينما تنتهيان من ارتداء ثيابكما .

الفصل الرابع والثلاثون

قيض من الذهب !

قال « هاك » : اصغ إلىّ يا « توم » . إن فى استطاعتنا أن نهرب من النافذة ، إذا عثرنا على حبل ، لأن النافذة ليست مرتفعة عن الأرض .

— هذا سخف . . لماذا تريد الهرب ؟

— لست معتاداً على مثل هذه المجتمعات ، وليس فى استطاعتى أن أطيقها . ومن ثم فلن أذهب معك إلى غرفة الجلوس يا « توم » .

— كفى هذيانا ! ليس فى ذلك ما يخيف . . إننى لا أبالى البتـــة ، وسأعنى بك .

وظهر « سيدنى » على باب الغرفة فى تلك اللحظة .

قال : لقد ظلت عمتى تنتظرك طوال بعد الظهر يا « توم » ، وأعدت « مارى » ثياب المساء . وكان الجميع يشعرون بالقلق من أجلك . . أخبرنى ، أليست هذه البقع التى تلوث ثيابك بقع دهن وطفل ؟

— لا شأن لك بذلك يا مستر « سيدنى » ! . وعلى كل حال ، لماذا كل هذه الجلبة ؟

— إنها حفلة من الحفلات التى اعتادت الأرملة إقامتها . وقد أقامتها هذه المرة تكريماً للكهل الأسكتلندى وولديه ، بمناسبة ما أبدياه من بسالة فى تلك الليلة . . وبهذه المناسبة ، إن فى استطاعتى أن أفضى إليك بنبأ هام إن كان يهمك أن تعرفه .

— حسناً . . ما هو ؟

— إن مستر « جونز » يحتفظ بمفاجأة للحاضرين الليلة ، ولكنى سمعته يحدث عمتى بشأنها اليوم سراً ، وإن كنت أظن أنها لم تعد الآن سراً ، فإن كل شخص يعرف ماذا هناك — حتى الأرملة نفسها تعرفه ، رغم أنها تتظاهر

بأنها لا تعلم شيئاً .. لقد أصر مستر « جونز » على أن يحضر « هاك » الحفلة — وقال إنه لا يستطيع أن يمضى بسره الكبير بغير وجود « هاك » .

— وما صلة السر « بهاك » يا « سيدنى » ؟

— الصلة هي متابعة « هاك » للشريرين حتى قصر الأرملة .. أعتقد أن مستر « جونز » كان يريد أن يجعل من هذا النبأ مفاجأة عظمى ، ولكنى أعتقد أيضاً أن هذه المفاجأة لم تعد مفاجأة على أية حال !

ثم قهقه « سيدنى » ضاحكاً بارتياح ..

— « سيدنى » هل كنت أنت الذي كشف السر ؟

— ليس لشخصية مَنْ كشفه أية أهمية . ويكفى أن شخصاً ما كشفه .

— « سيدنى » . . يوجد فى هذه المدينة شخص واحد وضيع ، وهذا الشخص هو أنت ! فلو أنك كنت فى مكان « هاك » لتسللت مبتعداً بغير أن تكشف أمر اللصين لأحد ، فأنت لا تستطيع أن تفعل شيئا غير وضيع ، كما أنك لا تستطيع أن تطيق الثناء على أى شخص يأتى عملا طيباً . .

وأمسك « توم » بأذنى « سيدنى » وجذبه نحو الباب وهو يركله بقدمه .. ثم أردف :

— والآن اذهب شاكياً لعمتى إذا جرؤت — وغداً أنتك بك ! وبعد عدة دقائق ، كان ضيوف الأرملة يجلسون حول مائدة العشاء ، بينما جلس حوالى اثنى عشر غلاماً حول منضدة صغيرة فى نفس الغرفة جريا على العادة المألوفة فى تلك البلاد فى ذلك الحين . وفى الوقت المناسب ألقى مستر « جونز » خطابه الذى شكر فيه الأرملة على الشرف الذى أسبغته عليه وعلى ولديه ، ثم قال إن هناك شخصاً آخر جعله تواضعه . .

وهلم جرا . . ثم ألقى بقنبلته ، فكشف السر عن مغامرة « هاك » فى كلمات حماسية كان يجيد استعمالها : ولكن السر لم يكن سراً كما قلنا ، ولذلك

لم يُقابل بعاصفة من التصفيق الحاد، كما كان خليقاً أن يحدث لو أنه ظل سراً ، ومع ذلك ، فقد أبدت الأرملة قدراً كبيراً من التظاهر بالدهشة ، وغمرت « هاك » بعبارات الشكر والتقدير ، حتى كاد الغلام ينسى الضيق الذى كان يشعر به ، من جراء الثياب الجديدة التى أرغم على ارتدائها . . وقد ازداد ارتباكا ، حينما لاحظ أنه أصبح محط أنظار جميع من فى الغرفة !

وقالت الأرملة أنها تعتزم أن تأوى « هاك » فى منزلها ، وأن تلحقه بالمدرسة ليتعلم ، وحينما يتاح لها المال ، فإنها سوف تهيىء له عملا متواضعاً . وعندئذ ألفى « توم » فرصته سانحة ، فقال :

— إن « هاك » ليس بحاجة للعمل ، لأنه غنى !

وبُهِت الحاضرون وحسبوها « نكتة » ، فراحوا يضحكون ، ثم شملهم صمت عميق بدّده « توم » بقوله :

— إن « هاك » يملك مالا كثيراً . . لعلكم لا تصــدقون ذلك ، ولكنه الواقع .. لا حاجة بكم للابتسام — فإن فى استطاعتى أن أثبت لكم ذلك ، فانتظروا لحظة .

وهرول « توم » خارجاً من الباب ، فتطلع الحاضرون إلى بعضهم البعض ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الحيرة الممزوجة بالاهتمام ، ثم تطلعوا إلى « هاك » ولكن الغلام لاذ بالصمت .

قالت العمة « بولى » ماذا دها « توم » يا « سيدنى » يا إلهى ! إننى لا أستطيع أن أفهم هذا الغلام و . . .

وأقبل « توم » فى تلك اللحظة وهو يحمل الحقيبتين بصعوبة ، وسكب كومة الذهب الأصفر فوق المنضدة .

ثم قال : ها هى الثروة التى حدثتكم عنها .. إن نصفها ملك لهاك ، والنصف الآخر ملك لى !

وشهق الحاضرون . وحدقوا جميعاً فى المال ، وقد سيطر عليهم صمت عميق . وبعدئذ انفجروا جميعاً يطالبون بالإيضاح ، فقال « توم » إن فى

استطاعته أن يقدم لهم إيضاحاً .. وفعل ! . ومع أن القصة كانت طويلة إلا أنها كانت مثيرة وغريبة . ولم يحاول أحد أن يقاطع الغلام ، وهو يسرد تفاصيل المغامرة الرائعة . وعندما انتهى « توم » من الحديث قال مستر « جونز » :

— كنت أظن أنني احتفظت لكم بمفاجأة صغيرة لهذه المناسبة ، ولكنها لم تعد تذكر حيال هذه المفاجأة الضخمة .

وأحصيت النقود ، فإذا بها أكثر قليلا من اثنى عشر ألف دولار . .. وكانت أكثر مما استطاع أن يراه أحد من الحاضرين دفعة واحدة ، ولو أن كثيرين منهم كانوا يملكون أكثر من ذلك على شكل أملاك .

الفصل الخامس والثلاثون

« هاك » المحترم ينضم للعصابة !

يستطيع القارىء أن يتصور أن أنباء الثراء العريض الذى هبط على « توم » و « هاك » أحدثت ضجة عظيمة فى قرية « سانت بيتر سبورج » الصغيرة ، فإن الكثيرين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن إنساناً ما ، يملك مثل هذا المبلغ الكبير نقداً وعداً . . . وراح الجميع يناقشون الموضوع بحسد وغيرة ، بل إن كثيرا من المواطنين انتابتهم حمى البحث عن كنز فلم يدعوا منزلا خرباً فى القرية والقرى المجاورة لها ، إلا قلبوه رأساً على عقب ، وهدموه من أساسه بحثاً عن كنز مخبوء — ولم تكن هذه الحمى مقصورة على الصغار : وإنما امتدت إلى رجال من المشهورين بالرزانة والهدوء والبعد عن الخيال .. وكان الناس كلما ظهر « توم » و « هاك » فى مكان ما يلتفون حولهما ويصغون إلى حديثهما بإعجاب شديد ، ولم يستطع الغلامان أن يتذكرا ملاحظاتهما كانت تلقى مثل هذا الاهتمام من قبل ، أما اليوم ، فقد أصبح الجميع يتلهفون على سماع هذه الملاحظات وتكرارها ، والتعمق فى تأملها . وهكذا كان كل ما يفعلانه يعتبر شيئاً هاماً مدهشا ، واعتقد الجميع أن الغلامين فقدا القدرة على فعل أو قول الأشياء والأقوال العادية ، زد على ذلك ، أن الكثيرين انصرفوا إلى دراسة تاريخ حياة الغلامين وأجهدوا أنفسهم فى اكتشاف علامات تبشر بالنبوغ والعظمة وقوة الابتكار ، كما نشرت صحيفة القرية مقتطفات عن حياتهما !

وأقرضت الأرملة « دوجلاس » نصيب « هاك » من الثروة لبعض الأشخاص ، مقابل فائدة قدرها ستة فى المائة ، وفعل القاضى « تاتشر » الشىء نفسه بنصيب « توم » تلبية لرغبة العمة « بولى » . وهكذا أصبح لكل غلام منهما دخل مستقل الآن ـ دولار كامل فى كل يوم من أيام

السنة ... وكان هذا الدخل مساويا لما يحصل عليه الواعظ ، بل كان ذلك هو الأجر الذى وعدوه بالحصول عليه وإن كان لم يستطع الحصول عليه أبداً .

وارتفع شأن « توم » فى نظر القاضى « تاتشر » . وكان القاضى لا يفتأ يصرح بأنه كان يستحيل على غلام عادى انقاذ ابنته من الكهف ، وعندما أبلغته « بيكى » — بمنتهى السرية — كيف أن « توم » تلقى طائعاً مختاراً عقوبة الضرب التى كان من المقرر أن تنزل بها، تأثر القاضى، ولكنها ما كادت تفضى إليه بنبأ الأكذوبة الكبرى التى لجأ الغلام إليها، ليبعد الضرب عنها، حتى صاح مستر « تاتشر » قائلا إن هذه أنبل وأكرم أكذوبة — أكذوبة تستحق أن ترفع رأسها وتسير عبر التاريخ ! ! وخيل لبيكى أن أباها لم يبد فى يوم من الأيام على هذا الطول وتلك العظمة ، عندما أخذ يروح ويجىء فى الغرفة وهو يضرب الأرض بقدمه وينطق بهذه الكلمات . ومن ثم ، فقد غادرت المنزل على الفور ، وأفضت إلى « توم » بكل ما قاله أبوها !

وأعرب القاضى « تاتشر » عن أمله فى أن يصبح « توم » فى المستقبل محاميا عظيما، أو جنديا عظيما يشار إليه بالبنان. ثم أردف قائلا إنه قرر أن يساعد الغلام على الالتحاق بالأكاديمية العسكرية الأهلية ، على أن يتلقى دراسته فى القانون بعد ذلك فى أحسن مدرسة حقوق بالبلاد ، وبذلك يمكنه أن يمارس إحدى المهنتين أو يمارسهما معاً .

وأما « هاكلبرى فين » فإن ثراءه ، وتعهد الأرملة « دوجلاس » لشأنه أدخلاه إلى المجتمع — لا بل إنهما جذباه إليه جذبا ، وربما قذفا به إليه قذفاً — ولهذا كانت متاعبه أكثر مما يطيق احتماله . فقد دأب خدم الأرملة على المحافظة على نظافته وأناقته ، وتسريح شعره وتصفيفه ، وكانوا يغطونه أثناء الليل بأغطية ثقيلة ، لا توجد بها بقعة واحدة ، كما كان عليه أن يستعمل السكين و « الشوكة » عند تناول الطعام ، وأن يستعمل المنشفة والقدح ذى الطبق وكان عليه أيضاً أن يتعلم فى المدرسة ، وأن يذهب إلى الكنيسة

وأن يتكلم بلغة مهذبة ، وهكذا كان كلما أدار وجهه ، ألفى نفسه مكبلا بأغلال المدنية التى تثقل يديه وقدميه !!

ولقد احتمل الغلام هذه « المضايقات » مدة ثلاثة أسابيع ، ثم اختفى ذات يوم . وقضت الأرملة ثمانى وأربعين ساعة ، وهى تبحث عنه فى كل مكان وقد تولاها جزع شديد ، واهتم الجمهور بالأمر أيما اهتمام ، وراح الجميع يبحثون عنه ، حتى فى النهر ، بغير جدوى . وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث خرج «توم» يبحث عن صديقه فى البراميل الكبيرة الفارغة الملقاة خلف المجزر ، وإن هى إلا لحظات حتى عثر على الهارب مختبأ بداخل أحدها . كان « هاك » قد قضى ليلته بداخل البرميل ، وكان قد انتهى فى تلك اللحظة من تناول طعام إفطاره ، الذى كان مكونا من بعض ألوان تناول الطعام البسيطة ، التى سرقها من أماكن مختلفة . وحينما عثر «توم» عليه ، ألفاه ممددا ، وهو يدخن غليونه بارتياح شديد . وكان الغلام أشعث أغبر ، يستر جسده بأسمال بالية مما تخلف لديه من حياته السابقة الحرة السعيدة !! وأخرجه « توم » من البرميل ، وأفضى إليه بما أثاره سلوكه من متاعب ، ثم حثه على العودة إلى المنزل . وفى التو انحسرت عن وجه « هاك » علامات الرضا والارتياح ، وحلت محلها علامات الكآبة والضيق وقال :

— لا تحدثنى عن حياة الترف يا « توم » فقد سئمتها ، لأننى لست معتاداً عليها . . صحيح أن الأرملة رفيقة بى ، ولكنى لا أستطيع احتمال هذه الحياة . إنها تجعلنى أستيقظ فى نفس الوقت كل صباح ؛ وتذهب بى للاغتسال ثم يصففون شعرى ، ولا تسمح لى بالنوم فى الحظيرة الخشبية ، وتضطرنى إلى ارتداء تلك الثياب البغيضة التى تكاد تكتم أنفاسى لأنها لا تسمح بتسرب الهواء منها ... إنها ثياب جد جميلة ، حتى أننى لا أستطيع الجلوس أو الرقاد أو التقلب بها فى أى مكان ، كما أن هذه الأرملة ترغمنى على الذهاب إلى الكنيسة ، فينسال عرقى ، ثم ينسال ، — فإننى أكره تلك المراسيم من كل قلبى ، وليس فى استطاعتى أن أقتنص ذبابة ، وأنا جالس فى الكنيسة ،

وهى تضطرنى إلى ارتداء الحذاء طوال يوم الأحد .. إن هذه الأرملة تأكل على دقات الجرس ، وتأوى إلى الفراش بجرس ، وتستيقظ بجرس — كل شىء بنظام دقيق لا يستطيع الإنسان احتماله .

— إن كل إنسان يفعل ذلك يا « هاك » .

— « توم » ، إن ذلك لن يغير من الأمر شيئا . . فأنا لست مثل كل إنسان ، ولا يمكننى أن أطيق هذه الحياة .. وأنه لمن المـــزعج أن يقيد الإنسان بهذه الأغلال المخيفة .. إننى أحب الحياة الطلقة ، ولكنى فى قصر الأرملة ، لا أستطيع أن أذهب لصيد السمك إلا بإذن ، ولا أستطيع أن أذهب للسباحة إلا بإذن ، وإذا فعلت أى شىء بغير إذن ، قامت الدنيا وقعدت . كذلك صرت مضطراً إلى الكلام بلغة مهذبة وإن لم أسترح إلى هذه اللغة . وعدا ذلك، فإن الأرملة لا تسمح لى بالتدخين ، أو الصياح، أو التحديق فى أى شىء ، أو التمدد ، أو حك جلدى أمام الناس — (ثم بدت على الغلام علامات الانفعال والألم) وأردف — ثم يا إلهى ! إنها تقضى معظم وقتها فى الصلاة والعبادة ... إننى لم أر سيدة كهذه ! وهكذا لم أجد مفراً من الرحيل يا « توم » ، ثم إن المدرسة على وشك الافتتاح ، ستلحقنى الأرملة بها ، وأنا لا أستطيع إطلاقاً احتمال قيود المدرسة . . . إصغ إلى يا « توم » ، إننى لا أبالى بالثراء الذى هبط علىّ ، لأنه أصبح مصدر قلق دائم لى ، كما أنه يجعل الناس تتمني موتى فى كل لحظة . . . إن هذه الثياب تلائمنى ، وهذا البرميل يرضيني ، ولن أتخلى عنهما مهما كانت الظروف . وفى الحق ، أننى ما كنت لأتعرض لـكل هـــذه المتاعب لولا تلك النقود ، فخذ حصتى وضمها إلى حصتك ، واعطنى عشرة بنسات بين حين وآخر — ولكن ليس بكثرة لأننى لا أدفع ثمناً إلا لما يصعب الحصول عليه — فاذهب الآن ودافع عنى عند الأرملة !

— أوه يا « هاك » ، إنك تعرف أننى لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لأنه

ليس من العدل فى شىء ، ثم إنك إذا احتملت هذا الأسلوب الجديد من الحياة فترة أطول ، فسوف تألفه !

— آلفه ! نعم — مثلما آلف الموقد الساخن إذا اضطررت إلى الجلوس فوقه فترة كافية ! كلا يا « توم » . لن أكون ثريا ، ولن أقيم فى هذه المنازل البغيضة التى تكتم الأنفاس .. إننى أحب الغابات والنهر والبراميل ، وسأظل أحبها . . أفى الوقت الذى تتاح لنا فيه البنادق ، والكهف ، ويصبح كل شىء معداً للسرقة ، تبرز هذه السخافات لتقضى على تلك الآمال العريضة !

ووجد « توم » الفرصة سانحة فقال :

— إصغ إلىّ يا « هاك » . . . إن الثروة التى هبطت علينا لا يمكن أن تجعلنى أتخلى عن فكرة احتراف اللصوصية .

— أحقاً ؟ هذا مدهش . . لكن هل أنت شديد اللهفة على ذلك يا « توم » ؟

— نعم ، إننى متلهف على ذلك كلهفتى على الجلوس معك الآن . ولكننا لن نستطيع أن نسمح لك بالانضمام إلى العصابة ما لم تكن شخصا محترما !

وتلاشى مرح « هاك » .. وهتف :

— لا تستطيع أن تضمنى إلى العصابة يا « توم » ؟ ألم تسمح لى بأن أكون قرصانا ؟

— نعم ، ولكن ذلك أمر مختلف ، فإن اللص أكثر تهذبا من القرصان — بصفة عامة . وفى أكثر البلاد يكون اللصوص من النبلاء والأشراف !

— ألم تكن صديقى دائما يا « توم » ؟ لا أظنك ستتنكر لى الآن . . أليس كذلك ؟ إنك لن تفعل ذلك يا « توم » !

— إننى لا أريد أن أفعله يا « هاك » ، لكن ماذا سيقول الناس ؟ سيقولون إن « عصابة » توم سوير « ليست سوى جماعة من الأنذال .

الوضيعين ! . . وهم بالطبع يقصدونك أنت يا « هاك » ، وما أحسبك تحب ذلك ، كما أننى لا أحب أن يقال ذلك عنك .

وصمت « هاك » عدة لحظات ، كان خلالها فريسة لصراع نفسى حاد . . وأخيراً قال :

— حسنا ، سأعود إلى الأرملة ، وأتحمل العذاب شهراً آخر ، لأرى إن كان فى استطاعتى أن أحتمله دواما أم لا ، لكن بشرط أن تسمح لى بالانضمام للعصابة !

— حسنا يا « هاك » . . . اتفقنا . . . والآن هلم بنا أيها الغـــلام وسأطلب من الأرملة أن تمنحك قسطاً أوفر من الحرية .

— أحقا ستفعل ذلك يا « توم » ؟ هذا حسن . . . ليتها ترخى عنان الرقابة قليلا ، فسأحرص على أن أدخن سراً ، وآتى بعض الأعمال التى أصبحت جزءاً من حياتى فى الخفـــاء . . لكن متى ستكوّن العصابة وتصبح لصاً ؟

— فى الحال . . . سوف نجمع الغلمان ، وربما نبدأ عملنا التمهيدى الليلة .

— وما هو هذا العمل التمهيدى ؟

— أن نقسم على أن يشد كل منا أزر الآخرين ، وألا يفشى أسرار العصابة حتى ، ولو مزقوه إربا ، وأن نقتل أى شخص يسىء إلى أحد أفراد العصابة ونقضى على أسرته .

— هذا رائع . . . هذا رائع جداً يا « توم »

— الحق ماتقول يا « هاك » . . . يجب أن ننتهى الليلة من القسم على أن يكون ذلك فى مكان منعزل مخيف — ولقد كان يحسن بنا أن نفعل ذلك فى منزل « مسكون » ، ولكن سوء الطالع شاء أن تُباد هذه المنازل عن بكرة أبيها .

— حسناً ، إن منتصف الليل هو أحسن وقت ملائم على كل حال !

— نعم ، إنه لكذلك . وسيتحتم عليك أن تقسم وأنت تضع يدك على تابوت ، وأن توقع القسم بالدم .

— أوه ! هذا شيء جميل جداً . . . إن اللصوصية أفضل مليون مرة من القرصنة . . . سأبقى مع الأرملة إلى أن يتعفن جسدي يا « توم » . وعندما أصبح لصاً محترفا يتحدث الناس جميعاً عنه ، فإن الأرملة — على ما أظن — سوف تفخر بأنها انتشلتني من المستنقع الآسن الذى كنت أعيش فيه ! !

الخـاتمة

وعند هذا الحد تنتهى هذه القصة . وإنه لمن الخير أن تنتهى هنا ، لأنها لا تعدو أن تكون ترجمة حياة غلام . . . ولو أن القصة مضت إلى ما هو أبعد من ذلك لكان حتما أن تصبح ترجمة حياة رجل ! . فعندما يكتب المرء عن قصة أحد الراشدين ، فإنه يدرك أين ينبغى عليه أن يتوقف . عند زواج مثلا ! . ولكنه حينما يكتب عن الأحداث ، فإنه يحرص على أن يتوقف عن الكتابة عند أحسن خاتمة ملائمة !

إن معظم الأشخاص الذين لعبوا أدواراً فى هذه القصة ما زالوا على قيد الحياة ، وهم ناجحون وسعداء وقد يأتى يوم ، يصبح من الأفضل فيه أن نستأنف رواية قصص هؤلاء الصغار مرة أخرى ، لنرى أى طراز من الرجال والنساء صاروا . ومن ثم فإن « الحكمة » تقتضينا ألا نزيح الستر عن أى جزء من أجزاء حياتهم فى الوقت الحاضر ؟

« تمت القصة »

فهـــرس القصة

صفحة

صفحة

صفحة

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - بالفجالة

تومْ سوير

تأليف

مارك توين

ترجمة

ماهر نسيم

راجعه

فريد عبد الرحمن